

أيام الكراهية والكلاب

الجزء الأول

خيري حداد أبو عافية

أيام الكراهية و الكلاب / رواية

خيري حداد أبو عافية

الطبعة الأولى ، ٢٠١١



دار الكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادي الطحان، المرج الغربية

موبايل: ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E mail: dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٠٧

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-١١٦-٢

جميع الحقوق محفوظة ©

أيام الكراهية والكلاب

الجزء الأول

خيري حداد أبو عافية

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار الكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى :

- ثلاثة سقوني من فخر الحب .. وثلاثمائة تجرّعت منهم كيزاناً

من الأحزان ...

- إلى القرية التي فيها عشت أيام الكراهية و أسكتّ فيها

نباح الكلاب ..

- إلى أبي و أمي و أمي لبيبه



- على حرف الترعة -

كنت دائما أبحث عن عالم يوقف الدهشة في داخلي "ولماذا كنت أندهش من عالم صغير حولي " كيف لا أذوب مع الحياة التي يحياها الأطفال حولي " ولا أخفى أنني كنت دائماً أشعر بأنني متميز عن بقية الأطفال الذين يعيشون حولنا.. كنت أذهب معهم وأعود نلعب على حرف الترعة ويجوار حنفيات المياه لصاحبها خليفة.. ولما كنت أعود إلى المنزل كانت أمي تحتويني بعطفها وبحبها وتلهفها عليّ، ولم يكن الأطفال حولي لهم أم مثل أمي.. كان هؤلاء الأطفال يفضلون أن يبقوا في الشارع وكانت أمهاتهم تطردهم من بيوتهم وكانت أمي الوحيدة من دورهم لا تريدني أن أخرج إلى الشارع أبداً.. وكنت أعرف الأسباب والدوافع التي تدفعها إلى بقائي في البيت.. أن أسقط في مياه الترعة فأغرق.. أن أتعلّم الألفاظ النابية التي كان الأطفال يتناقلونها بالسنتهم وسلوكياتهم.. أن يرفسني حمار جامح أو يقطع فوقني جمل شارد.. كانت شوارع القرية لا يحكمها عقل وتتحكم فيها الفوضى ومعظم أهل القرية بأطفالها يمشون حفاة ويلعبون في التراب ويقذفون بعضهم بكرات من طين الترعة.. وكان كل نساء قريتي يعملون على جانبي الترعة في غسل الملابس أو في غسل القمح تمهيداً لنشره ثم طحنه.. وعندما كبرت قليلاً كنت أقضي وقتاً طويلاً أجلس على حرف الترعة أمام البيت وكان لنا شجرة توت وشجرة جميز ضخمة زرعهما أبي منذ أكثر من ربع قرن.. ولا نخجل

إن قلت أنه كان يستهويني نساء القرية وفتياتها لما كن يجلسن
أو يقفن في جرف الترعة ليغسلن الملابس والقمح والمواعين..
وكنت أنسى نفسي بالساعات وأنا أتأملهن في صمت وهدوء
بالغين ولم أكن أتخيل أن المرأة في قريتي وهي تمشي حافيه
وترتدي جلبابها الأسود الطويل أن يكون لها مثل هذه الساقين،
وكثيرات منهن لم يكن يرتدين تحت الجلباب شيئاً ولم يكن
يالين بوجودي حيث أنني في نظرهن طفل صغير برئ
وهادئ.. وعجب أُمي أن أكون بجانب الجميزة كل يوم
وأفترج على الترعة وعلى الناس فيها وحوّلها قائلة :

- هذا آمن لك يابني.. لا تلعب مع الصغار.. إنهم جميعاً
أوباش..

- هذا يروق لي.. إنني لن أَلعب مع الأطفال ثانية..

- ويروق لي أن أراك من باب السور جالساً في هدوء وأدب
أمام عيني إنني بذلك أطمئن عليك من وقت لآخر.. كن دائماً
تحت ناظري..

.. وإنني أشعر دائماً بأنني مدين لهذه الترعة وشجرة الجميز
ومدين لكل فتاة وامرأة كانت تقضي أعمالها في ترعة القرية..
وعشقت الجمال من خلال رؤيتي لساق المرأة في قريتي وأي
شيء آخر كنت أراه من جسدها.. حيث كنت أبلغ قمة
دهشتي وأنا أتأمل عرى النساء في الترعة..

- وقد كان لهذه الدهشة أثار عميقة تكونت في داخل نفسي..
وفي يوم جلست أمام أُمي لأقول لها..

- المرأة جميلة يا أمي.. فلماذا تخدم الرجل.. كيف تخدم المرأة الجميلة الرجل المتعجرف.
- هذه سنة الحياة.. ومن قال لك أن المرأة جميلة وليس بها قبح.
- إني لم أر فيها غير الجمال..
- أنت طفل ولا تدرك أعماق الحياة.. ومن أدراك بجمال المرأة.. إنك لم تر منها غير وجهها.
- ربما أحسست بجمالها في داخلي..
- لا أعرف كيف أتت إليك هذه الأفكار وأنت مازلت طفلاً.
- إن عقلي يا أمي يستوعب كل شيء حولي.
- عندما كنت تلعب مع الأطفال مثلك لم تكن تحدّثني عن هذه الأشياء..
- لقد فقدت كثيراً من أيام عمري حينما كنت ألعب مع الأطفال الأوباش..
- إن معظم من في القرية من أطفال أبناء فلاحين غلبة فقراء فلن يكونوا غير ذلك..
- هل يوجد أطفال مثلي في القرية يقعدون كل يوم عند الجميزة ويتأملون ما يحدث من أعمال في الترعة..
- في الناحية البحرية كلّها لا توجد جميزة على بر الترعة..
- وهل يوجد طفل مثلي يتأمل ما يدور في الترعة..
- لا أعرف.. ربما يوجد ولكن قليل من الأطفال يتأملون ويلقون بأفكارهم مثلك على أمهاتهم..
- وهل تمر الترعة على كل بيوت القرية..

- إن التربة تمر بأطراف القرية فقط..
- ما هي حدود التربة من الجنوب..
- ناحية يطلق عليها الكفر..
- وناحية الشمال..
- بقية بيوت القرية التي تقترب من حقولها..
- وهل يوجد نساء في الكفر يتزلن إلى التربة ويقمن بأعمالهن مثل هنا..
- نعم مثل هنا تماماً.. ولكن نساء الكفر يا بني أجمل من هنا بكثير..
- لماذا..
- هذه ظاهرة موجودة في معظم القرى ولا أعرف لها سراً..
- إنني أريد أن أذهب إلى هذا الكفر وأقعد على ترعته لأرى جمال النساء هناك.
- كيف لطفل مثلك يتحدث عن النساء والجمال كأنك رجل كبير..
- لا أعرف.. ولكن أكيد الرجال أكبر مني يعرفون أسراراً كثيرة عن الجمال والنساء..
- لا.. إن معظم رجال القرى لا يقدرّون الجمال والنساء ويعرفون القليل عن ذلك..
- لماذا..
- ألم أقل لك إن معظم الرجال في قريتنا غلابه.. أجراء يعملون باليومية.. وليس لديهم أي رصيد من التأمل..

- والرجال أصحاب الأرض..
- لديهم رصيد من الطموح في إنتاج محاصيل وفيرة وجمع المال..
- ولكن الحياة في حاجة إلى رجال يتذوقون الجمال..
- هذا مساحته قليلة في قريتنا ولا يعرف الرجل الموسر جمال المرأة إلا في غرفة نومه..
- هذا جميل..
- هذا ثقيل يابني.. إنه يتعامل معها كأنها حيوانه جميله وليست إنسانه..
- كيف..
- الرجل هنا يفتقد الحنان والرقّة والكلمات الحلوة.. والمرأة في حاجة إلى كل ذلك صباحاً ومساءً..
- وليتهم يتعاملون مع الجسد بطريقة سليمة وصحيحة..
- ولماذا لم يتعلموا ذلك..
- إنهم جميعاً تربوا على الغلظة ولا توجد لديهم ثقافة التعامل مع المرأة أو مع غيرها..
- لو كان في كل بيت بعض من النور لامتلكوا هذه الثقافة..
- النور موجود حولنا وفي كل مكان ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليه..
- لماذا..
- لأنهم لا يحاولون ويتعاملون مع الأشياء حولهم بأسلوب مادي..

- والحل..

- ليست هناك حلول مع قوم تعودوا ذلك منذ مئات السنين..

- لكنني عندما أكبر سوف أكون غير ذلك..

- إنك لن تستطيع في وسط هذا المجتمع..

- وإذا دعوت الناس إلى تذوق الجمال معي..

- سوف يسخرون منك ويعزلوك ويطردوك من القرية..

- إذاً عليّ أن أهاجر من هنا..

- إذا نمت لديك هذه الأفكار وآمنت بأفكارك وبأسلوب تلك

الحياة الجديدة التي تدعو إليها فعليك أن تهاجر..

- إلى المدينة..

- ولن تجد في المدينة كل ما تريد..

المدينة

ظَلَّت المدينة عالقة برأسي وكنت أتصورها أشياءً تفوق الوصف وأنا في سوف أجد فيها جمالاً يفوق الجمال الذي أتمناه، وأنا في سأجد أهلها جميعاً يعشقون الجمال.. وكان الجمال في رأسي ومخيلتي أنني سأجد شعراء وكتاب يتغزلون في المرأة وجهها وكل أنحاء جسدها، وكان أبي يذهب إلى المدينة مدعواً لشراء جهاز عريس أو عروسه من مدينة أشون، ولم يكن هناك أهل عريس أو عروسه من عائلتنا إلا ويدعون أبي في تعطير (تجهيز وشراء) أثاث بيت الفرح.. وإذا قال أبي كلمه فيحترمها الجميع ويقدرونها ويقول صغيرهم قبل كبيرهم "أبويا الحاج قال"، وكان الغريب والذي يسعدني أن كل نساء عائلتي ينادون أبي بخال الحاج.. وكنت أندesh.. هل كان لأبي شقيقات لكل هذا العدد من النساء اللاتي ينادونه بالخال.. في أول الأمر ظننت ذلك، وعندما سألته في يوم عما تحبّه ظنوني راح يضحك ملء فيه وبصوت عال وأفهمني أن ذلك تعبيراً عن التقدير والإحترام..

.. كان لابد لي أن أتكلّم وأطلب من أبي أن يصحبني معه إلى المدينة وجاء هذا اليوم وكان عمري آنذاك الخامسة واقتربت منه وهو يقعد أمام منقذ الحديد ويقمّر الخبز على ناره المصطليه.. جلست بجانبه وأمسكت بكف يده فابتسم وشجعني ذلك أن أتفوه قائلاً في رجاء :

- أتمنى أن أرى المدينة..

- أي مدينة..

- مدينة أشمون التي تذهب إليها مع الناس..

- أخاف عليك من الزحام وأن تتوه عني وسط الهيصه
والزغاريد..

- سوف تكون يدي في يدك.. ولماذا يعملون هيصه
ويزغردون..

- الفرحة.. كلما إشتروا طشطاً أو حلقاً أو قطناً أو قطعة
ملابس زغرد النساء..

- إني يا أبي أريد أن أرى النساء وهن يزغردن.. أكيد في
هذه الهيصه جمالاً..

- الفرحة جميلة أياً كانت صورتها..

- أريدك أن تأخذني معك.. أنا في حاجة لأن أرى فرحة
الناس..

- سوف آخذك..

- في أول مرة ذهبت فيها مع أبي لم تتركني امرأة أو فتاة من
أهل الفرح إلا وقبلتني وأغلبهن إحتضني بقوة مجاملة لأبي
واستقر بي الوضع بأن وضعتني فتاة في حجرها وضمتني
بذراعيها وراحت تقبلي بين لحظة وأخرى.. كان ذلك في
المقعد الخلفي لعربة الأوسطى فرحات شعيره أشهر سائقي
القرية.. وكنت محشوراً بين النساء على حجر الفتاة التي تولت
أمري في ود وعطف ولأول مرة في حياتي أشعر بأن الحياة
جميلة خارج بيتنا وأن كل فتاة وامرأة خارج هذا البيت سوف

تمنحي سعادة لا تنتهي.. وانطلقت العربية إلى المدينة وأبي في المقعد الأمامي للعربة يضحك مع رجل بجانبه وكانت هناك عربتان غير عربتنا تحمل الرجال والنساء من أهل الفرح..

.. على حرف التربة رأيت جسد النساء.. شهور طويلة وأنا أستمتع بهوايتي.. لكن هذه المتعة كل يوم على حرف التربة لم تكن تساوي دقيقة واحدة من شعوري اللذيذ الممتع وأنا على حجر هذه الفتاة..

نزلنا أرض المدينة وتركني أبي في يد الفتاة وأوصاها ألا تتركني لحظة حتى لا أضيع في شوارع أشمون.. ودعوت لأبي من كل قلبي ولأول مرة أعرف معنى الدعاء لأنه تركني مع هذه الفتاة اليافعة.. في الشارع تمسكني بكف يدها في رقة بالغة وفي كل محل تدخله للشراء تضعني في حجرها وتقبلني.. لم أر المدينة ولكنني رأيت الفتاة وأحضانها وقبلاهما.. وشعرت أن كل مدن العالم في هذه الفتاة وأن كل معاني الجمال الذي كنت أبحث عنه وجدته فيها.. وشعرت بأن هذه المدينة لا شيء.. وأن كل امرأة لديها من الجمال والحنان مالا تملكه أي مدينة وأي مدينة في العالم ليست امرأة.. وأن المرأة أجمل تهزم أي مدينة وأن مدينة أشمون هذه لا تساوي شيئاً مقارنة بهذه الفتاة وجمالها.. هكذا شعرت في هذه الرحلة وكان شعوري دائماً بعد ذلك أنني لا بد أن أذهب إلى المدينة كل يوم لألتقي بإمرأة.. وفي عودتنا إلى القرية كانت نفس الأحضان والقبلات والحجر الدافئ وعرفت في هذا اللقاء لماذا يتزوج الرجل بالمرأة.. وزرقت دموعي ومسحتها بأصابعي فاندھشت الفتاة قائلة :

- لماذا تبكي يا روح قلبي..
- لأنني بعيد عن أمي..
- وهل تقبلك أمك مثلي وتحبك مثلي..
- لأ والله.. إن لحضن أمي طعم آخر..
- وحضني أنا..
- إسمك..
- سميرة..
- أين أمك..
- في العربة الأخرى..
- ما صلة القرابة بينكم وبين أبي..
- أبويا الحاج.. خال أمي..
- عندما نصل إلى البلدة أين ستذهبن..
- إلى بيتنا..
- أين هذا البيت..
- في الكفر..
- هل كل بنات الكفر مثلك..
- في ماذا..
- أنت حلوة..
- يا لهوتي.. يا روح قلبي.. إن الرجال الكبار لا يعرفون ولا
- يقدرّون أن يقولوا كلمة حلوه لامرأة.. وأنت..

- هل ستركيبي ولن أراك ثانية..
- إذا كنت تريدني وتعلقت بي إلى هذا الحد.. سوف نأتي أنا وأمي إلى بيتكم بأي حجة حتى ترائي.. ولكن أنت صغير على هذا الكلام..
- أرجوك..
- وسوف آتي بمفردي إليك..
- هل تذهبين إلى المدينة وحدك..
- أحياناً..
- خذيني معك..
- نخالي الحاج يوافق وأنا آخذك..
- ولماذا تذهبين إلى المدينة..
- لشراء لوازم الخياطة..
- هل لديك ماكينة خياطة..
- ماكينة أمي..
- تساعدوها..
- إننا نخطط كل ما يخص النساء في الكفر..
- والناحية البحرية..
- الكفر فيه نساء بحق وحقيق..
- وبحري..
- حرم تعبان..
- ومن يخطط للنساء في الناحية البحرية..
- خياط الرجال..
- إلى هذا الحد هن خناشير..
- تعال الكفر شوف جماله..

"متعة الحقل"

كنت تواقاً لمعرفة هذه الناحية الراقية من البلدة.. ولا أعرف كيف وأنا لم أبلغ السادسة من عمري.. كيف أدرك أن هذه الناحية راقية وناحيتنا خناشير من الناس.. كانت الرؤية الوحيدة التي من خلالها توجهت إلى هذا الإحساس هو معرفتي بالفتاة سميرة.. وكيف عاملتني واحتضنتني وقبلتني.. عرفت رقي هذه الناحية من تعامل سميرة معي.. شعرت بأن لي جسد وأنه يجب أن أحب وأحب.. وأدركت أن هناك قوة كامنة خلف هذا الكون وهذه الحياة التي نحيها.. قوة تحركنا إلى شئ آخر في ناس غيرنا.. هربت نفسياً من التربة ومن تحت الحميزة ومن كل نساء بحري الفلاحات المتعجرفات وأيقنت أن جمال المرأة ليس في التفرج عليها ولكن في حركتها في فعلها في أنوثتها التي ينبعث منها القبلات والأحضان والكلمات..

.. ولكن كيف لطفل أن يدرك هذه المعاني وهو طفل صغير..

.. كنت أشعر دائماً بأن عقلي صافياً وأنه ليس في بيتنا ما يثقل كاهل طفل مثلي.. غير مكلف بأي أعمال في البيت أو الحقل أقوم بها مثل بقية أطفال القرية.. اهتمام أمي بي في الطعام والشراب والملبس والنظافة.. واهتمام أبي كل يوم برعايتي حيث كان يأخذني كل ليلة وبعد أداء صلاة العشاء.. يأخذني أمامه فوق دابته (الحماره) ويلف بي البلدة بادئاً بشارع الكفر ماراً بشارع الدسوقي ثم شارع أبو عزيزة بعده شارع جبريل والكل ثم بعد ذلك بيوت عمار والدقوني وأبو عوف.. بعدها

درب العرب وأخيراً العودة إلى الدار بجانب بيوت القطان عند
ترعة القرية الكبيرة.. وعندما أصل إلى أمي بعد هذه الجولة
أكون قد رُحت في نوم عميق.. تأخذني من أمام أبي من فوق
ظهر الدابة إلى سريري في الغرفة الصغيرة التي تقع بجوار المندره
(غرفة الضيوف).. إذا كان الجو صيفاً تركني دون غطاء وإذا
كان شتاءً لفتني بلحاف صغير خصّص لي، وإذا كانت الليلة
شديدة البرد.. أشعلت النار في قصعة الحديد وتركتها في صالة
البيت الداخلية عند باب حظيرة البهائم وبعد أن يذهب دخان
النار وتصطلي القوالب وتصبح ناراً صافية.. تحمل القصعة إلى
جوار سريري حتى أدفء وأهناً بالنوم حتى الصباح..

- وكان أبي يذهب في أول الليل إلى زوجته القديمة (مرات
أبوياء.. أمي لبييه) ويمكث في غرفتها حتى منتصف الليل ثم يعود
لينام بعض الوقت فوق كتبه في المندره الكبيرة كلما كان
الوقت صيفاً، وإذا كان الوقت شتاءً كان يدخل قاعة الشتاء..
كان أبي يحب النساء أو كان حريصاً كل ليلة لأن يلتقي بمرات
أبوياء.. وفي المزيغ الأخير من الليل يأتي إلى أمي ليوقظها لتذهب
معه إلى القاعة أو إلى المندره.. وفي ليلة سمعت أبي وهو يوقظ
أمي التي تنام فوق كتبه مقابل سريري فقالت له :

- الساعة كام..

- الفجر قُرب..

- والنبي إنت راجل فايق.. روح عايزه أنام..

- عيب يا حميدة.. قومي شوفي جوزك..

- مشي قادرة.. روح للبيه..
- جتك الغم.. جته على الفاضي..
- أنا مش بعرف أضحك زيها ولا أتكجل زيها.
- حقّي.. آخر مره قومي..
- وصرخت أُمي في وجهه - حرام عليك الواد ها يصحى.. مش قادرة..
- يصفق الباب زاعقاً - روعي إنت البعيدة مش ست.. إنت هيمه..
- ويدخل أبي القاعة ليكمل نومه وهو كالثور هائجاً ويلعن أُمي بصوت عال.. وكانت هذه أول مرّة أسمع فيها أبي وأُمي.. بل وسمعت صباح اليوم أُمي لبيه تطرق باب القاعة فقال لها أبي :
- أدخلني..
- أنا لبيه..
- تعالي..
- تدخل في رقه - أنا سمعت دعاويك عليها..
- دي ست جاموسة مش بنى آدمه..
- عايز حاجة.. عايزني قبل ما استحمه..
- الله يرضى عليك تعالي..
- وكانت أُمي تشّخر ويدو أنها لم تسمع شيئاً..
- .. كان أبي يذهب في شقشقة كل صباح راكباً حمارته (الركوبة.. ببردة حمراء) إلى الحقل.. وكان يقرأ السلام على

كل من قابله في الطريق ولو كان طفلاً صغيراً.. وكان يقرأ القرآن بصوت مسموع حتى يصل إلى دار الغيط..

يوقظ المزارع ليصلي الصباح بعدها يتناول معه الفطور ثم يقوم العامل بإشعال النار لعمل الشاي له ولعمه الحاج.. بعد ذلك يملي على العامل ما يقوم به من أعمال حتى ينتهي النهار..

كانت دار الغيط وقتها زريبة للبهائم وغرفة في داخلها لحفظ التبن وأدوات وعدد الزراعة..

كان أبي يملك أكثر من عشرة أفدنة زراعية.. منها فدانان في ناحية شروة حسن والباقي في مريان.. وكان لي عم يدعى دردير له نفس كمية الأرض وابن عم ثالثهما يملك ستة عشرة فداناً ويدعى الحاج محمود وكان أشطر منهما في الزراعة وتربية البهائم.. كان أبي من امرأة تدعى ستيته وهي ابنة خاله محمد درويش.. ماتت وكان عمره حينها عامان.. وكان دردير من امرأة أخرى تدعى قطيفة وهي أخت محمد سالم وكانت امرأة شديدة لا تحب في الدنيا غير ابنها دردير وكان أبي يتجنب قسوتها.. وكان جدي حريصاً على صحة حداد ابنه يأخذه معه في كل مكان يذهب إليه ولا يتركه في البيت خوفاً عليه من أم دردير لأنه كان من جهلها وسواد قلبها أنه ليس بعيداً عليها أن تقتله أو تضع له السم.. وسوف أترك هذه النشأة وأعود إلى نفسي أنا كطفل لم يذهب إلى المدرسة بعد..

.. عرفت الحقل والطريق إليه وعرفت حدود أرضنا الزراعية
وعرفت كم عدد الجاموس والبقر والعجول وكافة الحيوانات
الأخرى التي تمتلكها..

والذي أتذكره وأنا صغير في هذه الفترة أن أبي محمود كان
رجلاً متكبراً.. إلا أنه كان كلما رأي :
يشخط - إزّيك..

.. وكنت أقول وهذا هو الحنان.. وعلمت أن أبي محمود بعيد
ذلك لا يحب غيري من أطفال أهله.. ولكن هؤلاء الناس في
هذا الزمن لا يحبون أن يظهروا عواطفهم، أو أنهم لم يكن
لديهم أساليب الحب والعطف لأنهم لم ينشأوا عليها.. وكانت
أكبر قوة يمتلكونها أنهم أصحاب أرض ولهم بيوت كبيرة..
وعندهم من العمال الزراعيين وزوجاتهم الكثير الذين يعملون
في حقولهم وبيوتهم..

.. وعندما كنت أذهب مع أبي للحقل أشعر بسعادة لا حد
لها.. أجرى على السكة حتى أصل إلى البحر.. البحر
الفرعوني.. ويطلقون عليه البحر الأعمى وهو فرع من الرياح
المنوفي وأعود إلى البيت ثم أجرى ثانية في داخل الحقل حتى
أصل إلى نهايات رؤوس زراعات البرسيم والقمح.. وكان أبي
يراقبني بسعادة ويقول من حين لأخرى :

- خلني بالك.. إوعه الكلاب.. إوعه الجاموسة تنطحك..
إبعد عن التربة..

- بص عالبحر إوعه تزل.. خد بالك عشان أجيبك الغيط..

.. وكان جميع من في الحقل من عمال زراعيين وعاملات
يظهرون سعادتهم بي وخوفهم على.. وفي يوم مكثت مع أبي
حتى آخر اليوم.. حيث يتم حلاية الجاموس والبقر الذي يندر
اللبن بواسطة زوجة أحد العاملين وتدعي بخيته والحلابه في
العادة تتم في الصباح بعد طلوع الشمس حتى الضحى وف
المساء بعد آذان المغرب.. ولم أكن من قبل رأيت حلاية
البهائم.. بخيته تضع حله كبيره فارغة فوق مكان عال بالزريبة
وتحمل الدست وتضع تحت رديها كرسي خشب صغير لتقع
فوقه وتضع الدست الفخار بين ركبتيها وتشمر جلبابها حتى
تلامس الدست وتبدأ في جذب ضرع الجاموسة بأصابعها حتى
تبخ اللبن في الدست ثم تنهمك في الحركة بسرعة وتتنقل
أصابعها في براحه بين ثدى الجاموسة الأربعة.. جاموسة بعدها
جاموسة.. بعدها بقرة.. وعندما يمتلأ الدست تحمله وتكبه في
الحله.. وكم كنت سعيداً بهذا العمل الذي تقوم به بخيته
وعرفت كيف تتم حلاية البهائم.. وتحمل بخيته الحلة فوق
رأسها وتذهب بها إلى بيتنا في القرية.. وهذه الدورة تتم كل
يوم صباح مساء.. وعندما لا تأتي بخيته في يوم يأتي بدلاً منها
فكيهه.. وكانت كل منهما زوجة لعامل زراعي يعمل في
حقننا.. وكالعادة فإن العامل الزراعي وزوجته وأولاده يكونون
في طاعة صاحب الأرض طالما يأخذون أجورهم وما يحتاجونه
من خضر وحبوب تلزم بيوتهم.. ومرة بعد أخرى تعودت على
رؤية حلاية البهائم في الصباح والمساء كلما استطعت..

.. وشعرت بأنني تائه في تأمل أعمال الحقل من دوران الساقية وري الأرض وحصاد القمح والبرسيم وجنى القطن وحلابة البهائم.. وكما كنت أستمع برؤية سيقان النساء على حرفة ترعة البلدة.. فإنني وجدت في زريبة المواشي سيقان بخيته وفكيهه عندما تنهمك كل منهما في حركة جذب الضرع فإن الجلباب ينفك عن ساقها ويبان لي كل شئ في جسدها السفلى وكانت غالبية النساء العاملات في الحقل لا يرتدين شيئاً تحت الجلباب هكذا رأيت وعرفت بعد ذلك حتى تكون الواحدة منهن خفيفة وهي تقوم بأعمالها.. وهي تحلب أو تبحي القطن أو تحش البرسيم أو تروى الأرض.. وكان ذلك يعجب أصحاب الأرض وأبنائهم.

.. كنت أقرب من دخول المدرسة.. وكيف أذهب إلى المدرسة وأحرم من حريتي هذه وهواياي في تأمل النساء في ترعه البلدة أو اللاتي يحلبن أو يقمن بأي أعمال في الحقل..

ورغم أن كل الناس حولي في البلدة أو في الحقل فإنني لم أكن أعني بأي شئ حولي غير ممارسة هوايتي اللذيذة وكنت أشعر بأن الكون حولي يسكن في داخلي في هدوء واطمئنان من مجرد أن أرى النساء هنا وهناك.. وكنت أتساءل لماذا تتعري النساء على حرف الترعة وفي كل مكان في الحقول.. أهى اللامبالاه.. أم أنهن عمليات في القيام بأعمالهن أو أنهن بلا خجل ولا حياء.. أهو فجور من تحت لتحت.. أهو إغراء بدون قصد.. استهبال.. إستعباط.. ميوعة قلة عرض.. لا أعرف.. ألا كان

من الممكن أن تقوم المرأة الكادحة بكل أعمالها خارج البيت دون أن تتعري.. أم أن العرى هو شيمة المرأة أو باباً منه تسرى نفسها في عيون الرجال.. أو في عيون الأطفال مثلي..

.. لم أكن مكلفاً بشئ من أعمال البيت أو الحقل كبقية أطفال القرية.. كانت الأرض الزراعية رحبه وحرف التربة ليس فيه غيري يراقب الأعمال فيه، وفي الحقل كنت أجرى هنا وهناك وأمعن في انسجام وهدوء سيقان الفلاحة التي تحلب اللبن.. وخطوات خطوات كثيرة في الحقل ومعرفة أحواله وكنت أسأل أي عامل زراعي كيف يزرع ويقلع ويحصد ويروي ويطعم الحيوانات ولم يعمل أحد منهم في الإجابة على وكانوا يخبرون أبي بأسئلي والردود عليها وكانوا سعداء بذلك..

وكذلك فعلت مع بخيته وفكيه.. وكما فعلت سميرة بنت الكفر في إحتضاني وتقبيلي.. كانت كل منهما في الصباح والمساء بعد الحلاية تفعل معي ذلك خلف ظهر أبي ولا تتركني الواحد منهما إلا وأشبعني قبلات وكنت أترك نفسي لهما وأشعر بأن الكون حولي ملكي.. الكون يهدأ ويسكن في داخلي عندما أقرب من فكيه وبخيته كما شعرت بذلك في المرة الأولى مع سميرة.. ولكن أين سميرة.. إنها لا تأتي ولا أعرف كيف أذهب إليها في الكفر.. كانت قبلات سميرة التي أغدقتها على وأنا في رحلي معها إلى المدينة معطرة رائحتها حلوة.. ولكن حلايات البهائم لها نفس الغبطة واللذة ولكن برائحة العرق وتلفها أنفاس البهائم.. بعد ذلك ضاقت على أرزاقى عندما دخلت المدرسة..

"بين المدرسة والكفر"

في ليلة المدرسة جلست أبكي وحدي في المنذرة.. أليست
الترعة ونسائها وبنات الكفر وزريبة البهائم وحلب اللبن مدرسة
وأحلى من المدرسة.. كانت أمي تربت على كتفي وتمسح
دموعي قائلة :

- المدرسة حلوة.. علشان تبقى زي عمي المستشار..

وأمي لبيه تقول وهي تقف عند باب المنذرة :

- المضره كل الناس بتروحها يا عبيط..

.. في الصباح ذهبت إلى المدرسة مع أبي.. وقف التلاميذ طابور
الصباح وكانوا جميعاً يرتدون الجلابيب النظيفة ويحملون
أكياساً من قماش في أيديهم أو حقائب جلدية.. مدرسة
صباحي القطان الابتدائية.. طابور من المدرسين الذين يرتدون
الجلابيب والعمم وقليل منهم يرتدي البدلة أو بنطلوناً
وقميصاً.. جميعهم من القرية.. وفي هذا الطابور ما هالني فيه
ضرب الطرنيطه وصوتها العال.. كنت حزيناً أقف في أحد
طوابير الصف الأول وأبي هناك مع بعض أولياء الأمور يرقيني..
وكنت أكره الصوت العال والزيطه والدوشة وكرهت أكثر
المتناف.. تحيا جمال عبد الناصر قلت معهم تحيا مصر ولم
أنطق.. تحيا جمال عبد الناصر.. من هو جمال هذا..

جلست في الصف الأول مع تلميذ من قبلي يُدعى محمود
جنبات وكان دائم النباش في مناخيره.. إستمعت إلى المدرسين
مثل بقية التلاميذ ولم أفهم شيئاً وكان معي في الفصل تلميذان

من أبو شاطيه وكنت أشعر بالحمى في رأسي من جنبات هذا ومن تلميذ أبو شاطيه حيث يتباهى كل منهما برقع.. في فسحة المدرسة.. ولم يكن في الفصل تلميذ نظيف غير حسن جمال فوزي من الكفر وسعيد عامر الدسوقي أيضاً من الكفر..

.. في الوقت الممتد والطويل من دخولي المدرسة وارتماء الشمس وقت الضحى وقبل الظهيرة فوق أسطح الفصول أخذنا فسحة بعد الحصة الثالثة وكان التلاميذ يدورون حول بعضهم في ألعاب مختلفة كأهم في الشارع يصرخون ويتشاقون فتقوم خناقات متفرقة بينهم.. ولم يكن هناك من المدرسين يمنعهم عن أفعالهم ولكن كان هناك بعض المدرسين يشاهدون ما يجري في الفناء أثناء الفسحة دون تدخل وكأن ذلك طبعياً أن يتشائموا ويتشاجروا و... .. أخذت جانباً وجلست في هدوء على أحد سلام الفصول أرقب ما يجري.. كنت جائعاً ولكن إنشغالي بما يدور حولي في المدرسة جعلني لا أميل إلى إخراج سندوتشي زبدة أو بيض من الحقيبة.. كان كل تركيزي. ما هذه الغوغاء والفوضى من أطفال صغار.. لماذا لا يتدخل المدرسون لتعليم هؤلاء الصغار الهدوء والسكون والأدب.. وجدت باب الفصل مفتوحاً فرحت مسرعاً نحو بابه ولما دخلت وجدت مجموعة من الأطفال جالسين في هدوء وأدب كل عند درجه.. حسن جمال وسعيد عامر وعلى مختار.. جلست مثلهم في مكاني.. وكان هناك فرصة لأفتح الحقيبة وأتناول جزءاً من طعام أمي..

وجدت حزام الشنطة مفتوحاً.. ولم أجد بها أي طعام.. إبتسم
سعيد عامر وقال :

- جنبات وعبدہ أبو شاطیہ..

- ہایقہ کدہ کل یوم..

- سعید - روح قول للمدرس..

- اکید جعانین..

- سعید.. خلّی الشنطة في إيدك..

ولدت بالصمت.. وكان عليّ أن أبلغ أبي وأمي بكل أحداث
المدرسة من تلاميذ غالبيتهم من عديمي الأدب وأن هناك فوضى
وسرقة وشتيمة لا يتحملها طفل متربي.. كُتب يوزعها
المدرسون وأقلام تُسرق وحقائب تفتح وكراسات تُمزق وهرج
وفوضى وسفالة وقلة أدب من تلاميذ الفصل لبعضهم البعض..
وأنا أندھش وأتمزق كيف أتحمل يوماً بكامله في هذا المكان
الوضيع.. ثم كانت هناك فسحة طويلة مدتها خمسة وأربعين
دقيقة يذهب فيها التلاميذ إلى بيوتهم ثم يعودون لاستكمال
اليوم الدراسي.. وعند الباب وجدت السيدة التي تعمل في بيتنا
وتدعى أم إبراهيم شرفه تنتظري وأخذتني من يدي إلى البيت
وحملت عني حقيبتی وراحت الدموع تزل من عيني بغزاره..
فبكت السيدة لما رأت دموعي وراحت تقول لي حتى وصلنا
إلى البيت..

- مالک.. مین ضربک.. مین شتمک..

وظللتُ أبكي ولم أرد عليها ودخلت البيت ثائراً وتشتت
الحقيرة منها ودخلت غرفة أمي لبيبه ورميت بالحقيرة بشدة فوق
أرضيه الغرفة.. إنزعجت زوجة أبي قائلة:

- ليه كده.. هو إنت ها تعصي على المضرسه..

- روعي إنت المضرسه..

- ياريت أبويا ماعلمنيش..

- أبوك ليه حق..

.. راحت تلملم ما تبعثر من الحقيرة وأعادتها كما كانت
وحملتها فوق صدرها ودخلت الى أمي التي كانت تخبز أمام
الفرن وأنا خلفها محاولاً استحضار دموعي وقالت وهي تناولها
الحقيرة :

- رماها على الأرض وعَمال يعيط..

أخذتني أمي بين أحضانها وراحت تربت فوق ظهري وحكيت
لها ما حدث في المدرسة..

- ياريت فيه مدارس تانيه أنضف من كده.. مافيش غير

مدرسة صبحي ومدرسة العرب في غرب البلد..

فقالت أمي لبيبه :

- ياريت مدرسة العرب أزفت وأضل.. دا غرب البلد ما

فيه اش ولد نضيف..

وضعت أمي لبيبه طبلية صغيرة خلف أمي ووضعت عليها فطيره
وطبق غسل بالزبدة.. قفزت من حجر أمي لأترع حول الطبلية
ورحت أكل في شراهة حتى شبع، وكانت أمي تدعو لي

بالهدايه وأن أحب المدرسة.. بعدها غسلت يدي من حنفيه
الصالة وجاءتني أمي لبييه بالحقية قائلة :

- طول بالك مش من أول يوم تتضايق..

.. ونظرت إليها في غضب وحملت الحقية في يدي وخرجت
من البيت وكأني أحمل نكداً..

.. دخلت المدرسة وكأني أدخل سجنًا.. كان التلاميذ يلعبون
في الحوش.. من يتشاجر.. من يشتم الآخر.. من يبصق.. من
يرقع.. هي الفوضى والألفاظ النابية التي أكرهها والتي بنسبها
أكره شارع أبو سمك.. دخلت الفصل فهجم على تلميذان
وخطفا الحقية وفتحها في عنف وكاد يمزقان ما بها من
كتب.. وكما أخذها مني في عنف القيا بها في عنف أشد
وغضب لأنهما لم يجدا فيها طعاماً.. وكدت أبكي وأنكفأ
فوقها سعيد عامر وأحضرها لي قائلاً :

- معلش..

- عيال قليلة الأدب.

- من عندكم.. من بحري..

- من ولاد مين عشان أقول لأبويا..

- عبده أبو شاطيه وعلى جعل..

.. دق الجرس فدخل كل التلاميذ الفصل فأسرعت وجلست
على تختي.. بعدها دخل المدرس يمسك بخيرزانه فوقف التلاميذ
تحية له لكنني قمت مثاقلاً.. تقدّم نحوي المدرس غاضباً وهو
يزعق :

- مش عايز تقوم ليه يا بجم..
وقفت خوفاً منه ونظرت اليه في غضب وتمنيت لو قدفته بشئ
في وجهه.. ولما رأي أنظر اليه في غضب قال وهو يرفع
الخيزرانه ويلسعني واحده فوق ظهري:

- أعرفك تقوم إزاي..
جلست وبكيت بحرقه ووضعت وجهي بين كفي وتشنجت..
وسمعت سعيد عامر يقول للمدرس :
-العيال خدو منه الشنطة ورموها.. والصبح أكلوا منه
السندوتشات..

-مين هُمة يا سعيد..
-عبده أبو شاطيه وعلى جعل وجنات..
أوقف المدرس التلاميذ وضرب كل منهم مرتين بالخيزرانه فبكوا
ألماً.

.. أفقت من بكائي ورحت أنظر حولي بعدها شخصت عيناى
في وجه المدرس وفي استمزاز قلت في نفسي :
-مش هاسيك.. لازم أضربك..

قلتها في همس مرتان سمعها التلميذ الذي يجلس بجانبى فقهقه
وقال ينصحنى :

-هدى.. لما ترّوح قول لأبوك..

-برضه مش هاسيه..

-قول لأبوك..

-يلعن أبويا وأبو المدرسة..

- هانروح فين.. لازم المدرسة..

- أنا عايز أطفش منها..

- ياريت وأنا راخر..

- إسمك إيه..

- محمد أبو سليمان..

- من بحري..

- من الكفر..

- ليه كل ولاد الكفر كويسين..

- مش عارف..

كان المدرس أبو جلاييه وخيرزانه قد جلس جول دُرجه يأكل في شراة سندوتشات الفول والطعمية التي إشتراها من مطعم حسن تَنك.. فهاج الفصل وراح كل تلميذ يكَلِّم الآخر وانقلب الفصل إلى سويقه صغيره.. وكان وقتها يعتبر من الحضارة لدى أي شخص في القرية كان تلميذاً أو مدرساً إذا إشتري فول وطعمية من عند حسن تَنك ييقه ده تَقْدَم في الحياة.. وكان الناس يعتبرونه متمرداً على العيش والجنة الطعام التقليدي في البلده.. وكان في القرية مطعمان.. في الناحية الغربية مطعم زكي الطوجني وفي بحري حسن تَنك.. أما الكفر سمعت بعد ذلك أن فيه الكثير من بائعي الفول والطعمية.. عدت إلى البيت في هذا اليوم وحكيت لأبي ما حدث طيلة النهار.. فسكت الرجل ولما طال صمته قلت له :

- هي دي المدرسة..

- أيوه.. زمان كان كُتاب..
- العيال مش مترييه..
- أهاليهم السبب..
- والمدرس حمار..
- وهانعمل إيه..
- إنت مش هاتروح المدرسة..
- ليه..
- تقول للمدرس بتضرب إبني ليه..
- لو ضربك تاني هاروح.. تبقه قوم بسرعة..
- يابه دي حركات خاويه.. من المدرس..
- دا مدرسك..
- إذا كان كل المدرسين زي كده.. ييقه عليه العوض..
- إنت صغير لا رحت ولا جيت ومش عاجبك حاجه..
- إبدأ يابه.. ودّيني مدرسة نضيفه فيها عيال مؤدبه زي ولاد الكفر..
- وهانجيب دي منين..
- مافيش مدرسة في الكفر..
- لأ..
- طيب وهمّ دول مدرسين..

- معلهش يابني إستحمل..

وكانت أمي وأمي لبيه يضحكان في صوت واحد على الحوار مع أبي.. وكان أبي يتسم.. ورحنا نتناول طعام العشاء حول طبلية كبيرة.. سعاد البنت تكبرني بخمس سنوات وكانت في مدرسة الحاج دردير للبنات وصلت في الدراسة لسنة رابعة وقعدت.. وعبد العزيز يصغرني بعامين وهو لم يذهب إلى المدرسة بعد.. ومحمد الصغير عمره عامان تجلسه أمه في حجرها وتطعمه معنا..

ذهب أبي بعد العشاء إلى دكان عبده أبو سعده ليجلس مع أصحابه يشربون الشاي والجوزة.. كان ذلك عادة كل ليلة مع أصحابه حداد الكيلاني وأبو عياد وعبد العزيز الصاوي وغيرهم.. وفي هذه الونسه كل ليلة يتحدثون عن الزرع والقلع وتمن القطن والبطاطس وسعر البرسيم واللبن.. ساعة ساعتين ويعود كل منهم إله بيته.. وكنت أشعر بأنني أكثر حرية في الكلام مع أمي وأمي لبيه بعيداً عن أبي.. وفي هذه الليلة الأولى بعد أول نهار كالكابوس في مدرسة الأغنام كانت أمي لبيه حريصه أن تسري عني وأنه يجب على أن أتقبل واقع البلد وحياة الناس والتعود على شقاوة التلاميذ وحمورية المدرسين فقالت :

- مشكلتك يا حسن إنك بتعيش حياة غير العيال دي..

- إزاي العيال دي مش ليها أهل وبيوت زئي..

- الناس دي كلهم غلابه.. العيال دي ولاد ناس على أدھم..
المدرسة بالنسبة ليهم جنه..

- وبالنسبة لي جحيم..

- إنشف يا حسن إنت رهيف أوي.. روح شوف العيال بتوع
شروة حسن..

غير أن أمي إنحملت وكان أمي لبيه تقترب بإبنها من ميه
البركه:

- لأ يا لبيه بعيد الشر من شروة حسن..

- ما اقصدش يا حميدة إحنا عايزين نقويه..

.. زهقت منهما ودخلتُ غرفتي الصغيرة لأنام.. نمت وأنا أحلم
أحلاماً ثقيلة وكأني في كابوس..

كانت أختي سعاد تنام مع أمي لبيه في سريرها وفي نفس الغرفة
ينام عبد العزيز على كنبه ومحمد على كنبه، ولما تعود الثلاثة على
ذلك كان أبي يأخذ أمي لبيه إلى القاعة ليلتقي بها ثم تعود لتنام مع
الأطفال الثلاثة..

.. في هذه الليلة إستيقظت على صوت آذان الفجر بصوت
دردير حجاج.. قامت أمي تصلي ولكن لم تكن تعرف أنني
مستيقظ وعندما توضأت وعادت للغرفة لتصلي نامت مرة أخرى
على الكنبه ولم أدعها تدخل في نومها وقلت :

- عايز أشرب..

- حاضر..

وجاءتني بشفشق الماء وشربت وحاولت أن أنام بعدها لكني
رحت أفكر.. كيف سأذهب إلى المدرسة ثانية.. لم تمضي دقائق
ودخل أبي على طراطيف أصابعه واقترب منها وقال..

هامساً وهو يضع يده على كتفها :

- حميدة.. حميدة قومي..

- عايز ايه..

- تعالى القاعة..

- حرام عليك الواد صاحي..

وعملت بأنني أشخّر وأغطس في نوم عميق واستمر شخيري حتى يأخذها.. فقال أبي :

- قومي الواد رايح في سابع نومه..

- دالسه شارب ميه.. خلّيني بكره..

- قومي يا بنت الكلب..

- أنا بنت كلب روح منك لله..روح لها هّي على التّنده..

- آخر مرّه بقولك تعالى..

- هاقوم مش عشانك علشان الواد مايصحاش.. إنت فايق مافيش غير السخام ده..

سبقها إلى القاعة وهي الغرفة المواجهة لغرفتي.. راحت إليه وهي ضجره وحتى تقصر شره..

ويبدو أن أمي لبيبه بعد صلاة الفجر لم تنم أو أنها كانت تسمعها في الصالة عند باب المنتصف.. شعرت بأقدام حافية تكحت في الأرض وبأنفاس تتهدّج.. إستقرت الأقدام وسكنت الأنفاس ولكن كان هناك صوت ينبعث من داخل الغرفة التي بها أبي وأمي..

نزلت من سريري في هدوء خطوات حافياً نحو الباب فتحتة في هدوء.. رأيت أمي لبيته تضع رأسها على باب القاعة.. ظَلَلْتُ أتابع أمي لبيته وهي تكاد تدخل رأسها في الباب محترقة الخشب.. كنت مندهشاً بل مذهولاً.. هكذا تتصنت زوجة أبي على أبي وأمي.. تُرى عن ماذا تتصنت.. لم أدري بنفسي وأنا أبكي في صمت.. دقائق وتشنجت.. سمعت أمي لبيته صوت بكائي.. إنزعجت السيدة وانفلجت وهرولت إلى غرفتها عندما وجدتي خلفها..

عُدْتُ إلى فراشي وتركت باب الغرفة مفتوحاً.. تَغَطَّيْتُ بلحافي ونمت على جنبي لأرى باب القاعة الذي مازال مقفلاً وصوت ينبعثُ منه يعلو أحيانا ثم ينخفض.. خَفْتُ على أمي من أبي.. هل يضرها.. هل يعاتبها.. هل يشتمها.. لكن الأصوات مسالمة ساكنة ليس فيها منازعة.. تأكدت أن أبي لا يضرب أمي.. تُرى ماذا يفعلان.. ثم رحت في نوم عميق وأنا مازلت مندهشاً.. ماذا يجري.. وما الذي كانت تفعله أمي لبيته.. ظل ذلك معي حتى الصباح.. قمت من نومي فوجدت أمي تقعد عند الكانون وتسخن المياه ليستحم أبي.. دخلت الحمام ثم عدت إلى غرفتي لأنام على الكنبه مستيقظاً.. جاءتني أمي بعدها بصينيه صغيره بها إفطاري.. بيض مسلوq وزبده وكوب لبن..

إنتهيتُ من إفطاري ثم جلست على أرضيه الغرفه لأرى أمي وهي تدخل أدوات الإستحمام إلى القاعة.. تدرج الطشت الكبير.. ثم كرسي خشبي (كرسي الطشت) ثم حلة كبيرة بها الماء البارد وأخرى أصغر منها بالماء الساخن بعدها طبق نحاسي فيه صابونه وليفه وكوز وحجر..

والغريب أن أمِّي قفلت باب الغرفة ثانية عليهما يبدو أنهما تساعداه في الاستحمام أم أنهما سيعثان ذلك الصوت ثانية.. تمنيتُ أن أسمع الصوت طيلة هذا النهار وأن لا أذهب إلى المدرسة البغيضة.. وقبل أن يدق جرس المدرسة بعشر دقائق كان أبي يأخذني لليوم الثاني من يدي حتى باب المدرسة.. كان أبي يمسك كفي الصغير في يده.. كنت أريد أن أنزع يدي منه.. إنني لا أستمتع بالحياة كما هو.. إن له زوجتان.. واحدة في أول الليل والثانية بعد الفجر.. الأولى تنهياً له وتريده لها فقط والثانية يأخذها عنه بعد أن يشتمها ويلعنها.. هكذا أيقنتُ تماماً دون أن أسأل أحداً.. وأيقنتُ أيضاً أنني طفل صغير غلبان لا أملك شيئاً كما يملك أبي.. وأنه على أن أصبر على بلائي في تلك المدرسة..

* * *

يعني إيه الكفر؟. هكذا في فسحة أحد أيام المدرسه سألت حسن جمال فوزي فقال :

- لا أعرف..

- وسألت على مختار..

- هي حته مقطوعه من البلد إما في الجنوب أوالشمال في أي قرية..

- برضه يعني إيه..

- ما اعرفش أكثر من كده..

.. ذهبت إلى سعيد عامر الدسوقي :

- يعني إيه كَفَرٍ.

- أحسن حاجة تيجي معايا النهارده تشوفه..

كنت قد عقدت العزم على رؤية هذه الناحية ربما أجد فيها شيئاً أملكه ويمتعي ويجلب لي الهناء مثل أبي.. مشيتُ مع سعيد على حرف الترعه نحو جنوب البلده.. أول الكفر ترعة السويقة الممتدة شرقاً مخترقة الأراضي الزراعية حتى سوق الجزارين والبهائم والقماش.. وكان سوق البلده يوم الخميس ولو كان اليوم الذي أذهب فيه إلى الكفر هو يوم خميس لما إستطعت أن أمشي في السوق إلا بصعوبة بالغة.. كانت أراضي السوق مهجورة لكن بعده بدأت البيوت على الجانبين تنورّ وكأنها تضحك.. وبدأ سعيد قائلاً :

- هذا أول شارع في الكفر.. شارع نور الدين فيه كانت تسكن بيه نور الدين كانت جميلة وكان لها بنت جميلة أيضاً، وفي نفس هذا الشارع يوجد التومرجي إبراهيم غانم وهو الذي يحقن مرضى القرية كلهم بالحقن والإسعافات الأولية.. هو أصلاً من قرية براجيل مركز الشهداء..

- وبيت من هذا..

- بيت عبد الشهيد الأبيض مدير سترال البلد..

- وهذا البيت..

- محمد النسناس المدرس الشاطر يلبس طربوشاً أحمرًا ويده منشئة الذباب.

- وهذا..

- بيت مختار رسلان أشهر بقال في القرية..
- وهذا..
- بيت عبد المحسن الخطيب المدرس..
- وهذا..
- بيت حسن رسلان المدرس بمدرسة صبحي والذي يخاف منه التلاميذ لأنه يضرب بالشلوت..
- وهذا..
- بيت محمد عبد العظيم تاجر بقاله.. شقى.. بيتاجر في الحشيش متحوز من بحري..
- وهذا..
- بيت عبده سالم ابن نائب العمده..
- وهذا بيت..
- عبد الرحيم صالح المدرس.. لهم أرض عندكم بحري في سكة رحيله..
- كنت أريد أن أمشي على حرف الترعه..
- هذه بيوت الكفر أصبحت الآن على الجنين.. الترعه للآخر تودّي للغيطان..
- طيب أنا مخنوق عايزين نروح الترعه..
- مش تشوف بيوت عبد البر..

- مشى معني...

- أحسن وأنظف بيوت في البلدة...

- خليها في يوم ثاني..

- أنا عايز أروح.. عايز حاجة تلتية...

- وأنا راخر.. هو فين بيت الخياط للظيمة البدري..

- في الناحية الثانية..

- وديني..

- تعال ورايا بسرعة..

جرى سعيد وخلفه جريت حتى كان بيت الست لظيمة.. وقف كلاهما بالباب هنيهة بعدها جرى سعيد مره أخرى ولكن إلى بيته.. كان الوقت متأخراً وكان على حسن أن يجري منقلباً إلى بيته في بحري.. وهناك أمام البيت وجد كثيراً من الرجال والنساء يبحثون عن حسن ربما يكون قد سقط في الترعه..

” في بيت لظيمة ”

عندما رأيت بيت سميرة بنت لظيمة البدري خياطة الكفر إنشق قلبي ودق شوقاً لرؤية سميرة أول علاقة لي بالمرأة.. وربما يضحك الكثيرون عندما أقول أحببت سميرة رغم صغر سني.. علاقة حب وشوق من طفل في الخامسة والنصف يوم مشوار المدينة مع فتاة لاتتعدى الثمانية عشره ربيعاً..

نويت في يوم الجمعة أن أذهب إلى بيت الخياطة حيث تكون سميرة.. ولأول مره أولف حكاية لأمي..

في صباح الجمعة عندما ذهب أبي إلى الحقل ذهبت إلى أمي وهي تخضُّ القربة واحتضنتها ورحت أقبل يديها.. فأخذتني في حضنها بيد وراحت تخضُّ القربة باليد الأخرى ثم أزاحتني قليلاً عنها في رفق حتى تخرج بيديها زبدة القربة وتضعها في الدست، ولما إنتهت قالت وهي تغسل يديها في حنفية الصالة :

- ليه إنت في رجلي النهارده.. رايح جاي معايا ليه.. قوللي يا حبيبي..

- أنا عايز أعمل كيس قماش..

- مش فاهمه..

- كل العيال بيروحوا المدرسة بكيس..

- طيب دول ولاد فلاحين على أدهم.. إحنا عندنا سُنت جلد..

- أنا عايز أبقه زي العيال..

- خلاص إنت حر اللّٰي يعجبك..
- أروح أعمله النهارده..
- عارف الخياط..
- عارف الخياطه..
- مين..
- الست لظيمه..
- دي بعيده في الكفر..
- عرفت بيتها..
- يالهوي رُحت الكفر..
- ماتخافيش علّٰى.. أنا رُحت مع سعيد..
- سعيد مين..
- سعيد عامر الدسوقي..
- دول من الكفر..
- هاروح دلوقتي..
- ماقدرشي أسبلك تروح لوحدك..
- يامّه والله عارف السكه..
- الترعه..
- هامشي بعيد عن حرف الترعه..

- لأ.. تروح معاك أم ابراهيم..

- خلاص تروح معايا..

- والقماش..

- نشتره دلوقتي..

- لأ.. عندي قماش كتير..

.. ودخلت أمي غرفتي حيث دولابها ولفت قطعة قماش جديدة
وكأنها تكوّر رقاقاً، ونادت أم إبراهيم قائلة :

- يا أم إبراهيم عارفه بيت لظيمه الخياطه..

- في الكفر..

- نخدي حسن والقماشه دي.. وآدي حتة زبده وحاجات
تانيه..

- وبعدين..

- إديها القماش وقوليلها النبي حارسه عايز كيس مدرسة..

- وبعدين..

- أقعدي معاه لما تخلّص.. وسلميلي عليها أوي واديها
الحاجة..

- وايه تاني ياستي..

- إديّها الحاجة قوليلها دوقي زبدة أم حسن..

- حاضر ياستي..

- حسّك عينك تسييه من إيدك.. عينك عليه والترعه..

- وإذا جرى مّني..

- إجري وراه..

- وإذا طبش في الترعه..

- أطبشي وراه.. مالك يا وليه إنت عبيطه ولا إيه..

.. إنتويت تدويخ ام ابراهيم.. جريت منها وراحت تجري خلفي وأنا أضحك وتهرول خلفي وهي تبكي.. واقترب من حرف الترعه كأنني ساندلش في مياهاها وتضرب بيدها على صدرها وتصرخ.. ومن الناس من كان يجري خلفي ليمسك بي ومن الناس ايضاً من كان يضحك عليها ويقولون لها.. ماتخافيش دا بيحارنك..

.. وصلنا إلى الكوبرى المؤدى الى المستشفى.. تركناه خلفنا ودخلنا يمينا ومّررنا على صف بيوت قديمة أنيقة وأخرى جديدة شيدت بالطوب الأحمر.. أمسكت بيدها.. أشفقت عليها.. كانت تبكي.. أنا فعلاً بهدلتها.. كفاية عليها كده.. وقلت لها ونحن نقرب من بيت الست لظيمه :

- أد كده بتخافي على..

- إنت أمانة وغالي لما تضيع مّني أو يجري لك حاجة أروح أنا فين..

- ماتدخليش معايا جّوه..

- طيبّ أدّي الحاجة للست وأرجع أقعد على الباب..

- إوعى تقعدي معايا جوّه..

- خلاص يانن عيني.. كلامك أسمعاه على راسي..

.. طرقت أم إبراهيم الباب الخارجي للبيت ونادت قائلة بصوت عال :

- ياست لظيمه.. ياست لظيمه..

.. ودخلت حتى باب البيت الداخلي وأنا أتبعها وطرقت الباب الداخلي ونادت بصوت هادئ :

- ياست الكل.. ياست الكفر كله..

خرجت الينا سيدة في أواخر العقد الخامس من عمرها.. ترتدي جلباباً أنيقاً مزركشاً باللون الكحلي الفاتح تقعص شعرها في ضفيرة خلف رقبتها وفي يدها منشئه للذباب.. وقالت وهي تفتح الباب بعد أن رأت وجهينا :

- يانهار أبيض.. زارنا النبي.. حسن ابن خالي الحاج..

- أيوه ياستي.. صباح الخير..

- خشي يأم إبراهيم.. خش يا حبيبي..

.. وانحنت فوقني ثم إئنث ركبتيها وراحت تقبلني وتحضني بقوه.. وظلت أم إبراهيم واقفه.. وأخذتني السيده وأجلستني على كنبه بالصاله وقالت للخادمه :

- إزّي الست حميده وليبيه وخالي الحاج..

- كُلُّهُمْ بيسلموا عليك أوي.. ودي حاجة من الست حميده
وبتبوسك..

- ودي قماشه إعمليلها لحسن كيس مدرسه..
وراحت السيده لظيمه تضحك بصوت عال بعد أن أخذت منها
اللفه.. ثم أمسكت بلفة القماش وتابعت قائلة :
- ياه.. دي قماشه غاليه خساره.. أنا عندي قماش تاني أرخص
وحلو أوي..

خدي دي إديها لستك تاني.. أقعدي يا أم إبراهيم..

- ما قدرشي..

- أقعدي..

- سيدي حسن قال لي أقعدي عا الباب..

- خلاص دا يريّحك..

- أيوه يا ستي.. أنا طالعه.. راحتي برّه..

وابتسم حسن ثقه في نفسه واغبتاباً بولاء الخادمه.. وراح يجوب
بناظريه نحو الأبواب المقفله بالصاله ودخلت السيده إحدى الغرف
وأنت له بطبق به كيكة وبرتقاله وصباغ موز ووضعتة بجانبه على
الكنبه قائلة :

- حاضر يا حبيبي ها عملك كل حاجة..

وحدّق حسن فيها وقال في توجّس :

- خاله.. فين سميره..

- نايمة..

- عايز أشوفها..

- يا روح قلبي حاضر.. كُلّ الأول وادخل صَحَّيها هاتفرح
أوي بيك..

وكدت أُنط من شدة الفرح لإمتنان السيده بي وثقتها في..
أدخل صَحَّيها هاتفرح أوي بيك.. وراحت العبارة تطنُ في أذني
وأنا في منتهى السعادة.. سأدخل عليها غرفتها وأراها نائمة..
سأوقظها في رقه.. سأناديها في همس.. يا سميره.. يا سميره.. دقائق
وانتهيت من قضم قطعة الكيكَة واصبع الموز.. بعدها قلت للسيدة
التي تجلس إلى ماكيتها وتقوم بحياكة الكيس بعناية وحب :

- دائما ياخاله.. كيكتك حلوه أوي..

- ياروح قلبي.. كُلّك ذوق..

وأشارت إلى أحد الأبواب قائلة :

- خش بقه صَحَّيها.. لك تقدر عليها.. دي نومها ثقيل أوي..

وتصنَّعتُ الهدوء وأنا أمشي نحو الباب ونقرتُ نقرتين.. ثم لويت
الأوكره.. ودخلت حافياً.. وأجلت بناظري إلى سريرها.. تاه
نظري بين رقه فراشها ونظافته وبين جسدها الممشوق فوق ثوب
السريّر..

.. كانت شبه عاريه ساقها حتى جزء من ردفها ولباس قصير
يخضن جسدها بين الساق والسُرّه.. أي ساقين وأي جسد وأي
وجه نائم كأنه خيمه من نور.. إلى أي جزء من جسدها ينتهي

نظري.. كان لباس صدرها يمتلأ بنهدين عجيبين.. دارت رأسي في
ثنايا شعرها المنكوش وتاه عقلي وارتبكت ورحت أحضن صدري
بكلتا يدي وكأنني جالس مؤدب في المدرسة.. إنني أمام مدرسة
حقيقية.. تموت كل مدارس البلده وتذهب أمام لوحة جمال لفتاة
واحدة فائقة الجمال في ذلك الكفر البديع.. أيُّ مدارس وأي
مدرسين وأي عيال جرابيع في تلك المدارس.. أنت يا سميره مدرستي
حين جلست في حجرى ونحن مسافران إلى المدينة ومدرستي حين
عدت معك.. أنت يا سميرة تخليتي عني ولم تأت إلى بيتنا كما
وعدتني.. أنا الذي أتيت.. أنا الذي أريدك.. أنا الذي أحبك..
معك حق كيف تحبين طفلاً صغيراً.. لقد جاملتيني فقط وهاودتيني
ولك كل الحق.. ليس مهما أن تهتمي بي وأن تأتين وأن تحبيني..
لا بد لك من فارس شاب من عمرى.. لا بد لك من عازف ماهر
يتقن العزف على جيتارك.. لا يوجد في بحري البلد فارس واحد..
إنهم جميعاً أجلاف.. وفي الكفر لا أعرف إن كان هناك فارس.. لا
أعرف.. ولكن أكيد طالما أن هناك فتيات جميلات مثلك.. أكيد أن
أمهات هذا الكفر الجميل قد أنجن فارساً يكون لك..

.. حاولت تجميع قواي ولم أستطع إهزئت أمامها ورحت أنظر
إليها.. إلى جسدها قطعة بعد أخرى حتى تجمد الجمال في عروقي
واستطعت أن أنطق :

- سميره.. سميره.. أنا حسن.. أنا حسن..

إبتسمت كأنها تحلم وتحركت رأسها كأنها تسمع من يناديها..

- سميره.. أنا حسن.. أنا حسن ابن خالك الحاج..

غَطَّت ساقِها وأخذت نفساً عميقاً وانعدلت بجسدها قليلاً كأنها تنام بين جنبها وظهرها.. إبتسم حسن وتشجّع وقال :

- سميره أنا حسن.. سميره أنا جيت.. سميره إنت حلوه أوي..

تأكدت أن ذلك صوت طفل صغير.. وتأكدت قبل أن تفتح عينيه أن هذا طفلاً مدلاً.. لأن ليس في البلده كلها أطفال بهذه الرقه.. وإن كان في الكفر أطفال فلا يوجد طفل تعودت عليه أو يتجرأ علىّ ويدخل غرفتي.. ولما ناداها ثالته..

- سميره أنا حسن.. حسن.. فاكرك لما رحت معاك أشمون..

ومّدت يدها نحوه وفتحت عيناها في رقه وتثاءبت : إنه حلم لذيد.. ياه.. وملأت عيناها بكامل وجهه وأمسكت كف يده وزعقت في صوت حالم وهي تنقلب بجسدها نحوه :

- روح قلبي تعال.. روح قلبي تعال يا حسن..

أخذته في أحضانها كأنه رجل.. أخذت الطفل في أحضانها وانكفأت بوجهها فوق وجهه وراحت تقبله كأنها تقبل رجلاً.. إستسلم لها الطفل.. لكنها إبتعدت عنه قليلاً وراحت تبكي.. لم يكن الطفل يستطيع أن يفعل لها أكثر من ذلك.. إنها تقبله وهو يستسلم ولا يعرف كيف يقبل.. إنها في حاجة إلى من يكشف عنها أوراقها.. إنها كانت تحلم حلماً جميلاً عنيفاً برجل يدخل إلى عالمها.. لم تستيقظ لتجد رجلاً يحقق لها ما كانت تحلم.. إستيقظت فوجدت طفلاً وليس عليها إلا أن تقبل البراءة في عنف.. كانت تحتضنه ماستطاعت كمن تريد أن تدخله في كل جسدها وراحت تنادي في همس بالغ ما استطاعت أن تطفئ نار شوقها :

- روح قلبي حسن.. روح حناني كله.. أدخل جّوايا.. مافيش
غيرك أحضنه.. مافيش غيرك أبوسه.. مافيش غيرك حببي..

راحت تقلّب في الطفل يمنة ويسره قرابة الساعة حتى إنطفأ لهيب
جسدها.. كيف؟

جلستُ على حافة السرير وسال الدمع من عيوني.. وكلمتا
إنهمرت الدموع وسالت بغزاره شعرت أنّ كمداً في داخلي لا يريد
أن ينتهي.. ألم نفسي يعتصرني.. وكان عليّ ألا أظهر لها بأيّ آلام..
هي كانت في عالم آخر كمن وجدت عصفوراً وأخذت تداعبه
حولها.. كنت أريد أن أظهر أنني سعيد وأنها في قلبي حتى الآن حي
الأول أو علاقتي الأولى بالمرأة.. وكم تمنيتُ الآن لو بقيت عليّ
علاقتي الروحية الأولى بها.. كنت أشعر بها إنها امرأة عالية جداً
جميلة ورقيقة وفاتنة.. أما الآن فماذا أُسمّي هذا العنف والعض واللث
والعجن الذي فعلته معي.. إنها الجسد بلا صاحب.. كم من
الفتيات مثلها في هذا الكفر.. الكفر الذي تشوّقتُ إليه هل مازلت
أتشوّق إليه.. يجب عليّ أن أقوم الآن وأخرج إلى الصلاة للست
لظيمه لآخذ كيسي وأذهب.. إننا نقرب من آذان العصر وأم
إبراهيم المسكينة أما زالت قاعده عند باب البيت..

ارتدت فستاناً فضفاضاً مع ملابس أخرى تحته.. خلعت وارتدت
أمامي كأنها تتلذذ عذابي.. كنت أريد أن أغوص في داخل عينيها
الكحيلة الفاجرة وحاولت أن تخفّف من ضعف مقاومتي لها أثناء
تجمها عليّ فحاولت أن تجعل من إبتسامتها صفاء يسعدني

فتذكرت في لحظة رحلة الذهاب والعودة من وإلى المدينة.. ليتها
ظلت بهذا الصفاء وظلّ في داخلي شوق إلى حب واحد روحي..
إنني مازلت طفلاً لا أقدر ولا أعرف ولا أستطيع مزاوله ذلك الحب
الرغبة مع أي امرأة.. ليتني ما دخلت عليها.. ليتني ما تأملتتها.. ليتني
ما طاوعتها وانطويت لها.. ولكن ما باليد حيله وما حيلة طفل في
السادسة مع فتاة يافعه يانعه في التاسعة عشرة ربيعاً، وكل علاقتي بها
وبأمها أنها من الأسر التي تنادي أبي خالي الحاج.. ماذا فعل هذا
الخال بنساء القرية.. وهل الست لطيمه هي المرأة الوحيدة في الكفر
التي تنادي أبي بالخال.. ما سر هذا الخال.. وما سر ابن هذا الخال..
ما سر حسن دون أبناء القرية.. الترة وحرف الترة ونساء
عاريات بلا خجل.. سميرة الحب إلى المدينة.. والآن سميرة كانت
حباً أتمناه.. لكنني الآن لا أقدر عليه.. إنني طفل أتأمل وأتذوق
وأتمنى.. إنني لست قادراً الآن علي عمل شيء لسميرة مما تريده أليس
في البلده رجال.. أين رجال الكفر.. يبدو أن الدنيا من حولي تفتقر
إلى الرجال وفي داخل البيوت المقفولة توجد سميرة وكثيرات مثلها
يغتصبن الأطفال.. إنهن لا يملكن غير ذلك.. إنهن جميعاً ينمن في
فراشهن عاريات ويحضن الحلم الذي ما إن طلع الصبح ذهب الحلم
وبدا واقع الحرمان..

.. كل فتاة وامرأة جميلة تتدلل قدر جماها.. سميره تعيش في بيتها
هائنة.. تهيأ لحسن أنها تعيش في عالم من الحرير وأنها هي وأمها
منفصلتان تماماً عن كل أهل القرية..

.. اضطجعت في سريرها وراحت تتأملني.. وكنت أحاول أن
أدخل شعاع عيوني في أم عينيها متسائلاً مندهشاً كأنني أقول لها من
أنت.. إبتسمت وكأنها أدركت ماذا أريد أن أقول لها :

- يا حسن.. من أنت.. أنت طفل بديع..
- أنا طفل ولكنني طموح..
- لا يجرؤ طفل في القرية أو الكفر أن تكون له هذه الجرأة..
- إنني لم أبتجراً عليك في شيء..
- دخلت على غرفتي وأنا نائمة..
- سألت عنك.. فأرشدتني أمك إلى غرفتك..
- لولا أنك غال عليها ما فعلت..
- من أنتم.. ولماذا أنتم تملكون هذا الجمال وهذه الإناقة..
- أمي ليست من هنا..
- وأبوك..
- من هنا..
- أين أبوك..
- مات..
- أليس لك أشقاء..
- لي شقيق واحد..
- أين هو..

- دائما في البحر..

- ماذا يعمل..

- قبطانا..

- ماذا يعني..

- يعني سائق باخره..

- ولماذا لا يأت..

- أرسل لنا خطاباً بالذهاب اليه في الاسكندرية..

- وهل تتركان القرية..

- ربما في القريب..

- والكفر والبلد تهونان عليك..

- يا حسن يا روح قلبي أنا هنا محبوسه..

- كيف..

- إذا خرجت لأشتري أي شئ من السوق أو البقال.. التفّ

حولي الصغار والكبار..

- لماذا..

- إنك ترى أهل القرية جميعاً.. ناس غُشم.. عندهم كبت

وعنف متزوجين من نساء حافيات فلاحات غلابه..

- ولكن في الكفر كثير من الشباب المتعلّم..

- الفرق أنهم يرتدون جلاليب نظيفه..

- ألا يوجد واحد منهم يكون جديراً بك..
- لا.. ومن أين أعرفه وكيف.. إنني أخاف من الشارع.. إنهم
لو استطاعوا أن يخطفوني ويعتدوا عليّ لفعلوا..
- وكيف فهمت ذلك..
- من كلامهم السخيف والمتعجرف من نظرات عيونهم
الحقيرة..
- إذا أنت مطارده من أهل القرية..
- إننا نعيش على جنب واحد..
- إننا نعيش في الأسر أو في المنفى..
- هل أنت قرية لنا..
- أبداً.. لما مات أبي تعرضت أمي لظلم رجل كبير..
- الرجل من الكفر..
- نعم..
- أي ظلم..
- كان يريد أن يقيم علاقة مع أمي بنفوذ..
- وما علاقه ذلك بسؤالي..
- علم والدك بذلك.. فجاء إلى الكفر وأوقف الرجل عند
حده..
- وهل لأبي مثل هذا النفوذ..

- والدك ورجال معه من بحري يحملون الشوم والبنادق.. والدك كان قائدهم..

- شئ جميل أعرفه عن أبي الآن..

- ومن وقتها خاف الجميع في الكفر يخافون أن يقترب أحد منهم من بيتنا.. على فكره.. أهل القرى يخافوا ما يختشوش..

- ومن وقتها أيضاً تنادي أمي والدك بخالي الحاج.. وكثير فعل والدك لنا..

- مثل..

- يرسل لنا كل شئ من الحقل.. بطاطس.. بصل.. ثوم.. كل الخضره والفاكهه التي يزرعها..

- بدون شئ..

- لا شئ.. إنه رجل فاضل حقاً..

- وأمي لم تفعل شيئاً لكم..

- يكفي علاقتها الطيبه بنا فمن وقت لآخر تزورنا هي وأمك لبيه..

- أتمنى أن أكون مثل أبي وأمي..

- سوف تكون مثلهم وأكثر.. وسكنت برهه ثم طفقت قائله :

- على فكره من هم مثلك عندما يكبرون يجب أن يهاجروا من قراهم..

- إلى أين..

- إلى أي مدينة واسعة..
- وبلدى..
- بلدك ولدتك وترعرت فيها..
- مازلت غير قادر على فهم معنى الهجرة لي..
- سوف تتخذ قرارك بنفسك..
- وعليه أنت ستسافرين الى الاسكندرية..
- وأنا سعيده لذلك.. شئ واحد سيحزني..
- ما هو..
- فراقك أنت يا حسن.. لاتندهش.. أنت طفل صغير لكنك رائع..
- أنا رائع.. ولكنني لم أفعل شيئاً لأستحق تقديرك..
- يجب أن يحافظ عليك وأنت صغير..
- أمي وأمي لبييه تحافظان علي..
- أنت تختلف في هذه القرية عن بقية الأطفال وأعرف أنك تعيش في بيت فيه حياة خاصة لك..
- إستطعت بنفسى أن أبعد عن أطفال حارة أبو سمك وأولاد بيت أبو شنب إن هؤلاء أسوأ ما في الناحية البحرية من أطفال..
- هذا جميل.. مع من تلعب.

- لا أَلْعَبُ الآنَ مع أَحَدٍ.. ولكنني أَسْتَمْتَعُ بالجلوسِ على حرفِ
الترعةِ وأتأملُ الناسَ فيها..

- لا يوجد على برِ الترعةِ غيرُ نساءِ الفلاحين..

- كنتُ أَسْتَمْتَعُ بسيقاهن العاريه وهن يغسلن القمحَ والمواعين
والملابس..

- ما الفرقُ بين جسدي وأجسادهن..

- إنني لن أجلسَ على حرفِ الترعةِ بعدَ اليوم..

- وأجسادُ النساءِ من يتفرَّجَ عليها..

- بعدَ أن رأيتُ جمالَ جسديك اليومَ فإنني أشعرُ بالخوفِ والقرفِ
من كلِّ شئٍ فيهن..

- تجاملني..

- عندما رأيتُك مسحَ كلِّ ما رأيت.. ولا يجبُ إذا كنتُ
أعرفُ معنىَ الجمالِ أن أنظرَ إليهن مرَّةً أخرى..

- إن هؤلاءَ النسوةِ قليلاتُ الحظ.. إنهن غلابةُ أولادِ غلابة.. إن
أيَّ إنسانٍ من نوعِ اللبنِ الذي شربه من ثدي أمه ونوعية طعامة
يتكونُ الجسد..

- يبدو هذا صحيحاً.. إن هؤلاءَ يأكلون اللبنَ الحادقَ والبصلَ
والمشَّ وإنَّ أمهاتهن يرضعنهن من ثدي جافٍ لبنٍ ناشفٍ من خلاصةِ
البُتَاوِ والجبنِ والمش.. ليس فيه غذاء..

- لقد فهمت.. ولذلك تجد أجساد النساء مثل عود الحطب أو مثل فرع الحمير من شدة القهر..

- ليس الذنب ذنبهن..

- لا.. ولكن ليس أيضاً ذنب أزواجهن أو أهلهن.. إنه الفقر الذي يورث..

- إنها أجيال وترى القرى غارقة في أعمال تورث ومناطق للفقراء وشوارع معروفة منذ مئات السنين ولا يستطيع هؤلاء الفقراء تغيير حياتهم لأنه ليس هناك من يقودهم ولا يوجد مثل أعلى من بينهم تجدهم غارقون في غيهم..

- لا أفهم..

- إنهم جميعاً يغرقون في إحتساء الشاي طيلة الليل وتدخين الجوزة والسجائر.. ويختلطون مع بعضهم رجال ونساء وتجد من العلاقات الجنسية بينهم مالا يستطيع عقل بشرى أن يتصوره..

- دخلت مره شارعاً يسكن فيه الفقراء فوجدته مظلماً من أوله لآخره..

- إدفع أبوابهم تراهم.. إصعد إلى سطوح بيوتهم في الصيف.. تلصص على قاعات نومهم في الشتاء.. تجدهم هرديسه عيسه..

- ماذا تعني هرديسه..

- إنها ليست هريسه أو بسيسه كما تظن.. أقصد لا حق ولا باطل تستطيع أن تفرق.. والباطل هو الحاكم.. والظلام ينتشر والمرأة التي ترقد لواحد ترقد لجميع من في الحارة والرجل الذئب في

كل حارة يعتاد كل النساء فيها.. وتجد في ذلك علقن.. العلقن المخفى.. ولذلك تجدهم في الصباح مهدودي الحيل مستهلكين.. خلصانين.. يحضنون كل ألوان ضعفهم ويذهبون إلى الحقل أجراء خدّام عبيد لأصحاب الأرض ويحلم كل منهم أن يعود إلى بيته في المساء ليمارس ما اعتاد عليه منذ ولادته.. إنه الميراث من الخوف والخضوع والضعف والذل الذي يأكلون منه ويرضعونه صباح مساء..

- كيف توصلت إلى ذلك وأنت تعيشين في النعيم.. إن بيتكم وسط بيوت الأغنياء فكيف عرفت كل هذا وأنت بعيدة عن هؤلاء..

- من البائعات والخدامات والطباخات والشغالات منهن.. إن أسهل ما عند هؤلاء الناس أنهم يحكون كل شيء وبالتفصيل وبلا خجل.. وكثيراً ما حكّت لي أُمّي وأبي قبل أن يموت.. وأنا أُلستُ من الكفر..

ألم أعش في هذه القرية الكبيرة التي تضم كفرنا تسعة عشر عاماً.. لقد نلت الابتدائي والإعدادي في القرية.. وحصلت على الثانوية العامة من المدينة. الاختلاط مع زميلاتي والحكي والحواديت والتلافيق والمكر والنصب والسرقة وروايات الحب والعشق والزنا.. لقد ورمّت عيني مما سمعته..

- من أجل ذلك ستذهبان إلى الإسكندرية..

- أخي أحمد له شقة في الإسكندرية وعمله هناك وهو يحتاجنا بجواره.. ليس لنا غيره وليس لنا شيئاً هنا غير هذا البيت..

- وأنا..

- أنت الدنيا كلها.. أنت صغير لكنك عالم جميل.. إنني لأول مره في حياتي أترك نفسي وجسدي لواحد من الرجال.. إطمأنت إليك.. لكنه الكبت والحاجه لأن تفك فتاة نفسها.. صحيح كان ذلك مع طفل صغير لم يبلغ السابعة من عمره بعد.. ولكنني سعدت بك قدر ما استطعت ويكفي أن قلت ما في نفسي لك سواءً كان خاصاً بي أو خاصاً بأحوال القرية.. أعرف أن كل ماحكيته لك كثير عليك وعلى رأسك الصغيرة.. تكلمتُ معك وأفضت كأني أكلم نفسي..

.. وبكيتُ وراحت تمسح دموعي وقلت لها :

- عندما تذهبين إلى من أذهب..

- لا تذهب إلى أحد..

- قطعت اللعب مع أطفال القرية الأوباش وسأمنع نفسي من الجلوس على حرف الترعه.. أين المتنفس لي..

- إصبر.. إقرأ.. تأمل.. ذاكر..

- أصبر على شئ هو أقوى مني.. وكيف يتعلم صبي صغير الصبر..

- اقرأ..

- ماذا اقرأ.. أرنب.. شرشر.. جلال يأكل الفول.

- تأمل..

- أتأمل ماذا.. كنت سأأمل جسدك ووجهك كما تأملته اليوم.. ولكن الى أية فتاة جميلة أذهب اليها بعدك لأ تأملها..

- التأمل ليس في جسد المرأة ووجهها فقط..

- لقد تعلمت التأمل في ذلك فقط..

- ذاكر..

- أذاكر التفاهات من مدرسين لا حول ولا قوة لهم في التربية والتعليم..

- إذهب إلى الصلاة.. صلى كثيراً..

- هذا شيء قوى لا أقدر عليه الآن.. إنني أصلي بجوار أمي كل صلاة..

- إذهب مع والدك في المسجد وإذهب إلى الدكان والسوق والحقل.. لا تترك أهلك حتى تتعلم ما يصنعه الرجال..

- ربما أجد في الحقل مع أبي ما قد يعينني عن التأمل.. وقد أجد ما أتأمله..

- سوف تجد.. هناك الكثير في الدنيا حولنا ما هو جدير بالتأمل..

- إنني لا أجد الآن أفضل ولا أجمل منك لأ تأمله..

- إن وجه المرأة وجسدها واحد من مئات الموجودات الجديرة بالتأمل.. وإن مخلوقات الله وآيات السماء والأرض والجبال

والشمس والقمر هي أجدر ما في الوجود لتأمله.. ولكنك لن
تستطيع ذلك الآن لأنك صغير..

- إنني غير قادر الآن على إستيعاب هذه الأشياء..

- عندما تكبر ستذهب إليها وحدك.. الآن اذهب مع أبيك الى
الحقل..

- مثل ماذا سأجده..

- الزرع.. البحر.. الحصاد.. الحيوانات.. المراكب فوق فرع
النهر.. الفلاحات..

- سأذهب ولكنك ستذهين..

- سوف أذهب وأرسل لك عنواننا هناك وعندما تكبر تأتييني..

- سأجذك متزوجة..

- حتى..

- وهل أستطيع تأملك وأنت متزوجة..

- الذي حدث اليوم لن يحدث وأنا متزوجة.. ولكن تأمل
وجهي.. كن لنا وزوجي صديقاً وأخاً.. ألا تعمر الحياة الإنسانية
بأشياء ومعاني أخرى أفضل وأنبل..

- لا أعرف..

- سوف أرسل لك عنواننا وبعد أن يشاء الله تعالى إلينا..

- أكيد سوف آت..

- تكون بيتنا الخطابات أليس هذه وسيلة لإتصال الود..
- سوف أراسلك وأقول لك كل أخباري..
- سوف أحكي لك عن الإسكندرية وعن حياتي فيها..
- يا صبر..
- صحيح جاءك الصبر.. أليست هذه وسيلة لتغذية الصبر..
- ياحسن من يصبر ينل..
- يا صبر..

"الخميس وشلة المرتزقه"

عندما عدت إلى البيت وقت المغرب مع سميره قابلتني أمي وهي تلومني عما أفعله:

- لو لم تكن مع سميره لضربتك..
- معلش يا طنط.. كان لازم نشبع منه قبل ما نسافر..
- دا بقه شقى أوي.. ها تسافروا فين..
- إسكندرية..
- والبلد..
- ما نقدرش نقعد أكثر من كده.. البلد مافيهاش حاجة..
- هاتوحشونا أوي.. خلاص مافيش ناس هانزورها واحنا والله ياطنط مافيش أحسن منكم في البلد كلها..
- والبيت..
- نقفله.. بيقه خالي الحاج يبيعه..
- كثير بنشكر ماما على الأكياس.. أم ابراهيم جابتها من بدري..
- لأ أبداً دي أقل حاجة..

كانت أمي وأمي لبيه يجلسان مع الضيفه في المندره ومنذ بداية الحديث الذي دار بينهما رحت أقلب في رأسي ماذا غير الشاي الذي أحضرته أمي لبيه لها آتى به لسميره.. هرولت إلى غرفة

الغموس.. وأخذت أكشف الحلل والدسوت بها.. إلى أن وجدت
في مقطف برتقالاً ويوسفي.. ملأت صحناً منه وحملته إلى المندرة
وقدمته إلى سميره..

- دوقي برتقانا..

راحت أمي وأمي لبييه تضحكان في سعادة وكأنه سيده كبيره
في بيت تقدم لضيوفها الواجب وقالت أمي وهي تضرب كفاً
بالآخر :

- عمره ما عمل كده لحد.. أد كده بتحب سميره..

- وأنا بحبه ويموت فيه.. وهو الشئ الوحيد في البلد اللي
هاحزن عليه..

- ربنا يخليك يابنت.. تبقى إبعتي عنوانك..

- ضروري ياطنط..

- هاتيحوا لينا إسكندرية..

- مالناش دعوه بيه.. دي بتاع الأفرنج..

- تعالوا زورونا..

- نفسنا نروح اسكندرية.. كفاية الجوابات..

أكلت سميره برتقاله بعدها إنحنت فوق حسن فقبلت كف يده ثم
انهاالت قبلاتها على خديه وبكت.. وقدمت لها أمي لبييه فوطه
لتمسح دموعها.. ثم قالت وهي تقبل أم حسن وأمي لبييه :

- هاتيحوا إمتي..

- هاتسافروا امتي..

- بعد إسبوع..

- بالكثير ثلاث أيام.. هانجيب الحاج ونيجي..

وجرى حسن نحو الباب ووقف فيه ومد ذراعيه حتى لا تخرج
سميره وسط إندهاش الجميع من لطف الصغير وراح ثلاثتهم
يضحكون في إبتهاج من حركات الطفل..

خرجت سميـره من الباب الكبير حتى باب السور وحسن يمسك
بطرف ثوبها مودعاً وظل معها يمشي حتى حنفية مياه خليفة
الأكرت..

عاد إلى أمه وليبيه فأمسكا به وراحت كل منهما تقبله على
حُسن ما فعل.. دخل بعدها غرفة نومه وانكفاً في فراشه وغطى
وجهه وعمل كأنه ينام حتى لا يرى أحد دموعه..

بعد العشاء أفاق من دموعه قليلاً وساعده على ذلك عودة أبيه
من الغيط.. وكان الرجل عندما يدخل البيت وهو يمتطي حمارته
يحمل في مقطف أمامه مالذً وطاب من خيرات الغيط.. وقبل أن
يجلس على مصطبه ساحة المنزل الخارجية.. ليسأل بصوت جهوري:

- فين حسن..

- خرج اليه حسن وجلس بجواره.. كانت عيون ولده حمراء
من كثره البكاء فقال له والده..

- مال عينك..

- كنت بعيط..

- ليه..
- سميره هاتمشي..
- مش فاهم..
- وتدخلت لبيه
- سميره بنت لظيمه هايسيروا البلد..
- على فين..
- اسكندرية..
- طيب واحنا مالنا يا حسن.. بتعيط على ايه..
- تضحك لبيه
- عيل ومتعلق بيه.. وسميره بتحبه أوي..
- كل البنات في السن دي بتحب الاطفال اللي زيه..
- ويضحك الرجل بصوت عال وشعر بأن حسن لا يعجبه كلامه فتابع الحاج قائلاً:
- يعني من دلوقتي ها تتعلق بالحريم.. إنت هاتبقه مصيبه..
- هو الحب والبراءة مصيبه..
- يعني لسه بدري على كده..
- سييني أحب..
- خلاص يا حسن حب الدنيا كلها..

- ربنا يخليك يابه.. يعني أحب زي مانا عايز.. حب ربنا..
حب الناس.. حب الزرع.. حب المدرسة....بس حب البنات لسه
بدري عليه..

- إذا حيي لسميره هو كل حيي للدنيا..

- والله أنا مستغرب.. بتقول كلام كبير أوي كأنك راجل
كبير..

- مش معنى إنت بتحب.

- أنا لما كبرت إتجوزت..

- حبيت أمي لبيه وأمي..

- حبيت أمك لبيه..

- وأمي..

- إتجوزت أمك علشان الخلف..

- يعني مابتجيش أمي..

- هو فيه حد مايجبش مراته..

وكانت أمي بالداخل لم تسمعه ماذا قال عنها ولكن أمي لبيه
كانت تقف في باب غرفتها وكانت السعادة تكاد تنط من عينيها..
ولم أكن سعيداً على ما قاله أبي ولذت بالصمت وزادني في كلامه
حزناً.. ومضى بعض الوقت فيه جهزت أمي طبليه العشاء في الصالة
الداخلية للبيت.. ونادتنا بأن العشاء جاهز.. إلتفنا جميعاً حول
الطبلية.. الزوجتان وسعاد أختي التي تكبرني بخمس سنوات والتي

دائماً تجلس بجوار أمي لبيبه.. وعبد العزيز الذي يصغرنى بعامين ثم محمد عمره ثلاث سنوات.. والغريب الذي لاحظته بل واعتدت عليه أن إخواني الثلاثة لا يتكلمون ولا يحكون ولا أحد يهتم بهم.. وكأن البيت ليس فيه إلا حسن وقلت لنفسى لماذا؟.. ولم أجب على سؤالى.. كانت سعاد فى الرابعة الابتدائية فى مدرسة البنات إعتزلت الدراسة لما انتهت من السنة الرابعة.. كانت تنام ليل ونهار مع أمى لبيبه فى فراشها وكان عبدالعزيز بعيداً عن أمى ينام فى غرفة أمى لبيبه على الكنبه.. تعودا على ذلك منذ الصغر.. أما الصغير محمد فهو لا يدري بشئ ولا أحد يهتم به.. إنه ينام على كنبه فى المندره أو فى ركن فوق فرن القاعة.. كانت غرفتي وفراشها ودولابها والكنبه التي بها أنظف غرف البيت.. وكنت اعتقد دائماً أن سعاد وعبد العزيز هم أبناء أمى لبيبه وأن محمد هذا قد وقع من قعر القفه.. لا أعرف من تكون أمه..

وهكذا توزعت العواطف والحب فى البيت وشعرت بأن هذا ظلماً ولكنى لم أفعل شيئاً لرد الظلم ولم أسأل أبى عما يحدث لأننى فى نهاية الأمر كنت سعيداً بأن أكون وحيدى موضع الإهتمام وأن أكون كل شئ.. ولكنى فى يوم سألت أمى ولم يكن أحد يسمعنا :

- لماذا تنام سعاد وعبد العزيز فى غرفة أمى لبيبه..

- أبوك عودهما على ذلك.. شئ من الحب..

- شئ من الحب على مين..

- على مراته..

- مش فاهم..

- علشان ماتنامش لوحدِها ويونسوها إكمن ما عندهاش ولاد
- بس كده ولادك بعدو عنك..
- فعلا يابني وأنا سبتهم تربيهم لبييه.. مش مشكلة ربنا عوضني بيلك
- ومحمد الغلبان..
- دا راضي بأي شئ.. تعرف لو نيمته في زريه البهايم مش هيقول لأ..
- وهو ليه غلبان..
- هو كده طفل بيعب الغلب والصبر عنده جميل.. وما بيعيطش.
- طيب هاتيه ينام معاي.. لأنه غلبان اوي..
- مافيش مكان.. وهو مش داري بحاجة دلوقتي..
- ولما يكبر..
- ينام برضه مع أمك لبييه..
- إنتِ اللي عايزه كده.. قلبك قاسي يامه..
- لأ والله يا حسن.. أنا مش هاقدر أحبهم أكثر من كده..
- ومش عايزه حد تاني ياخذ قطره من حي ليك..
- يا نهار إسود يامه أد كده حبك ليه..
- يابني هي جت معايا كده سيبها تمشي طالما الكل مستريح..

- أنا بحب محمد.. هاتيه جني..

- ماينفعش..

- ليه..

- لأن ولادي الثلاثة بيعملوها على نفسهم بالليل ومش قادره أنصف كل ده..

وفي كل صباح إعتدت أن توقظني أمي في رقه بالغه فأصحو وأنام وأتدلل وإذا زدت في دلالي عليها قلت لها لن أقوم إلا إذا جاءت أمي لبييه وأيقظتني.. تذهب وتنادي ضُرتها لتوقظني وتأتي لبييه وهي سعيدة لأنني طلبت ذلك فتقول أمي لبييه:

- حسن قوم المضرسه. حسن المضرسه.. (تقولها بالضاد) تنادي ثلاث واربع وفي الخامسة أطلق ضحكه عاليه وأقوم.. كنت أستمتع جدا بقولها المضرسه.. فتسعد السيدة وتذهب الى غرفتها مع أطفالها..

وفي وقت الذهاب الى المدرسة يكون أبي على وشك أن يعود من الغيط.. إن أبي يذهب إلى الغيط كل صباح بعد صلاة الفجر راكباً حمارته الركوبه (يعني بيردعة حمراء)، وطيلة طريقه الى الغيط الذي يبعد عن البلده كيلو مترين يقرأ القرآن بصوت مسموع يسمعه من بجواره من الناس رجال ونساء الذين يذهبون الى الغيط لبدء أعمالهم وكانت النساء تذهب الى الغيط في هذه الساعة البدريه لحلب الجاموس والبقر.. ولا مانع إذا قام واحد من الناس رجل أو امرأة بعرض شكواه ومشكلته على أبي ربما يجد لها حلاً.. وكان الجميع ينادونه يابه الحاج أو ياخالي الحاج .. وعلى ما يصل أبي إلى

الغيظ في هذه الساعة البدرية يكون قد حل بعض المشاكل للناس أو وعد بحلها أو أعطى موعداً بعمل جلسته لها إذا كانت مشكلة مستعصية لا ينفع فيها الكلام على الماشي..

.. وكان لأبي صوت قوي عال.. فإذا سعل في الطريق سمعته كل البيوت على جانبي الطريق وكذلك إذا كح أو عطس.. كما يقولون رجل له حس.. وعند سماع صوته أيا كان يعطس أو يسعل يستيقظ كثير من أصحاب بيوت الحقل قائلين :

- قومي يابت النهار شقشق أبوك الحاج وصل..

- قوم يا سليم النهار شقشق عمك الحاج وصل..

- قومي يا ستيته صلي قبل الشمس عمك الحاج جه..

- قوموا يا أولاد إجهزوا للمدرسة أبوكوا الحاج زعق..

وقبل أن يصل أبي منزل الغيط يكون النفر (العامل الزراعي) قد استيقظ من صوت عمه الحاج طيلة الطريق.. يقوم ويغسل وجهه ويصلي ثم يشعل النار في حفرة بالأرض أو في وعاء الفخار.. يشعل النار ليتدفأ ثم يعمل الشاي بعد أن يسخن (العيش والبتا) ليتناول الفطور معه عمه الحاج.. وكان الحاج رجل متواضع فهو يقصد أن يتناول بعض الطعام مع العامل في الصباح أو في الظهر أو في المساء ليشعر العامل بأنه مثله تماماً ويرفع من روحه وكان العاملين في حقلنا يحبون أبي لتواضعه ومعاشته لهم في كل شيء.. وعلى ما ينتهوا من الطعام يكون العامل أو العمال قد حكوا لأبي مشاكلهم أو أمورهم لأنه قريب منهم وهم في الأساس يرتاحون للحكي معه.. وعندما يبدأ العمل وفي خلال النهار يكون الرجل قد وجد حلاً أو

حلولاً لمشاكلهم وأوجاعهم حتى ولو بالرأى.. إنه رجل يحل مشاكل الناس جميعاً والأولى بذلك من يعمل عنده..

وكان من العادات الجميلة كل شقشقة نهار أن كلاب الحاج في الغيط يستيقظون أيضاً على حسه وكانوا ثلاث كلاب أكبرهم سعيد ثم قرطي ثم برعي.. يقف الكلاب صفّاً واحد يهزون ذيولهم مبتسمين مبتهجين لقدوم صاحبهم.. وقبل أن يتزل من فوق حمارته يكون الكلاب قد شب (قفز) كل منهم لأعلى تحية لعمهم الحاج.. وكان يأتي لهم ببقايا البيت في البلدة.. كالعظم والشفت والطبخ والأرز الذي قد يلقي به ستات البيت في الزباله.. يأتي للكلاب بهذا الطعام الطري ليبرهم ثم يعطي لهم من طعام الغيط البتاو والعيش الكفاية كي يشبعوا.. وفي هذه الايام من أول الخمسينات كانت الكلاب ضروري تربيته ووجودها في كل حقل لحراسته والدفاع عنه من الذئاب والثعالب التي كانت كثيرة جداً في هذا الزمان وكان للكلاب فوائد كثيرة منها حراسة الزرع والمحاصيل والبهايم من عبث اللصوص..

هي ساعة يمكنها الرجل في الغيط أو ساعتين حسب ظروف العمل في الغيط ثم يعود الى البلدة ليدخل في غرفة أمي لبيته لينام قليلاً والتي تدعه يرتاح وإذا قام حكيت له كل أحداث البيت.. وإذا كان يريد نأمة نامت له وريحته على الآخر.. إنها الزوجة المطيعة لزوجها.. إنه ابن عمته ستيته وهي بنت خاله محمد درويش.. لقد أنجبت منه إثني عشر بطناً ولم يعيش منهم طفلاً واحداً.. إنهم يموتون بعد شهور قليلة من ولادتهم ربما طيباً لقرباتهم وفي الآخر هي حكمة الله.. وكان الرجل إنساناً وعطوفاً معها عندما أعطاها سعاد

وعبد العزيز وعندما كبرا كانت سعاد شديدة الالتصاق بأمرها لبيب
وعبد العزيز.. وكانت المسافة بعيدة بين الام وهذان الابنان لان الام
مرتاحة لذلك وهي لا تحب بشدة غير حسن.. ثم بعده محمد المعلق
بين المنذرة والقاعة.. انه الشريد الطيب الساكت وكانت السيدة
مأمعه وجميلة زوجتا عبد العال ابن عمي كانتا يطلقان عليه الخرنج
وذلك عندما كبر قليلاً وذهب الى المدرسة.. يقولون له يا خرنج
فيضحك..

جاء أبي بوالدي من قرية تلوانه مركز الباجور منوفية والهدف
الذرية.. وكان للرجل مواصفات أن يأتي بواحدة مليحة الوجه
بيضاء طويلة بضة الجسد وكانت أمي هي تلك التي يريدونها.. كان
جدي أحمد فوده يملك أرضاً زراعية تتعدى ثمانية أفدنة وكان من
أحسن زراع البطاطس والقطن في تلوانه وكان أيضاً من أفضل
الفلاحين الذين يقومون بتربية العجول والبقر والجاموس.. وكان
سبب زواج أبي بأمي بقره.. ذهب أبي ومعه صديقه إبراهيم عوض
ليشتري أبي بقره من عند هذا الرجل.. لمح أمي وهي تعدي أمام
المنذرة لمألاً حلة الطبخ من مياه الطلمبة الموجودة في داخل البيت..
ولما سألت أبي لماذا أعجبت بأمي واخترتها زوجه لك قال :

- لمحت كعب رجلها.. أبيض أبيض.

- بس كده..

- كانت بنت أد الشمروخ.. كانت شرخه..

- إني أراك لا تحبها الآن كما تحب أمي لبيب..

- للأسف أمك مش ناعمه بترفس.. وعلشان كده بروح للبيهه مابتوجعش دماغى..
- ليك حق يابه..
- إنت زعلان..
- طبعاً زعلان..
- قولها تبقة ناعمه شويه..

و كنت أحزن كثيراً للمسافة التي بين أبي وأمي.. أن أمي تعطيه نفسها تأديه واجب وهي راضيه بذلك.. إن كل همها أبنائها.. وبالذات حسن إنه بالدنيا كلها إنه يملأ قلبها وعقلها..

أول ما أنجبت أمي سعاد.. بعدها ولدت سعيد ومات بعد ثلاث شهور.. بعده ولدت سامي ومات بعد اربعة شهور.. تعقد الرجل نفسياً ولولا إيمانه ماصبر.. وكان يصبر ويطلب من الله ولد وكان جميع أهله وأحبائه يدعون له بالولد.. أما أعظم أهل زوجته لبيه فكانوا لا يريدون له ذلك حتى تعود زوجته حميدة إلى تلوانه لأنها لم تحقق له الهدف ويخلو البيت من ضره وليكون بيت حداد هذا مرتعا لهم من طعام وشراب ومال.. هكذا كان الحال ويرأس هذا الهدف من أهله خالته أم الرزق الورك ونجيب شقيق لبيه وكذلك عبده ومرات عوني شقيق لبيه وهي امرأة سليطة اللسان وكانت تكره أمي وترمي عليها بالنقوزه والتريقه وتدعي غنيمة أبو راكية.. رأيت ذلك بعيني عندما كانوا يأتون إلى البيت جميعاً كل يوم خميس (يوم السويقه) ويقعدون جميعاً بربطة معلم أمام غرفة أمي لبيه.. أم الرزق خالة أبي وعبد الرازق الورك زوجها.. ونجيب وزوجته سيدة وعبد

وزوجته تفيده وغنيمة مرات عوني وأحياناً عبد العال وزوجته بنت عبد الحميد أبو راكية.. يأكلون ويشربون ملاً بطونهم وعندما تمر أمي من أمامهم وهي تقضي حاجات البيت.. وهات يضحك وتريقه ورمي كلام على أمي.. كانت شلة ناهبه بيئة من الناس وجميعهم أقارب أبي.. رأيت ذلك بعيني عندما كبرت وأدركته تماماً عندما بلغت الخامسة.. ولم يكن أمامي غير أن أدافع عن أمي.. أعددت عدتي يوم الخميس وأحضرتُ شمروخاً كان في ركن القاعة وجلست أمام المندرة المواجهة لغرفة لبيبة.. جلست أنتظر الشلة واحداً بعد الآخر.. وكانت أمي لبيبة تنظر إلى مندهشة.. لماذا يقعد هكذا.. لماذا يمسك بالشمروخ.. جلست هادئاً ولكن في تحفز وانتويتُ أن أضرب بالشمروخ كل من ينال أمي بكلمة أو تريقه.. وسألني أمي في همس له قاعد كده.. فقلت لها في همس أيضاً.. هاتشوفي..

خالة أبي البغيضة وزوجها أول من وصلاً أخذنا مكافهما فوق الحصيره.. ثم نجيب وسيده زوجته وصلاً من شروة حسن وعبدته وزوجته تفيده عميره ثم عبدالعال وزوجته فريده ثم سليطة اللسان غنيمة أبو راكية.. الطبلية الكبيرة وضع عليها مالذ وطاب من طعام البيت أكلوا جميعاً ثم أشعلوا الباجور لعمل الشاي وبدأت غنيمة مشهد التريقه عندما مرّت أمي من أمامهم لتملأ القلل من مياه الطلمبة التي في داخل سور البيت وكانت أول القصيدة.. غنيمة :

- ياختي كنت جاية عشرة كيلو بقيت ميه..

لم ترزد أمي.. فهذا شئ متعوده عليه..

واحد منهم لم يعجبه الكلام.. أخذ زوجته وقام الى السوق..
عبدالعال درويش وزوجته فريده انسحبا وذهبا.. لم يعجبهما
الكلام.. وقال عبدالعال لغنيمه وهو يغادر القعه :

- عيب يا غنيمه..

وأمي تعود بالقلل..

غنيمه - مهما عملتيله مش هايغيرك.. إحنا جايينك زي البقره
علشان تخلف بس..

لم ترد أمي ومشيت في طريقها إلى داخل البيت..
كان عليّ أن أنطق بكل قوة.. خبطت العصا (الشمروخ بقوة
في الارض وقلت بصوت عال مبحوح موجهاً الكلام لغنيمه..

- يامره يابنت الكلب مالكيش دعوة بأمي..

إندهش الجميع وقال نجيب

- وانا كنت باحسبك طيب ومؤدب.. دي بتهزر مع أمك

حسن

- أمي مابتهزرش معاكم ياولاد الكلب كلكم..

غنيمه

- طب أسكت دا إنت حبيبي.. دا أنت ابن حبيينا أنت بتحب
أمك أوي كده..

حسن

- أمال أحب مين يابنت الجزمة..

عبده

- دا الوضع مابقاش زي الأول.. بقه فيه حد يدافع عنها..

أم الرزق

- العَّيل قليل الأدب يتكسر رقابته..

حسن

- كسر رقابتك يامرة يا كبيرة يا شايه ياعيهه يأم دقه.. جتك
نيله دا إنت عامله زي العرسه..

قام عبده وأخذ زوجته تقيده في يده وقال وهو ينصرف :

- لأ لأ.. دا الأمور إتغيرت..

أم الرزق

- رايح فين أقعد لما ييجي أبوه يربيه..

حسن

- يربي مين يا أم الشعور.. يامرہ ياشحاته ياواطيه.. خدي
جوزك الجربان وامشي من هنا..

أم الرزق

- يانهار إسود.. طيب أنا هامشي ياله ياعبد الرازق.. لما ييجي
حداد لو ما مشاك إنت وأمك مش هاكون خالته..

حسن

- ك... على ك.. أم أبوك أمشي يامرہ ياعرہ..

غنيمه

- كده تشتم خاله أبوك.. صحيح مش متربي زي أملك..

جريت مندفعاً نحوها وبكل قوتي ضربتها على ذراعها بالعصا بكل ما أوتيت من قوه.. رقت غنيمه بالصوت فدخل بعض النساء الى البيت اللاتي يذهبن الى السويقه فصرفهم نجيب قائلاً :

- مافيش حاجة إمشي يامرہ إنت وهي..

.. إنفضت قعدة السويقه وهرولوا جميعاً من جلسة الهير والسوء والنميمه.. ولو استطاع أي منهم أن يفعل شيئاً في حسن لفعل.. إنه ولد أبيه الغال.. وأخذت أم الرزق غنيمه أبو راكمه إلى مستشفى القرية في الكفر ليتم الكشف على ذراعها.. وأول من قابلت أم الرزق وغنيمه وهما في طريقهما إلى المستشفى السيدة زكية زوجة سالم الصاوي التي بادرتهما قائلة :

- إيه فيه إيه يا أم الرزق..

- حسن ضربها بالشمروخ..

- أكيد ضايقته بحاجة..

- لأ أبداً طالع لأمه بيكره أهل أبوه..

وفي شجاعه قالت السيدة زكية :

- دانتو معروفين في الحته كلها جاين تنهبوا وتاكلوا وعازين

تطفشوا الوليه بعد ما جابت له ثلاث عيال..

- بتحبوا الغريبه عن بنت البلد.. إحنا أهل الحاج ومايقدرش يستغنى عنا..

- لو كنت خالة الحاج بصحيح كنت تحبي ولاده عن أي ناس تانيه.. لكن إنت طول عمرك مره ناب..

- إنت بتشتميني يامرات سالم..

- والله لأقول لعبد العزيز الصاوي سلفى إنتو عايزين تعملوا إيه في الغريبه دي.. علشان يلحق ويعدل راس الحاج حداد..

حدثت هذه المداولة الحامية لما تمكنت زكية الصاوي من الامساك بأم الرزق من شمارها في غيظ وأوقفتها هي وغنيمه أبو راكيه وادتهم كلمتين حلوين هَمَّه خلاصه ما يقوله ويعرفه دار الصاوي أقرب دار إلى دار الحاج حداد.. وفي سعادته بالغه أخبرت السيدة زكية كل النساء اللاتي يملأن المياه النظيفة من حنفية خليفة الأكرت التي تتوسط المسافة بين دار الصاوي ودار الحاج حداد.. وفي كل سرور وفرح قالت للنساء :

- شوفوا ربنا حسن كبر وضرب غنيمه على ذراعها بالشمروخ..

وترد سيدة تملأ وعائها بالماء :

- أتااري أم الرزق واخداها وريجه ناحية المستشفى..

وتهمز سيدة أخرى رأسها وتقول في حكمه :

- بيهدلوا الغريبة أم العيال أكثر من عشر سنين وكل حاجة ليها آخر..

إمتلأ وعاء السيدة زكية الصاوي بالماء الصافي وحملته فوق رأسها وتركت الخبر بين نساء الحنفية واحده تقول للتانيه ومافيش واحده إلا لما فرحت ودعت لحسن بالعافية علشان يطلع المرتزقه من بيت أبيه.. وكلما قابلت زكية امرأة في الحته قالت لها تطور الأحداث في بيت الحاج حداد حتى وصلت إلى دارها.. وهناك قرب باب البيت كان حداد ابنها وعبد الحميد ابن أخت جوزها يلعبان على دكة خشبية فقالت لهما من شدة فرحتها :

- إنتو عارفين حسن بن الحاج حداد

وفي صوت واحد قالا :

- أيوه.. داحنا بنجبه وبنلعب سوى.. فيه ايه حصل ايه..

- ضرب بالشمروخ غنيمة الغجرية بنت أبو راكية..

- ليه يامه.. غنيمة دي مين..

- هاحط الحله وآجي أفهمكم..

- إحنا بنلعب معاه وخلاص..

كم سعدت السيدة حميدة فوده بإبنها.. أخذته ودخلت غرفته وأشعلت كوز البخور وراحت ترقى ولدها من الحسد.. ودخلت لبيبه غرفتها وراحت تفكر في ماذا تقوله لحبيبتها الحاج.. وهل تستطيع أن تقول أن حسن غلطان.. إنه مهما كان طفل والطفل أبداً ليس لأحد حق عنده.. إن عمتي أم الرزق هي التي شجعت غنيمة على شتيمة الولد وأي ولد ليه حق يدافع عن أمه.. أجيبتها من الآخر علشان أحمي نفسي.. هاقول للحاج.. خالتك غلطانة

وغنيمة غلظانه وحسن ليه حق.. بعد كده يا حاج هادخلهم
القوضه وأقفل عليهم يبقوا بعيد عن حسن وأمه..

وعند الظهر وصل الحاج من السوق كان بيع جاموسه قطعت
البن.. راح الحاج يعد في فلوسه ثمن الجاموسه مرة أخرى ودسها
في جيبه وكان يجلس على المصطبة بجوار الصومعة التي يخزنون فيها
القمح.. أخذ نفساً طويلاً وقال للبيه:

- أmaal فين جماعة الخميس..

- مشيو..

- ليه مشيو بدرى.. كلو وخدو راحتهم وشبعوا..

- أيوه يا حاج.. هاقولك على اللي حصل وأحلف بالله أقول
الحق..

- فيه ايه. ايه اللي حصل يالبيه..

- غنيمة إتنقوزت على حميده وهي ريحه جايه بتقضى شغل
البيت..

- وبعدين..

- وخالتك رُخره ما سبتھاش تريقه..

- وبعدين..

- حسن شتم خالتك ردت عليه غنيمة وسَّبت أمه..

- وبعدين..

- قام حسن بالشومه وضرب غنيمة على دراعها..

- يا نهار اسود كل ده وأنا في السوق..

- وفين غنيمة.. إتعورت..

- خدتها خالتك وراحت بيها المستشفى.. مطرح الضربه ورم شويه..

- وفين حسن..

- جوه مع أمه..

ونادى حسن

- يا حسن.. يا حسن..

جاء حسن ووقف عند باب الوسط فقال لولده في هدوء وهو يكضم قليل من الغضب :

- ليه تعمل كده يا حسن..

وفي شجاعة وهدوء أيضا قال حسن :

- لو واحدة شتمت أمك هاتسكت لها..

وارتبك الحاج وسكت ثم طفق بعد برهه :

- قالو لأمك ايه..

- يتغمزوا عليها في الريحه والجايه والكل يضحك.. أمي زي البقره تخلف وبس..

- أمي كانت عشرة كيلو وتخنث من أكل الحاج..

ونظر الى لبيه شذراً وقال :

- ليه يا لبيه يحصل وانت قاعده..
 - مابقدرش على خالتك وعلى غنيمه..
 - طيب ييقه الولد ليه حق.. أنا لو مكانه هاعمل كده..
 - شوف يا حاج أنا معاك في أي حاجة تعملها..
 - يا لبيه خللي بالك حميدة مش هاتمشي..
 - وأنا قلت كده يا حاج..
 - أنا دلوقتي صحيت وعرفت مصلحتي.. كام عيل من حميده..
 - كل دول .. يا حاج..
 - سعاد وحسن وعبد العزيز ومحمد.. أربع عيال..
 - مش فاهمه يا حاج.. إنت بتعايرني علشان ماخلفتش..
 - وراحت لبيه تبكي بصوت عال.. ولكن الحاج تجاسر وقال :
 - عَيطِي زي ما انت عايزه.. إملى الدنيا عياط..
 - يعني مش هامك يا حاج.. مابتحنيش يا حاج..
 - الله يخرّب بيتك وبيت مخك.. أحبك حاجة وولادي
- حاجة.؟.

- يعني بتحبني..
- بحبك يا لبيه خلاص ارتحي..
- وراحت تمسح دموعها ونهت بالعياط ثانيه وطفقت تقول :
- خلاص طالما بتحبني خلاص..

- هاتعملي إيه في بتوع الخميس..

- إنت عارف إنهم من الغيطان ولما بيعجوا السوق مالمش حد غيري في البلد..

- طيب وغنيمة ليها طلب ايه..

- بتيجي تاكل..

- وخالتي وجوزها..

- بتيجي تاكل إنت عارف جوزها ما عندوش الكوته..

- وعنده ومراته بيتهم في البلد..

- وبعدين يا حاج.. ما إنت عارف بيت خالك كلهم غلابه..

- والحل..

- بيعجوا الخميس عادي بس مايقعدوش في وسط الدار..

- دخليهم جوه القوضه عندك..

وتقدم حسن نحو أبيه وأمسك يده في حنان ثم قَبَّل كف يده
وقال في هدوء:

- إسمع كلامي أنا يابه..

ورق قلب الرجل لولده وترغرغت عيناه بالدموع وقال وهو
يحتضنه قول يا حسن..

- إحمي بيتك يابه.. هاتحصل المشاكل دي تاني..

- يعني ايه..

- مافيش حد ييجي هنا..
- دول أهلي برضه يا حسن..
- أمي لبيه تاخذ الأكل وتروح بيت عبده وياخدوا راحتهم هناك..
- إيه رأيك يا لبيه..
- هاتحرمي من بيتي يا حاج..
- يازفته إحنا مش عايزين مشاكل خالص.. خللي الخميس عند أخوك..
- ونظرت إلى حسن وهي محتاره لأنها وجدت أبيه يمشي ورا كلامه.. سكتت وراحت تبكي..
- يالبيه آخر كلام.. مافيش خميس هنا.. خدي اللي انت عايزاه وزوحي بيت اخوك..
- كده خلاص..
- يا لبيه.. دا الصبح الناس هاتاكل وشي.. أنا عايز أكوش على ولادي..
- طيب شاور اخوك دردير في الكلام..
- أخويا دردير فحل جاموس مايعرفش غير نفسه وبيته جنب بيت عبده أخوكي.. هيقول الكلام اللي يرَّيح دار خالي..
- برضه شاوره..
- أشاور مين .. هاشاور محمود..

- محمود قطيعه..

- محمود من زمان رأيه ولادي وبس علشان كده بتكرهه..

- إحنا كلنا بنكره محمود..

- عارف كل الدراوشه بتكره محمود.. ناس كتير أوي بتكرهه
لأنه بيقول الحق..

- يعني الدار بقت على أد ولادك بس وأنا ماليش فيها مكان..

- إنت ليك قوضه في الدار وبتاكلي وتشربي وتتكسي زي أي
واحد في البيت.. أنا مديك سعاد وعبد العزيز كأنهم ولادك..

- خدهم..

- إنت مره بنت كلب زي أمك بنت البُكل غَلَبت خالي
وطَلَّعت إيمانه..

- أنا بنت كلب وأمي صفتها ونعتها..

- الدريه الزفت بتجيب لأهلها اللعن..

- أنا مش ها قعد في البيت ده..

- إنت تعبانه يالبيه خدي هدومك وامشي أحسن..

”سميرة تغادر القرية“

كان أبي يكن للسيدة لظيمه البدرى أم سميرة كل معزه وكانت هي تبادله نفس المعزّه رغم أن والدي يرتدي جلباباً وعمامه مثل كل الرجال الذي نالوا قسطاً من التعليم في الأزهر.. ولم أر أبي مره مع هذه السيدة إلا وهي تهمس في أذنه بكلام وكذلك أبي يهمس في أذنها.. وأخيراً عندما تغادر بيتها أو ندخله تقول عبارتها المشهورة:

- إزّيك ياخال الحاج.. سلام ياخال حداد..

وأنا بيني وبين نفسي.. يعني إيه.. بقه كل النسوان في البلد أبويا خالهم.. هو أبويا أخو كل ستات البلد.. وسألت أمي في يوم عن هذا العرف الدارج عن أبي فلم تجب وراحت تضحك في خبث.. ولما ضغطت عليها في سؤالي لم تجبني شيئاً.. فقلت لها لماذا لا تغاري على أبي ولا تدافعي عن زوجك.. فأجابني إجابة شافيه:

- إن رصيد أبيك من الحب في البلد كثير ولا أستطيع منع هذا الحب.. وانني بصراحة أشعر بالغىظ عندما أجد وأرى وأسمع هذه العبارة من النساء لأبيك.. لماذا لا يكون معنى ذلك إلا نبلا وحباً واحتراماً.. لماذا نأخذ مثل كل أهل البلده أي معنى ونوجهه إلى معنى خبيث.. لماذا نحن أهل القرى كثيرى الظنون.. لا أعرف يا بني لماذا يحب أهل القرى الفتنة والنميمة والخبص.. لا أعرف..

- من أسأل يا أمي حتى أعرف..

- إنه تاريخ إجتماعي لقرية.. دع التاريخ يتكلم.. دع التاريخ ينتشر.. دع الحب بين الناس في يسر وسهولة لا تسأل عن شيء طيب بين الناس.. دع الناس تحب وتذهب الى ما تستريح إليه يا حسن دع الناس جميعا يقولون.. يا نخال الحاج..

حملت أم ابراهيم فوق رأسها قفص فيه تشكيله من الطيور.. وأمسكت أمي في يدها حقيقه بها الفطير المشلتت وأمسك أبي بحقيقه أخرى بها الخبز والجبن والزبد.. دخلنا إلى بيتها وانهالت القبلات من أمي للظيمه ومن لظيمه لحسن ومن لظيمه لأبي وبكت وهي تحتضنه.. أما سميره فما كان لها إلا أن أخذت حسن في حجرها كما فعلت في رحلة المدينة وراحت هات يابوس.. ولم تتركه من حجرها ولم تتركه من حجرها إلا وهي تقدم واجب الشاي والبارد والكيكه للضيوف.. وكانت أم ابراهيم قد ذهبت كعادتها لكنها هذه المره عادت إلى البيت لتكون مع سعاد وعبد العزيز ومحمد حتى يصل أصحاب البيت.. وكانت المفاجأة أن السيدة لظيمه أعطت لخالها الحاج توكيل موثق في المحكمة ببيع المنزل.. وناولته ورقة بالعنوان في الإسكندرية.. وطالت الدردشة والونسه وعبارات الحب وحكايات عن الكفر حتى منتصف الليل.. كم بكت سميره وهي تودع حسن وكم بكت لظيمه وهي تحتضن الحاج بكلتا يديها وكم قبلته وهكذا فعلت مع أم حسن..

وقبل أن يغادر الضيوف الباب الداخلي للبيت قالت لظيمه لخالها الحاج :

- بكره هاتيحي عريه النقل لنقل العفش إلى الإسكندرية..

- مين ها يروح مع العفش..
- أصحاب العربية من أشمون عارفهم وها يروح السواق على العنوان ..
- وأنتم ها تركبو مع مين..
- عربية أجرة من أشمون..
- ييقه لازم آجي الصبح عشان أكون معاكم وأجيب أنفار تبعنا تشيل وتساعد..
- ياريت يا خال..
- فيه حاجة تانيه آجي إمتى بكره..
- هاصلّي الفجر واستناك..
- طيب عايزه حاجة يا سميره..
- عايزاك طيب يابه الحاج.. تبقيه خد الكرتونه دي بكره وأشار بيدها إلى كنبه بالصاله..
- فيها إيه الكرتونه..
- كتب بابا.. كتب قديمه ومجلات.. يمكن تنفعك يابه الحاج..
- وفجأة زعق حسن- لأ أنا عايز الكتب..
- وربّت على ظهره السيده لظيمه- خد يا حبيبي اللي إنت عايزه
- لما تكبر يمكن تلاقي فيها حاجة تنفعك..

وخرجت السيدة حميدة من الباب وبعدها حسن تمسك به سميرة حتى الباب الخارجي.. أما السيدة لظيحه فكان لها مع خالها الحاج حديثاً هامساً لدقائق ختمته بقبلة على ظهر كف يده.. وقال مودعاً لها.. ما يكون ليك إلا الخير..

لا أعرف كيف وصلتُ بيتي ونمت حتى الصباح وأعلم علم اليقين أنني لم أرها بعد.. وأي إسكندريه هذه التي أذهب إليها عندما أكبر وأرى سميره ثانية، في الصباح وجدت أن عقلي يجهل ذلك الذي وجدت نفسي فيه.. طفل بلا هويه.. طفل يتخلى عنه الحب وهو الشئ الوحيد الذي به يشعر أنه أقوى إنسان في قريته.. إن الكفر كله لا معنى له بدون سميره وإن صفحات حياتي ليس فيها شيئاً بعد أتصفحه، إن الأشياء في داخلي لن تنسجم مع بعضها بعد سفرها هذا فهل أضلّ طريقي وأتخبط في الظلمات.. ليتني أعود إلى عادات وألعاب الأطفال في قريتي لو كان في ذلك حلاً لأجد طريقي.. ليتني مثل الأطفال في شارع أبو سمك حتى لا أشعر بأي شئ حولي غير الإنصهار مع بقية أطفال قريتي.. إنني لن أذهب إلى أحد في قريتي أو الكفر حتى يدلّني أو يجعلني أحبه.. أحب كل من حولي من كل قلبي.. إن بعد سميره لن يكون ذلك الحب والصفاء الذي كان ينعش حياتي كلها.. إن بيت أبي وأمي الذي يحتويني ويطعمني ويسقيني وغرفة نومي في سريري وحنان أُمّي علّى ورعاية أبي لي.. كل ذلك المحيط الجميل حولي لن يغنيني الآن عن حب سميره ولن يعوضني فراقها..

وفي هذه الليلة الأولى التي أجد فيها البيت بدون أمي لبيبه فماذا يكون حال أبي.. وعندما عدنا إلى البيت كان إخوتي سعاد وعبد العزيز ومحمد قد ناموا جميعاً في غرفة أمي لبيبه وكانت أم إبراهيم تستعد للعودة إلى بيتها بمجرد عودتنا.. وكان البيت خالياً من زوجة ثانية تأخذ دائماً الرجل بدلاً لها وطراوتها.. وهكذا البيت خالياً.. أين دلال أمي وطراوتها لماذا لا تجعل من هذه الليلة الخالية ليلة يحلف بها هذا الرجل.. وقلت لنفسي سأرى.. ماذا سيفعل كلاهما بالآخر هذه الليلة.

نمتُ حزيناُ أفكرُ في سميره ونام أبي في المندره منتظراً بعض الوقت حتى أنام ليأتي ويأخذ مني أمي كالعادة إنها أبداً لا تذهب إليه.. أهو كبرياء أم برود أم أنها لا تحب الرجال.. لا أعرف.. كالعادة لم أتم تعودت أن أسمع أبي وهو يدعو أمي.. وكيف يدعوها الرجل في شوق وهي تتمنع بل ترفض كما قال أبي.. وقلتُ في نفسي أن أمي سوف تبدع الليلة مع أبي إن البيت خال من المرأة الأخرى.. وكدت أنفجر من الضحك حين دخل أبي على أطراف أصابعه واضعاً كف يده على كف أمي في رقه وحنان ورجاء وقال في صوت خفيض :

- حميده .. حميده قومي الواد نام..

كانت ستغفو وتدخل في نومها العميق وعندما تدخل في نومها فإنها تشخر وكنت أنام على شخيرها بعمق وكنت أشعر بأمان الدنيا حولي عندما أسمع شخيرها.. تنبّهت لصوته فسكنت ولم ترد لكنه تابع :

- قومي تعال القاعة..

- أقوم أروح فين طول عمرك فايق.. عيب العيال كبرت..

- نهارك إسود ماعندكيش دم هو إنت مش مره..

- لأ عندي دم.. روح للي بتقولك ياخال.. روح للي بتبوسك
وتحضنك..

- كويس إنت بتغيري على.. قومي وتعال..

قعدت وهات يارص- شوف أنا مش زي لبييه .. أنا إتعتقدت
منك.. كام واحده بتقولك ياخال في البلد دي.. أنا عايزه أعرف
السر.

- يابت ماتبقيش خايه.. دي وراثه والحضن والبوس بتاع
لظيمه برئ.. دي زي أختي..

- إنت راجل بارد واخذ الدنيا بالعرض إتجوز واحدة تالته.. أنا
ماليش نفس منك بعد اللي شفته الليله..

- آخر مره بقولك تعال..

- مش جايه..

- الله يلعن أبوك.. الله يلعن تلوانه كلها..

- آه لو عرف حد من أهلي إنك بتشتمني..

- على جزمي..

- أهلي كلهم قضاه ومستشارين ناس كبار أوي..

- برضه على جزمتي..

- كتر خيرك روح بقه سييني.. أنا مش بتاع رجاله.. الواد
هايصحي..

وفي لحظة إنفعلت وصعبت على أمي وأزحت الفراش من فوق
في لحظة فارتبك أبي وزعقت أمي فيه :

- كده أهو الواد صحي..

وتلغثم أبي ورجع إلى الوراء خطوتين وفاجأه حسن قائلاً وهو
ينتحب :

- ليه يابه بتشتم أمي.. أمي غلبانه يابه.. هات لبيه يابه.. هات
لبيه يابه.. سيب أمي يابه.. علشان خاطري مالکش دعوه بيها..

- يالهوي يابني إنت بتعيط..

وانكفأ الرجل على حسن بعد أن تقدّم خطوات نحو فراشه
وراح يكي لبكاء ولده..

وأخذ يربت عليه وهو يقول :

- معلش يابني ساحني.. حَقَّك علىَّ مش هاشتم أمك تاني..
حتى شوف.. ورجع الرجل خطوتين وراح ييوس على رأس أم
حسن وهو يقول حَقَّك علىَّ يا حميده.. ساحوني.. خرج الرجل
باكيا من غرفة ولده ومشى إلى سور البيت ليتوضأ من الطلمبة بعد
أن مسح دموعه وصلي ركعتين ودعى الله أن يهديه ويطفئ لهيبه نحو
النساء.. وقال وهو ينعدل على الكنبه لينام كأنه يقنع نفسه بعدما

حدث.. يا إمّا أبحوز تاني أو أحسن أروح أجيب لبييه من بكره..
كل واحده منهم ليها عازه وبلاش وجع دماغ بعد كده مع حميده..
إتخذ الرجل قراره ثم نام.. وفي أذان الفجر ذهب إلى المسجد
وصلّى بعدها أخذته قدماه إلى طريق الترعه المؤدى إلى الكفر..
وهناك وجد بيتها مضاءً والأبواب مفتوحة له.. كانت لظيمه
ترتدي أحلى ثيابها وكان فراشها نظيفاً معطراً.. أخذته في حضنها
بعد أن قفلت بابها بإحكام وذهب الحاج معها في جماع وجماعين
وثلاثة حتى أذان الظهر.. وكان عليهما أن يتفقا وأن يتكلما في
ترتيب أمورهما فقالت له لظيمه :

- يا حاج هاتيحي اسكندرية كل أد إيه..

- كل شهر كويس..

- ياريت.. إوعى تنساني.. إوعى تنسيك لبييه إن ليك زوجة
إسمها لظيمه..

- هيّ لبييه بس وحميده..

- حميده مالهش فيك.. دي ست بتاع ولادها..

- إوعى يعجبك راجل من إسكندرية..

- مافيش راجل في اسكندرية يعمل تلاته في صبحيه وهوّ في
السن دى..

”رحيل وعوده بعدها الحقل”

رحلت القافلة بعد العصر وعاد الرجل إلى بيته بكرتونه الكتب.. وكان قد بقى بعض الأثاث من بيت لظيمه فوضعه الحاج فوق عربه كارو لتنقله إلى الحقل ولما رجع الرجل من الغيظ عند العشاء كان حريصاً أن يعرف ما نوع الكتب والمجلات التي أهدتها إليه سميره.. مجلات أزياء لنساء مانيكان وأخرى فيه وثالثة كتب عن الأدب والشعر والقصة أما الكثير منها دينيه وعدة مصاحف من كتاب الله..

وضع الرجل الثلاثة مصاحف في رف كتبه بالدولاب القديم مع كتب دينيه كثيره كان قد درسها في عامين قضاها في الأزهر وتذكر أيام دراسته في القاهرة عندما كان يسكن في حي الباطنيه قرب الجامع الأزهر، وكان رفيقه في الدراسة عبد الرازق عفيفي وهو قريب له ومن نفس القرية.. كان والده على أبو عافيه يملك من الأرض ما يزيد على ثلاثين فداناً وكان في حاجة لمن يكتب له حساباته وكان الرجل شغوفاً في أن يسمع القرآن كل يوم بصوت ابنه.. أخذ القرار وفي يوم سافر إلى القاهرة وفي غرفة حداد بالباطنية وأمام زميله عبد الرازق عفيفي دار الحوار :

- قوم يا حداد..

- على فين يابه..

- على البلد..

- والأزهر يابه..

- مش عايزينه كفايه كده..

وتدخل عبد الرازق - على فين ياخال على دا حداد شاطر..

- الأرض واسعة واخواته محمود ودردير مايعرفوش يكتبوا وأنا عايز واحد يمسك حساباتي ويقرا القرآن لي كل يوم..

وكشّر في وجه حداد وقال في صرامه :

- قوم يا حداد عبي هدمك وكتبك..

- يعني مافيش راجعه يابه..

- يابني كفايه كده.. أنا عايزك مع إخواتك هاجوزك وتعيش الدنيا أحسن من كده .. سكت حداد ويبدو أنه كان يريد أن يسمع أبيه أكثر خاصة عندما قال له أجوزك.. قام حداد وملاً قفه وبؤجه هدمومه وكتبه وقال :

- خلاص يابه سمعاً وطاعة..

حزن عبد الرازق لفراق زميله وقرينه حداد.. غادر حداد ليساعد والده.. غادرا الباطنية إلى محطة الرقاص عند نيل الساحل في حنطور إلى حيث تقع شنشور خلف قرية الخضره وهي إحدى المحطات الرئيسية للرقاص.. وبقي الشيخ عبد الرازق عفيفي يواصل دراسته الأزهرية حتى حصل على أعلى شهاده فيها وعمل في الاسكندرية مديراً لمعهد ديني وكان مشهوراً بعلمه فلما جاء الملك عبد العزيز في زياره لمصر عام ١٩٤٨ كان يريد أن ينشأ دار إفتاء في المملكة فأخذ معه مجموعة من علماء مصر ليكونوا نواه لتكوين دار الإفتاء السعودية.. سافر الشيخ عبد الرازق عفيفي إلى المملكة

ومعه مجموعة من النابغين خريجي الأزهر.. عاد بعضهم بعد ذلك ولم يتحمّل قسوة الحياة في السعودية وبقى الشيخ عبد الرازق عفيفي من المجموعة.. ظل هناك حتى توفي بها عام ١٩٩٥ وكان الشيخ هو الرجل الثاني في المنصب بعد رؤساء دار الإفتاء في المملكة وكان آخرهم الشيخ الباز..

سمعت هذه الحكاية منه عشرات المرات.. كان يحكيها بصوت الجمهوري الأخنف عندما كان يندم على تركه الأزهر وفي أخرى عندما تضيق به الحياة في أعمال الفلاحه بالقرية.. وكان في أنف أبي لحمة بسيطه وكان أخنفاً قليلاً.. ودمه خفيف فعندما يتكلم كأنه يقلد الأخنف..

تذكر أبي ما دار به في أيام صباه الأولى مع الأزهر وأبوه وعودته الى القرية وتذكرت أنا حكايته هذه الذي كان دائم الحديث عنها..

وضع الرجل الكتب الدينية والمصاحف في دولابه مع كتب الأزهر التي ما زالت باقيه.. وضعها وشعر بالتعب فلم يستطع أن يذهب إلى الحقل ونام بالكنبه قرب المغرب.. وراح حسن يخرج الكتب الأخرى والمجلات من الكرتونه ويرصها في شكل منظم في شباك المندره.. إنها له وسوف يتصفحها واحده بعد الأخرى.. لم يكن يستطيع أن يقرأ بعد.. لكنه أحب الصور التي في المجلات وكان للكتب القديمه رائحه فكان يشمها وبعد أن يشمها يحضن كتاباً بعد الآخر ويضعه في مكانه بشباك المندره.. إلا أنه بعد ذلك وضع بعض الكتب والمجلات علي المنضدة كأنه رجل كبير يزاوّل القراءة ويجلس حول المنضدة جالساً فوق مقعده الخيزراني ويتصفح وكان يقلد من

رآه منذ عام عندما آخذته أمه وهي تزور أسرتها في تلوانه وعرجت على عمها عبد القادر فوده في فيلته على شاطئ البحر الفرعوني للسلام عليه.. في هذه الزيارة كان عمها يتحدث معها وهو جالس إلى مكتبه يتصفح كتبه القانونية.. وكان عمها هذا يعمل مستشار إحدى محاكم الإستئناف بالقاهرة ومات الرجل قبل المعاش مات في عام ١٩٥٤.. لم ينسى حسن مشاهدة عم والدته وكم تمنى أن يكون رجلاً مهماً عندما يكبر ويجلس إلى مكتبه ويتصفح هذه المراجع الضخمة كما رأى عم أمه..

نعود إلى مساء ذلك اليوم الذي عاد فيه والد حسن من وداع السيدة لظيمه البدري وإبنتهما سميره.. حتى بعد أن قام من نومه كان جسده متعباً وتمنى أن يعاود النوم حتى الصباح.. لكن زوجته حميده جلست في مقابله وراحت توقظه..

- حداد قوم.. قوم يا حداد..

- سيبي أنام..

- طبعاً جاي مهدود.. بالله عليك رحت الفجرية تعمل إيه
لست دي..

وهو يتشاءب

- علشان أقعد معاها شوية..

- إوعه تكون فاكرني حماره..

- إنت أبداً دا إنت أم ولادي وغاليه عندي..

- أنا فعلاً أم ولادك بس خايفه عليك..

- إنفلج الرجل وقعد
 - من ايه خايفه..
 وفجرتها كالقنبله..
 - قوللي بصراحة إنت مرافق الست دي من زمان..
 وهو يكضم غيظه وغضبه..
 - فشارك إسود يا حميده.. دي زي أختي..
 - أمال إيه حكاية خال دي.. دي عاملها زي اللبانه في بقها..
 - إحترام مش أكثر..
 - وهي الست المحترمة تحضن راجل غريب عنها وتبوسه وأدام
 مراته..
 - الست دي طبعيه فيها شوية عبط وأنا من عادتي أسيب كل
 واحد على حاله..
 - بصراحة إنت راجل بتستهبل فيها أوي..
 - اللي عايزك تعرفيه أنا راجل خريج أزهر.. أقصد عرفت الدين
 شويه..
 - كل الشيوخ بيقلوا كده.. يبقه الواحد مرّبي دقنه ويعمل
 البدع من تحت لتحت..
 - طيب إنت عايزه إيه..
 - هاقول للبيهه..

- هاتعمل ايه لبييه يلعن أبوك وأبو لبييه..
- لبييه هاتكللك لو قلت لها اللي حصل..
- علشان تعرفي لبييه دي عندي ولا حاجة..
- ما تقدرش تستغنى عنها دي هي الأرنه اللي أول ما تمسكها
ترقد..

- إنت عايزه الجدد.. أنا راضي عنها علشان مطيعه..
- وأنت راضي عني أد إيه..
- مش راضي عنك..
- إسمع يا حداد إذا كنت باعملك أرنه باعملها غصب عني..
تعرف عشان إيه..

- عشان إيه..
- علشان أخلف عيال..
- مش كفايه كده..
- فيه ست بتعمل أرنه علشان بتحب جوزها.. وفيه ست
تعمل أرنه علشان تخلف..
- وانت ليه مابتحنيش..

- أحبك إزاي.. لما تخلي لبييه في أسبوع جوازي منك تنام معنا
في قوضه واحده.. إنت قتلت الحب في قلبي. ييقه أحبك إزاي من
غير قلب..

- ياتهار إسود إنت لسه فاكروه..
- عمري ما أنسى.. بس إنت إزّاي تخلّلي مراتك القديمه تنام مع الجديده في أسبوع دخلتها.. مين قالك تعمل كده..
- بصراحة هيّ الليّ أصرت على كده..
- ليه..
- علشان تشوفي معاك..
- تبقيه دي مجرمه.. وإنت مجرم أكثر منها..
- ممكن تكون دي غيره علّى..
- على فكرة أنا مش حماره.. إنت راجل حمار ومجرم كمان..
- ليك حق..
- عمر دا ما يحصل في بلدنا.. الليّ إنت عملته ده عين الجهل..
- طيب مانا فرقتكو تاني بقت كل واحده في قوضتها..
- والله.. ياخسارة عليك.. بعد ما قتلتني..
- إنت قلت لحد من أهلك على الكلام ده..
- لو قلت لحد من أهلي يشيلوك من عينيهم ومش هايقيه ليك قيمه عندهم..
- كتر خيرك يا حميده..
- لازم أستر عليك علشان إنت جوزي وأبو ولادي الليّ يعرك يعرّني..

- على فكره برضه إنت السبب في اللي عملته..

- إزاي..

- في أول ليلة كنت مكسوفة مني أوي.. وتاني ليلة برضه مكسوفه..

- وتالت ليله..

- شويه..

- جبت لبيه في رابع ليله..

- لما قلت إتحركي شويه وخليك خفيفه وحركه وقولي كلام زي اللي بتقوله لبيه.. ماقلتيش.

- هو إنت عايز واحده تعرف كل حاجة وتعمل لك زي وزى.. هو إنت مأجرني يا حداد.. عيك إنك جرى أوي.. على فكرة إنت راجل فاجر وأجرمت في حقي وعمري ما هاساحك..

- علشان كده جبت لبيه.. علشان أذك وأدبك..

- لا أدبتي ولا ذلتي.. إنت قتلت الحب في قلب ست.. وعلى فكره تلاقي كل الرجاله في بلدكم زيك كده.. بهام وحيوانات..

- لأ لأ.. في كل بلد فيها وفيها..

- يعني الأمر لله.. أنا ماليش غير ولادي..

- أفهم من كده مش هاتصلحي نفسك..

- حاول إنت تصلح وعازاك تعرف مش كل الستات زي بعض..

- إنت بتديني الأمل..

- الأمل إنك تقول يارب يمكن الحال المعوج يتعدل..

شعرتُ بأن رأسي ستنفجر من هول ما سمعت من أسرار بين أبي وأمي ورحت أفكر.. أفكر في غير هذا العالم الذي أعيش فيه.. إذا كان بيت أحد الموسرين في القرية به هذه المشاكل فما حال بيوت الفقراء.. كانت تدور رأسي بين ثلاثة بيوت.. بيت عمي دردير وزوجته منصوره وإبتاه سعيد وتحيه وابنه عبد المنعم.. وبيت عمي محمود وزوجته مجيده وأولاده سيد وعبد الرحمن وعادل ونبيله.. وكان له بنات أخريات متزوجات.. وبيتنا.. ولم أكن أعرف ما هي الحياة في بيت أعمامي وكنت أريد أن أعرف ولكنني في نفس الوقت كنت أريد أن لا أدخل بيوتًا مقفله.. بعد هذه الفترة من حياتي كنت طموحاً لأن أعرف ماذا في هذه الحقول الواسعة.. حقل أبي والحقول التي تمتد هنا وهناك والبحر والسواقي والترعه والزريه التي فيها تحلب النساء الجاموس والبقر وغرفة التبن وجرن القمح.. كان العالم واسعاً حولي كيف أستطيع استيعابه.. وكان أسوأ شئ في حياتي بعد هذه الفترة هي فترة المدرسة الابتدائية.. وكم كنت أكره مدرسيها وتلاميذها وفصولها وجدرافها.. ولولا التلميذ سعيد عامر الدسوقي وعلى مختار القطان وحسن جمال فوزي وجميعهم من الكفر هؤلاء الذين أحببتهم وأحببت التعامل معهم في الفصل وفي حوش المدرسة وكذلك ثلاثتهم كان نفس الشعور والإرتياح.. كانت علاقتي بالثلاثة علاقة تلاميذ مؤدبين مهذبين فعلاً من بيوت عرفت كيف تربي أبنائها.. وكنت أكره التلاميذ خاصة من عائلات أبو شاطيه وهاده وحتحوت والجمال وجنابات والبهى

وجبريل وأبو شنب والظيظي والظنيبي وأبو طنش وحنضل..
حاولت أن أقلع نفسي من كل هذا العالم ماستطعت وأنا صغير..
ومضى يومان كان أبي فيهما يفكر في أن يأتي بزوجه من بيت
أبيها، وكان يثق في حب إبنته سعاد لها وكأنه يريد أن يأتي بها بناءً
على طلب سعاد وعبد العزيز.. فبعد أن تناولنا العشاء في ليلة ونحن
جميعاً نجلس على حصيره في وسط الدار الداخلية قال أبي لسعاد :

- إنت كده مبسوطة بتنامي في السرير لوحدك..

- لأ يابه.. وسكتت..

فقال لعبد العزيز :

- وانت كده مبسوط كنت بتتناقر مع أمك لبيه..

- أنا عايزها تيجي علشان بتحكي لي حواديت..

- أنا أحكيلك..

- لأ هيَّ حواديتها أحسن..

- طيب قول لأمك كده.. قالها بخبث..

هزت أُمي رأسها وقالت :

- وليه اللف والدوران يا حاج.. روح هاتها..

- صحيح إنت عايزاها..

- إنت شايف إني مقصّره في شغل البيت.. البيت أحسن مما

كانت هنا..

- أجييها عشان سعاد وعبد العزيز..

- يا حاج روح هاتما إنت ماتقدرش تستغنى عنها.. هي كافوري
تحت الطلب..

- المهم تكوني راضيه..

- كويس والله إنك بتدور على رضاي..

- أنا عايز البيت كله بيقه مرضى..

- المهم شلة الغجر ماتجيش هنا تاني وإنت شفت بنفسك حسن
عمل إيه..

- المشكلة إن أهل أمي غلابة ومالهمش متوى غير هنا..

- غلابه بس غجر مش مؤدين..

- طيّب هدّى..

- حافظ على بيتك بقه بكفاية حذاشر سنه من التريقة والنقوزه
علّى في الريحه والجايه.. أنا استحملت كثير..

- والحل إيه.. هايقولوا مراته مشّت عليه..

- هايقولوا حسن كبر وحاش عن أمه..

- طيّب أحاول أرضيهم..

- إرضيهم برّه.. إديهم قمح ودره ودقيق.. إديهم فلوس هات
لهم لحمه..

- المشكلة إن كل ده بياخدوه.. القعده دي كانت زيادة..

- الزيادة دي خليها لولادك.. بقه عندك أربع عيال..

- الموضوع يكون علاجه شويه شويه..
- بقه لهم كام سنه واكليك..
- من يوم ما تجوزت لبييه وقبلها..
- كام سنه..
- أنا متجوز لبييه من ثلاثة وعشرين سنه..
- لو كان حد من إخوانك بيعحبك كان قالك بكفايه..
- دردير عايز بيتي يتخرب وعمره مصاحبهم وعايز بيتي فاضي
وبيته يبقه مليون..
- ومحمود..
- محمود بيكرهم وهَم بيكرهوه.
- أكيد نصحك في يوم..
- ياما قأللي.. بلاش الوسيه بكفاية.. بقه ليك ولاد..
- وترد عليه تقوله إيه..
- كنت بتجنبه..
- يبقه محمود بيعحبك يا حاج..
- المسأله دلوقتي لازم أنا أحب مصلحتي وراحة ولادي..
- في إيدك..

وساد الصمت بعدها.. ودخلت السيدة حميدة قاعة الغموس
لتدخل باق الطعام في أوعيته.. همس الحاج في أذن سعاد وعبد
العزیز :

- نَحْشُوا البسو الجزم علشان نروح..

وفي صوت واحد - نروج فين يابه..

- نجيب أمكم لبيه..

وفي صوت واحد - هيه.. أمي لبيه جايه..

سمعت أمي صوت إبنها سعاد وعبد العزیز فتداركت بأن إبتهاج
إبنها من كلام لزوجها، وقالت السيدة حميدة وهي تأخذ بقايا
الصحون من فوق الطبلية :

- ما هَمّ دول ولاد لبيه.. خَلَّيها تاخدمهم مش إنت اللّي عملت
كده..

- العيال بيحبوها خَلَّيها ماشيه زي ما هي ماشيه..

وهزّت السيدة رأسها وكأنها تنعي حَظّها :

- بكفاية علّي حسن ومحمد..

وضحك الرجل بصوت عالٍ هَزَّ أرجاء البيت..

- هَيّ متقسّمة..

- كل دا مايهمنيش.. بكره يكبروا ويعرفوا مين أمهم..

- كده عين العقل..

- عين العقل إنك تجيها على أساس..
- أساس إيه..
- غرزة يوم الخميس ماتحصلش تاني..
- لُما أجيبها هاعرفها كل ده..
- بكفاية خمسة وعشرين سنة كلوا عضمك..
- وأنا مش داري..
- إنت بتتريق..
- لا والله هاحاول أفوق..

سهر الحاج حداد حتى منتصف الليل مع أهل خاله وعاد ومعه لبيبه.. كان عبد العزيز قد أخذه النوم فحملته أمه لبيبه على كتفها حتى وصلوا البيت.. ونامت سعاد في حضن أمها وراحت لبيبه كعادتها تحكي لها حواديتها حتى نامت.. وكان الرجل قد اضطجع فوق كنبه ثانية بغرفتها ينتظرها وحتى تنام سعاد كما نام عبد العزيز.. بعدها أخذها في شوق إلى القاعة وعلى فرن القاعة الدافء ظلت معه حتى الصباح.. ولم يصلي هذا اليوم في المسجد كعادته كان قد راح في نوم عميق بعد مجهود مع زوجته المطيعه.. ولما طلعت الشمس كانت أم حسن في وسط الدار تخض القربه في بداية أعمالها المترلية كل يوم.. وكانت تسمع مبتسمة تخيط الكوز في الحله وتخيط الكرسي في الطشت.. كانت لبيبه حريصه على أن تحمي رجلها وتدعك كل جسده بالليفه.. خرجت لبيبه من القاعة

وتركت زوجها يرتدي ملابسه فوجدت ضُرَّها تخرج السمَّه من
فم القربه فقالت لها :

- صباح الخير يا حميده..

- يسعد صباحك يا لبيبه..

- قوليلي أعمل إيه..

- أكنسي الدار.. هاتيها من بره..

- فين المقشه..

- المقشات كتير عند السور..

- هانخبز النهارده..

- هانعمل فطير..

- يعني بعد كده أعجن الدقيق..

- أيوه.. ما تريحي النهارده إنت تعبانة الحاج تعبك طول الليل
وضحكت السيدة لبيبه ملاً فيها وقالت :

- وانت يا ختي خلّي بالك منه برضه بصراحة مابقتش قادره
عليه..

- إنت بتضحكي عليه يا لبيبه..

- لأ والله صدق..

- إنت ناعمة أوي.. إنت مبسوطه من كده.. أحلف لك بإيه
الكلام دا من ورا قلبك..

- ليه كده يا حميدة بتظلميني..
- طيّب يالّه أكنسي وبلاش مكر الضراير..
- أنا بحبك يا حميده..
- كمان.. إنت جايه حنّنه علىّ أوي.. إيه فيه إيه..
- خلّيني أكنس الأول واليوم طويل نقول كل حاجة..
- وخرج الرجل من القاعة وهو يسعل وفي نفس الوقت مبتهج القلب فقال لحميده..
- صّحي حسن..
- لسه شويه..
- طيب أنا رايح الغيط..
- إتاخرت النهارده أوي..
- راحت علىّ نومه..
- لأ.. عجبتك لبييه أوي الليلة..
- هاعملك إيه.. إعملي زّيه..
- روح الغيط أحسن..

أخذ الرجل حمارته من الزريه وخرج بها من البيت وعند باب السور إمتطى ظهرها قائلاً حا.. جاك وجع في اللّي يكرهك.. كان يحب حمارته ودائماً كان يقول لها هذه العبارة.. وعند دار الحاج

أمين إنعدل فوق حمارته وراح يقرأ القرآن بصوت مسموع.. وكلما
قابله فلاح عائد أو ذاهب إلى الغيط قال له:

- إتأخرت النهاردة يابه الحاج..

والفلاحات العائدات من حلب اللبن قالت واحدة بعد الأخرى:

- ناموستيك مالها النهارده ياخال الحاج..

وكان الرجل يرد بابتسامته المعهوده وضحكته التي توقظ الناس
على جانبي الطريق..

استيقظ النفر بعد الشمس على صوت نحيجه الحاج واستقبلته
كلابه كالعاده بصوتها المبحوح.. هيه هيه.. كان الرجل يريد أن
ينام بعد أن تناول الفطور مع النفر وشرب شايه.. دخل بعدها غرفه
التبن ونام وتغطى بعباءته السوداء وراح يشخر شخيره المعهود ونام
بالقرب منه كلبه قرطي..

"الشريك الرّزل"

في قريننا يطلقون على العامل الزراعي الذي يعمل بصفة دائمة عند صاحب الأرض كلمة الشَّرِيك.. وأحياناً.. النفر.. وكان يعمل لدينا في معظم شهور السنة نفران منهما، ومن الأعمال المعتادة بعد وقت الظهيرة يذهب أحد الأنفار لإحضار الغداء من البلده وفي ذهابه يحمّل الحماره نقله رتش إلى زريبة البلد ليفرشها في أرضية الحظيرة لتكون أرضيتها دائماً نظيفة من وسخ حمارة الحاج التي دائماً تبات في زريبة البيت مع الحاج في الرايحة والجاية..

كان شريكاً (نفرّاً) بارد ساقعاً يقولون عنه إنه بيتمحلّك.. يعني لكع عامل نفسه سيد شويه ومن دون العمال الذين عملوا عند الحاج يرتدي جزمه في قدميه على غير عادة الانفار في ذلك الوقت يمشون حفاة الأقدام سواء في الحقل أو في الذهاب إلى القرية والعودة منها.. إسمه الشحات وهو من عائلة الحاج ولكنه من أسرة فقيره.. عند باب البيت الخارجي باب السور سعل وتنحنح حتى ينبه أهل البيت أنه قادم وسيدخل بحمارته إلى داخل البيت حتى يصل إلى الزريبة ليرمي الرتش في أرضيتها ويفرشه فيها.. وعندما يدخل وأمامه الحماره محمله بغبيط الرتش يسعل ويتنحنح مرّة أخرى قبل أن يدخل من الباب الداخلي للبيت فيمسك الحماره من رقبتها حتى تقول له السيدة لبيه :

- أدخل الطريق وسع..

وكانت العادة في بيتنا أن أُمي لبيه هي التي تتعامل مع الأنفار.. أدخل يا شحات.. أخرج بّره إستنى لّما نجهز الغداء.. الحاج قالك

إيه.. تضع له الغداء في مقطف أو في طبق من الخوص أو في مشنة حسب طبيعة الأكل المرسل الى الغيط وتضعه له عند عتبه باب البيت الداخلي ليأخذه في يده ثم يمتطي حمارته خارج البيت من فوق حجر كبير وضع خارج باب السور.. وكان هذا النظام يعرفه كافة الأنفار الذين يعملون في غيط الحاج.. وكانت لبيبه هي التي تتعامل مع الأنفار فهي من البلدة وتعرف كيف تتعامل معهم بالشخط والنظر والتعليمات هكذا أفهمها زوجها زد على ذلك أنها ليست بالمرأة الجميلة التي قد تتعرض في بعض بيوت أصحاب الأرض لنظرات الأنفار قليلي الأدب أو البجحين.. وكانت السيدة يعرفها جميع الأنفار بأنها سيدة جادة شديدة تعطي الشريك على دماغه إذا تجاوز في أي شئ.. وكانت التعليمات لحميدة ألا تتعامل مع أي عامل من العاملين في الغيط.. فهي الجميلة صاحبة الجسد المثير الذي يكون مطمئناً لنظرات هؤلاء العمال حتى ولو كانت نظراتهم من تحت لتحت.. ولقد أعجبت حميدة بهذه التعليمات لأنها تحب في داخلها ألا تتعامل مع هذا الصنف من الناس وكانت كذلك في بيت أبيها لا تتعامل مع أنفار الغيط في شئ ولا يراها أحد إذا دخل أو خرج في بيت أبيها.. وكانت هي دائماً تدارى في الغرف الداخلية حتى يخرج النفر من زريبة البيت التي تكون عادة في آخر بيوت الفلاحين.. وكانت الشغالة أم ابراهيم شرفه تساعد في أعمال البيت مثل الكنس وخاصة كنس الممشى المؤدية الى باب البيت الداخلي والتي تبدأ من باب السور أو باب الترعه.. تحمي الفرن بأعواد الحطب أو القطن تولّع كانون الطبخ تحمل الحطب والقش من السطح وترصّه عند الفرن.. تقشّر الثوم وتنظف الكنيف.. تملأ المياه

في حلل الطبخ أو تحمل حلة الاستحمام من الكانون إلى مكان
الطشت في القاعة.. تقضي كل حاجيات البيت وتشتريها من البقال
والسوق.. تحمل اللبن الى ماكينة الخض وتعود به بعد خضه..
تقضي كل أعمالها المعروفة كل يوم ولما تنتهي من أي عمل تتوقع
في أي ركن تجلس فيه لتتظر ما تمليه عليه أي من سيدتي البيت..
وكانت دائما تحب الحكى عن إبنيتها حسنيه وعطيات وإبنها
شوقي وعبد شرف.. وعن الناس في حارة حسين حنضل وأم
الرزق الدييه.. حكايات عن الناس هنا وهناك وهذا ما يطيب
للسيدات سماعه فهي جلافة الأخبار صباح مساء.. وكان لها
قفشات ونكات وحكايات عن أهل حارتها يفطس سيدتا البيت من
الضحك.. وكان يطيب لهما أكثر عندما تذهب الى دار دردير أو
محمود لقضاء أي حاجة من عندهما.. كانت شديدة الإهتمام أن
تأتي بأي أخبار من عندهما وتسهب لتأ وعجناً فيما رأت هناك..
هكذا كانت تراعي وتجتهد في عملها تماماً لتحافظ على أكل عيشها
وكان ذلك يمشي في كافة بيوت أصحاب الأرض في القرية فإن لم
تكن الخادمة ناقلة أخبار وحكاية بل وخباصة فإنها ليست ذات قيمة
ومنفعة ويجب أن تكون هناك واحدة بدلاً منها.. وهذا ما كانت
ترغب فيه سيدات البيوت أصحاب الأرض لأن النساء فيها لا
يخرجن من البيت.. يقولون عنهن الناس محجبات وأحياناً محجوبات
معناها أن النساء في تلك البيوت لا يخرجن إلى الشارع أو السوق أو
يتعاملون مع عامة الناس.. فكن جميعهن في حاجة إلى شغاله تقوم
بنقل كل أخبار البلده بواسطه الشغاله الواعيه الصاحيه.. بمعنى نهائي
إن لم تكن الشغاله خباصه فليس لها أي لزوم. وكان للشغاله أجره

شهرية وتأكل وتشرب من طعام أهل البيت أو من بقايا طعام أهل البيت وفي آخر اليوم بعد العشاء تذهب إلى بيتها وهي تحمل بعض الطعام لأبنائها مما أجادت به سيدة البيت عليها..

حضر الشحات الى البيت ومعه نقله رتش وبعد أن فرشها هرول مسرعا الى الكنيف.. رآته لبيبه فاندھشت ليست هذه عادة الانفار أن يقضوا حاجتهم في كنيف البيت.. عندهم الغيط واسع ودورة مياه المسجد قريبة من البيت.. وضعت لبيبه إصبعها في فمها وكأنها تكلم نفسها :

- يعمل إيه ابن الكلب ده.. نهاره اسود..

ويبدو أنه لما أنهى ما في جوفه وجد أن ابريق الكنيف ليس به نقطة ماء فنادى قائلاً :

- يا أم إبراهيم.. شويه ميه.. وكرّرها..

ولم تكن أم ابراهيم في داخل البيت.. فزعقت لبيبه :

- بتعمل إيه يابن الكلب جوّه..

- معلش ياست لبيبه لحقت نفسي بالعافيه..

- آخر يوم في عمرك يا واطي يا ابن الواطي..

- معلش ياست لبيبه فين أم ابراهيم شويه ميه معلش أبوس إيدك..

- أم إبراهيم مش هنا يا ابن الوسخ.. إطلع بوسحك بسرعه
إجري.. أحسن الست لو شافتك هاتديك بالجزمه..

فتح باب الكنيف وجرى خارج البيت إلى دورة مياه المسجد..

كانت السيدة حميدة مشغولة بحسن في القاعة تدّعك له جسده
بالصابون وتضع فوق رأسه وجسده كيزان الماء الفاتر.. وكلّما
شعرت بأنه يتلذذ الإستحمام ويلعب بكف يده في الماء وينشل منه
ويرميه فوق رأس أمه كانت الأم تضحك لسعادة ولدها وتكرّر
دورة استحمامه وتنظيفه من جديد كأنها تلعب معه..

خرجت السيدة من القاعة فحكّت لها لبيبه عن نفر.. وأخذت
حميدة تضرب كفا بالأخرى وتقول :

- أهو دا اللي ناقص.. هو كده مالوش قُعاد.. تجاوز حدود
البيت..

- وهوّ فين..

- جرى للجامع..

- الحاج في الغيط..

- أيوه..

- لما يجي نقوله..

- تفتكري يعمل إيه فيه..

- هاعيشيه إلّا دي..

ولما دخلت أم إبراهيم وهي تحمل مقطفاً فوق رأسها به ما
اشترته من السوق.. عرفت الخبر من سيدتها لبيبه وسرحت وهي
تضع يدها تحت ذقنها وتجلس قرب الفرن.. غير أنها قالت بعد أن
إستمعت إلى كل ما جرى..

- على فكره هو عملها قبل كده.. كذا مره..

فانزعجت لبيبه وقالت :

- واحنا كنا فين..

- إنت كنت نايمه والست حميده قافله قوضتها عليها.

- ماقتلناش ليه..

- يعني هاكون السبب في قتله..

- برضه تقولي .. ليه تسكتي على حاجة زي دي..

- خلاص ياسيتي بصراحة الواد دا لكع من دون الإنفار اللي
شفتهم..

- شفت منه حاجة..

- كفاية عملة الكنيف دي..

- أهو ماجاش تلاقيه عمل فرار.. خدي الغدا إنت وودّيه
الغيط..

- حاضر..

حملت أم إبراهيم الغداء فوق رأسها وذهبت إلى الغيط وكانت
جد سعيدة لأنها ستخبر الحاج بما حصل من شحات، وكان من

عادة الحاج إذا أخبرته بشئ جديد نقدها قرش صاغ فتفرح
وتشتري به ما في نفسها لأبنائها من السوق.. حكّت للحاج كل
شئ.. فاستحلف له وقال :

- هو فين دلوقتي..

- ما اعرفش الست لبييه بتقول راح وجرى على الجامع..

- طيّب أنا عايزه..

- ما اقدرش عليه يا حاج..

- طيب رُوحي إنت وخدي القرش ده.. وأنا هاتصّرف.. قولي
لهم في البيت الحاج هابيرّيه..

- وانحنت فوق يد سيّدها وقبّلتها..

كضم غيظه وانتوى أن ينهره ويؤدبه بعد ذلك يطرده.. ونادى
النفر الثاني ويدعى رجب الشامي من مجيريه :

- يارجب..

كان رجب في المربط (مربط البهائم الخارجي) وكان الحاج
يجلس في مدخل الزريبه بعد أن فتح بابها.. دقيقة وقف رجب أمام
الحاج قائلاً :

- أيوه ياعم الحاج..

- ماشفتش شحات..

- مستخفي في الدرّه..

- جه من البلد..

- من شويه وباين عليه عمل حاجة وخايف ودخل الدرہ..
- هاتہ..

وهروول رجب الى داخل الغيط ليأتي بشحّات وكان الكلب سعيد يجري خلفه والكلبان قرطى وبرعي جلسا قرب الحاج ليتناولوا طعامهما الذي يلقيه صاحبهما أثناء تناوله الطعام.. لم تمضي دقائق إلا وكان شحّات يقف أمام الحاج وهو في حالة يُرثى لها كأنه يقول للأرض إنشقي وابلعيني.. أخذ الحاج ينظر إليه في قرف حتى إرتبك وقال وهو يهزُّ رأسه :

- يعني إنت صاحب البيت أو أخويا ولاّ يمكن خلفتك ومادريتش..

- غصب عني والله.. معلش سامحني..

- ياه واحد في منتهى الجراءه والسماجه واللکاعه.. عرفت إئتک بتعملها على طول..

- أبداً دي أول مره..

- إنت كُذاب ابن كُذاب .. قولّي إنت عايز إيه.. عايز تنحك في النسوان..

- لأ والله أنا ناديت لأم إبراهيم..

- وبعدين ناديت للبيه.. يا ابن الكلب.. هي أمك زانيه أكيد إنت ابن حرام.. مايعملش كده غير ابن الحرام..

- إشتمنى إضربني كل حاجة تعملها فيّه أنا غلطان..

- أخويا ما يعملش كده.. وبعدين إنت شايف إن لبييه بعد
الخدومه أو الخدامه التانيه.. لبييه دي بنت خالي الراجل اللي كان
طول عمره صالح..

لبييه دي مراقي.. ولما ناديتها عملت لك إيه..

- قالت لي إطلع يابن الجزمه ياوسخ إطلع بوسخك على بّره..

- يعني إنت كنت تتصوّر إنها هاتجيب لك الميّه لغاية الكنيف..

- أنا غلطان يابه الحاج.. إعمل اللي إنت عايزه فيه..

وقام الحاج نصف قومه وبصق في وجهه فمسح البصقه بيديه
وقال لرجب :

- خده وفي عود الزنزل (شجرة) كتّفه.. علشان هاخلّيه عبّرة
للملأه كلها تتفرّج عليه..

وانحنى الشحات أمام سيده وقال في خضوع :

- أنا عن نفسي هاروح أحضن عود الزنزل ورجب ييجي
يربطني بالحبل.. علشان أنا فعلاً غلطت ..

.. ولم يكن هناك أحد بالملأه يستطيع أن يقول للحاج ماذا تعمل
أو يمنعه ورأى أخوه دردير من بعيد أن هناك رجلاً يتم ربطه في
الشجرة فجاء مندهشاً.. وقال لرجب :

- فيه إيه..

- مش عارف الحاج قال لي كده..

- عملت إيه يا شحات..

- حوش عني يابه الحاج..

- عملت إيه..

- عملت وما عملتش يابه الحاج..

وكان محمود يتابع من بعيد وهو يقف عند شجرة التوت الكبيرة
فلما رأى حداد يتقدم نحو الشجرة المربوط فيها الرجل ويمسك بيده
خيرزانه.. هرول محمود واقترب من حداد وهمس في أذنه :

- فيه إيه ..

.. حكى له حداد في صوت هامس ما فعله النفر..

فقال محمود :

- دا يموت مش ينضرب..

- طيب نموته..

- بعد إيه.. بعد ما فضحت الدنيا دا كان يموت من سُكات..

- ياريتني قلت لك قبل ما أربطه..

- خلاص إديله العلكة التمام إجلده ولما تتعب أكمل أنا..

.. ونزل الحاج حداد على كل مكان في ظهره يضربه بقسوه
وأخذت اليته نصيباً كبيراً من الضرب المبرح وراح الشحات يجأر
فالتف الناس من الغيطان والدور المجاوره يتفرجون وجميعهم عرف
بالحكايه وجميعهم ايضاً قالوا يستاهل.. واد لكع.. يتمحك في كل
نسوان الغيط بارد مخبول لازم يتربي..

- ظل شحات يجأر حتى سكت من شدة الألم حتى تقطعت
أنفاسه ولم يعد يستطيع أن يجأر.. فقال دردير :

- كفاه فكه يا رجب ..

هَزَّ حداد رأسه وقال لمحمود :

- مش كفاه..

- كفاه بس مشيه دا مالوش عيش هنا خالص..

- هو دا اللي هاحصل..

.. حملة رجب وآخرين إلى الظل خلف غرفة التبغ وراح مع
الآخرين يدهنون ظهره الدامي بطين من التربة بعدها ذهب في نوم
وهوئن.. واستطاع أن يفيق قبل المغرب.. ونادى الحاج رجب
ونقده حسابه ليعطيه له وقال لرجب :

- قوله مانشوفش وشه هنا تاني.. وأدأمه بالكثير أسبوع ويمشي
من البلد كلها وقال رجب في رجاء "

- معلش ياعم الحاج.. حكاية يمشي من البلد دي صعبه..
معلش.. وانحنى رجب على يد الحاج ليقبلها..

شد الحاج يده منه وقال :

- يروح مصر.. جمال عبد الناصر فتح مصانع بياخد فيها كل
الناس..

- ها قوله ياعم الحاج..

”حسن يعاتب أمه“

بعد أن تدارك حسن حال البيت وموقف أمه الصارم من أبيه وكيف أن والده يحب لبيبه ودائماً يلقي بنفسه بين أحضانها.. فقال ولماذا لا تكون أُمِّي حبيبته وأُم العيال في نفس الوقت.. فبعد عشاء أحد الأيام ذهب والده إلى دكان عبده أبو سعده ودخلت لبيبه لتنام ومعها سعاد وعبد العزيز وتم ترقية محمد الصغير بناءً على رجاء حسن لأُمه بأن تضع له دكه خشبيه صغيره في ركن خلف سريره وتفرش فوقها لحافاً قديماً أو حراماً (مثل البطانية) في هذا الزمن لم يكن في البيوت بطاطين ولكن ألحفه وأحرمه.. ويبدو أن محمد قد سعد بذلك لأنه سمع رجاء حسن لأُمه وكان وقتها يبلغ عامه الثاني.. ففي يوم مبيته الأول فوق تلك الكنبه إبتسم لحسن واحتضنه وقال في تلثم :

— أحبك يا حسن..

فقال له حسن :

— كده يا حبيبي إتقسمت صح.. سعاد وعبد العزيز مع أمهم..

وأنا وإنت مع أمنا..

ضحك محمد وبس ولكن هل فهم.. إنه ابن عامان المهم أنه ضحك..

في الليلة الأولى لمبيت الصغير محمد معهما في تلك الغرفة شعر حسن بشئ من الإطمئنان وأنه يستطيع أن يفعل أشياء أخرى تصلح من بيت أبيه.. وكان شغله الشاغل منذ وقت أن يفتح أمه في رقه

وأدب.. لماذا لا تكون رقيقه مثل لبيبه.. لماذا لا تكون له طيبه ليّنه..
لا تكون له ست..

.. ذهب محمد في النوم وغطاه حسن بعناية وعند قدم أمه الممتده
على الكنبه قعد حسن فقالت له أمه :

- قوم في سريرك..

- مش جايلي نوم..

- أقعد في سريرك..

- أنا عايز أتكلّم معاك يامّه..

- عايز ايه..

- عايزك تبقى زي لبيبه..

- يابني إنت مش عارف حاجة..

- عايز أعرف..

- دي حكاية طويله..

- علشان خاطري إحكيها..

- دي حكاية واحده من كتير..

- عَرَفِينِي حكاية حكاية..

- طيب.. لكنّها سكنت..

- سامعك يامّه..

.. كان سنّك سنتين وفي ليلة من الليالي سمعت صوت عال في قوضه لبيبه وكانت القوضه مقفوله.. قرّبت من الباب سمعت صوت ثاني عرفت إنه صوت نجيب أخوها يقول لأبوك وكأنه يأمره :

- إنت غيّرت إتفاقنا دلوقتي عندك سعاد وحسن.. أكرشها بقه..

- بس علشان الولاد..

- لأ يا حاج حداد دي تروح دار أبوها وكفايه عليك دولت..

- الولد لسه صغير..

- تاخده معاها ولّما يكبر شويه نجيبه..

- ودا كله عشان إيه يا نجيب..

- علشان أختي ترتاح..

- هيّ شكت لك..

- طبعاً قالت لي كل حاجة..

- صحيح يا لبيبه..

- ماترعلش يا حاج.. أنا ها أربي الأولاد أحسن تربية..

- طيّب إنت دلوقتي سعاد خدت عليك والواد ها ياخذ عليك..

- بالحنان يا حاج ماتخافش عليه..

- بس كده أبقه مفتري..

- أبداً كل الناس بتعمل كده والبيت ما يسعش غير ست
واحدہ وانت بتحب أختي وچالك الولاد عايز إيه تاني..

- ياه دا إنت خلصت الموضوع يا نجيب..

- وبعدين دي غريبه ومش من بلدنا.. بكفايه عليها كده وليه
تاكل من خير بلدنا..

- على فكره هَي من بيت وأبوها راجل معاه بدل الجنيه ألف..
أروج راجل في تلوانه أحمد فوده..

- يا سيدي يلعن أبوها على أبو تلوانه كلها..

- طيب حاسب شويه يا نجيب..

- لأ مش ها حاسب هو الجدل يزعل..

- بس دا مش ظلم..

- أبداً.. كل الناس بتعمل كده..

- اشوف..

- والله لو ما عملت كده بالكثير بكرة هاقطعك..

- مش فاهم إزاي..

- تقاوي البطاطس مش هاجيها لك.. زراعه البطاطس أنا
أشطر واحد في البلد بيزرع بطاطس أرضك كلها مش هاوليها.. أنا
خايف عليك وعلى أرضك هاسييك تغرق ييقه لا طلت غيط ولا
بيت..

- إنت بتهددني يا نجيب..

- دي في الأول والآخر أختي وإحنا خدّامينك طول العمر
علشان خاطر أختي.. هي دي الحكاياه..

- يعني أنا هامشي بكلامك..

- إنت حر هو دا كلامي.. وإنت في الأول والآخر ابن عمّتنا
عايزين مصلحتك وأختي هاتربي ولادك.. وإنت بتحبها.. أختي نعم
الزوجة ليك.. عايز إيه تاني..

.. وتاه الرجل وشعر بأن كلام نجيب من ناحية واقعي ومن
الناحية الأخرى فيه ظلم لحميده وإزّاي ولادها هايعيشوا بدون أمهم
الحقيقية.. وراح الرجل يفكر.. بعدها انصرف نجيب.. ولما سمعت
يابني كل الحكاياه رجعت قوضتي وبعدين دخلت المندره وقعدت
أعيط.. كان سنك ساعتها سنتين ونص عيطت في سريرك خدتك
ورحت أطبطب عليك وقعدت في المندره تاني وإنت في حجري
وقعدت تعيط تاني وأنا أعيط..

- وبعدين يأمه..

- نمت في حجري.. خدتك في سريرك ونمت جنبك..

- وبعدين..

- بعد شويه قمت نمت على الكنبه..

- هيه..

- جه صحاني وقالي تعالى ورايا القاعة النوم خدني ومارحتش
القاعة..

- أيوه وبعدين..

- جالي وزغدني في رجلي ومُره واحده زعق وقال :
.. أقسم بالله مش هاصبر عليك وماليك عيشه عندي والله إن
قعدت فيها تاني..

طبعاً إنفلجت وطفقت قائله :

- إنت بتتلكك.. إنت راجل مفتري جاي مزقوق على.. ربنا
قال الرحمه..

- على بيت أبوك من بكره..

- زي ما انت عايز..

.. وانصرف إلى لبيبه وهو يدعى على وشعرت بهما وهما
يدخلان القاعة وبعد وقت سمعت ضحكتهما المعهوده وكأنها
تغيظني.. نمت يابني وحملت أموري على الله..

- والصبح حصل إيه..

- كالعادة جاعني اللبن من مكنة الخض وحطيته في القربه بعد ما
فضّتها.. عملت السمنه والجبنه بعد ما صليت.. وجت أم ابراهيم
بعد الشمس قعدت أدام الفرن تحمي علشان أخبز.. ظهرت لبيبه
وصبحت على من مناخيرها.. قعدت أدام الكانون تسخن ميه
علشان تحمي أبوك.. وسكت..

- وبعدين يامه..

- لبيبه جابت له الفطار وقعد يفطر على باب القاعة بعدها
جابت الحمارة من الزريه وقال وهو يسحبها إلى الخارج :

- النهارده هابعت لأبوك ياخذك..

- إعمل اللي إنت عايزه..

وكانت لبييه جد مبسوطه وفي الرايحه والجايه في وسط الدار
تغنّي أغنيات تغنيها البلاد وقت الأفراح.. كانت فرحه وبلا خجل
في غناها وقلت .. قلبها جامد أوي من كلام ليلة إمبراح طيب
أصبري يا حميده أمّا أشوف آخرتها إيه.. وكانت أم إبراهيم شرفه
تتعجّب وتنظر إلى وإليها لأنها مندبجه في الغنا..

وهزّت أم إبراهيم رأسها وضحكت بصوت خفيض وقالت
للبييه :

- صلاة النبي يا أم إبراهيم مالك فرحانه أوي النهارده..

- وليه مافرحتش بقه لي كثير متنكده..

- إفرحي ما حدش حايشك..

وكانت لبييه تُدعي أحياناً أم إبراهيم.. كان ولدها ابراهيم الذي
عاش أربعة شهور قد شعرت بغلاوته وأحسّت به ولما مات مثل
بقية أخوته دعاها الناس بهذا الإسم..

- وبعدين يأمه..

- جه أبوك من الغيط.. جاب الباميه والباذنجان والخيار
وحاجات كتير عايزها من الغيط.. وكعاداته أحضر بنفسه طبق
العسل الأسود وخلط به قطعة زبده وراح يأكل خلقي من العيش
السخن الذي أخرجه أول بأول من الفرن..

وكانت أم إبراهيم لها دم خفيف وأحياناً تهزّر مع أبوك بالكلام..
قالت له وهو يأكل:

- أنت بتحب عيش أم حسن..

- ما هي لبييه اللي عاجناه..

- لبييه النهارده ماعجنتش يا حاج.. أنا اللي عجنت..

- بطلي عجن يا أم ابراهيم.. أنا عارف إنت مئاله حميده..

- الست دي نورّت بلدنا..

- بطلي عجن جتك الغم .

.. أبوك قام وغسل إيداه وسحب حمارته مرة أخرى إلى الخارج
وقال لي :

- أبوك جاي الليلة..

- علشان..

- يشوف صرفه فيك..

- القوى عليه ربنا..

خرج أبوك ومازالت لبييه ريحه جايه تغني وأم ابراهيم تكاد
دموعها تغطي وجهها لما سمعت لغة تهديد أبوك ليّ وشعرت أن في
الأمر شيء وزاد بكائها.. لم أكن أستطيع أن أمسك نفسي وراحت
الدموع تنساب من عيني بغزاره.. ياترى إيه اللي هايحصل الليلة لأن
كلام نجيب سمعته كله ياترى إيه اللي هايحصل :

- وبعدين..

- أبوك راح لمختار حجازي كان بيشتغل عندنا وعارف بيتنا
في تلوانه..

- ليه..

- قاله روح تلوانه للحاج أحمد وقوله الحاج حداد عايزك
ضروري الليله..

- عرفت منين..

- عرفت الحكايه كلها بعدين..

بعدها أبوك راح للحاج حسين وهو ابن أخته ودعاه لحضور
الجلسه بالليل.. وكان الحاج حسين يوافق على كلام خاله وعشان
كده دعاه.. وراح لأخوه دردير علشان يحضر..

- ومحمود..

- محمود ها بيَوظ الجلسه ومش ها يوافق على كلام حداد وها
يفشله.. وطبعاً يابني محمود بيكره الدراوشه على طول الخط..

- يعني جاب الناس اللي على أد كلامه..

- الحكايه طويله أوي يابني.. بكفايه علشان تنام..

- مش هانام كملي يامه..

- طيب إمسح دموعك وبطل عياط..

- طيب قولي..

جاءني أبي ومعه عبد العظيم الحر.. كل منهما يركب حمارته..
جلسا في المندره قدّمت أم إبراهيم لهما الواجب من شاي ثم

برتقال.. دخلت سلّمت على أبويا وعلى عبد العظيم وخرجت.. ثم دخلت مرّه ثانيه جلست بجوار أبي وسألت عن أمي وأهلي بتلوانه وكان الرجل يرد باختصار وكأنه يشعر أن في الأمر شيء وهزّ رأسه قليلاً وقال هامساً ناحيتي :

- حداد عايزني ليه..

- باين هُو وأهل مراته متفقين على حاجة..

- زي إيه..

- يمشوني من هنا وياخدوا ولادي مّني..

- هّي دي الفوله.. ياخساره على الدنيا.. طيب هُوّ ماسك عليك حاجه..

- تلكيكه يابه..

- زي إيه..

- مكسوفه يابه ما قدرش أتكلّم..

- مقصّره في حقه..

- إنت هاتسمع كلامه..

وكان أبوك في دكان عبده أبو سعده جه بعد شويه.. خرجت وقفلت الباب.. الباب الوسطاني اللي يفتح على المندره.. وارت الباب قليلاً حتى أسمع.. وبعد التحيات والسلامات جاء الحاج حسين والحاج دردير.. يابني باختصار أبويا قال :

- خير يا حداد..

- يا حاج أحمد.. بنتك مغلباني..
- فسّر.. بنتي عملت حاجة وحشه..
- هَيَّ لَمَّا تقصّر في واجبي ييقه دي حاجه حلوه..
- ما قدرتش تعالج الموضوع بينك وبينها..
- لأن إنت عاجله.. خد بنتك أنا مش عايزها..
- عايز تطلقها يعني..
- بعدين نشوف الموضوع ده..
- يعني كنت عايزها تحلّفلك وبعدين ترميها زي ما ناس كثير بتعمل..
- أبداً الموضوع إنها مقصّره في حقّي وبتعصاني..
- في كل الأحوال هاخد بنتي والولد لسه صغير محتاجها..
- خد الولد معاها..
- والبنت..
- البنت دي تستحمل وهَيَّ مع لبييه على طول..
- طيّب أنا الصبح هاجي أخذها..
- لأ دلوقتي..
- الدنيا ليل وبتمطر وأنا جاي والطريق ضالّه لو الحماره عترت في السكه هايقع الولد وأمه..
- علىّ الطلاق منها الليله تمشي وما تبات فيها..

- ياه أد كده الكرم وأد كده الأخلاق.. ماكنتش كده
ياحداد..

.. مين نزع من قلبك الرحمة.. ياخساره بنقول إحنا مناسبين
أطيب راجل في شنشور..

- كل حاجة ليها سبب يابه أحمد..

- يعني إنت حكمت علينا لازم ناخذها معانا في الضلمه والمطره
دي.. إيه رأيك يا حاج دردير إيه رأيك يا حاج حسين..

ضرب حسين كفاً بالأخرى وقال :

- هُو دا كلام خالي ما اقدرش أعارضه.

- وانت يا دردير..

- أنا.. أنا .. بلاش يا حداد تبقه رُد اليمين..

أبوك رفع إيده وقال :

- أنا حلفت وخلص..

والحق دردير راح يعييط زي العيّل الصغِير وطلع مشي بعدها..
وحسين سلّم ومشى رجّاله ورق.. أهى رجّاله ورق.. أهى رجّاله
وخلص..

- أد كده أبويا كان قاسي..

- للأسف أهله علّموه كده.. لكن هُو أصله مش كده..

- وبعدين يأمّه روتوا إزاي في الضلمه والمطره..

- دي حكاية طويله.. نام دلوقتي..

.. وفي الصباح كان قلبي يحمل غضباً نحو أبي وبدأت أبتعد عن زوجة أبي وبدأت أنظر إليها في غيظ، وكنت أتركها تحتضني وتقبّلني وبدأت أدفعها وأداري وجهي عن قبلاتها وأبتعد عن وجهها ورأسها.. وكانت تقول لي ولأمي :

- هو فيه إيه.. حسن إتغير.. فيه إيه حبيبي.

وكنت أهزّ رأسي وأغرب عنها وأبتعد عن المكان الذي تقعد فيه..

وكانت عادات الصباح بينها وبين أبي.. هي في القاعة معه تحمّيه وتدعك ظهره وجسده بالليف والصابون وضحكاتها الرنّانة تجلجل في القاعة ويبدو أنها كانت تزيد منها لإغاظة أمي.. وقرب الفرن الذي يقع على شمال القاعة تقعد أمي على كرسي خشبي صغير وتخض القربه.. كانت أمي تعمل في صمت ولكن كان رأسها يحمل من الحزن الكثير.. وكنت أراها تبكي دون صوت وتمسح دموعها وكنت التصق بها وأقف بجوارها وهي تخض القربه وأضع رأسي فوق رأسها وأربت على كتفها بيدي وأقول :

- ماترعليش.. ماتعيطيش..

- لأ يابني أنا كويسه..

- إنت حاسه بإيه.. إنت زعلانه..

- بيغيطوني يابني.. والراجل مش عادل..

- وانت زعلانه أوي من إيه بالضبط..

- مافيش يا حسن..
- طيب خدي حقك يأمه.. حميه واضحكي زيها..
- ليه يا حسن الكسوف ده.. يابني أنا مش بتاع كده وعمري ما عمل كده..
- عمري ما دخل في سباق معاها عليه..
- ليه.. مش حقك..
- برضه ماعملش كده.. أنا ست محترمه..
- طيب ماتعيطيش وماتزعليش..
- أنا بازعل بس من تصرفات الناس..
- علشان ضحكها..
- هي بتضحك كثير مخصوص بالشكل ده عشان تغيظني..
- ما هو لتعملي زيها.. أو ما تزعليش..
- يعني إللي بيقهري الفعل..
- طيب ماتشيليش في نفسك.. أتركيها لله..
- ياله أفطرك.. أدخل القوضه وأنا جايه لك..
- .. كانت أمني تطعمني طعاماً خاصاً.. خلاصة ما في البيت من زبده وبيض وكبداه الأوز والبط والدجاج.. وكانت تطبخ للبيت وللأنفار في الغيط طعاماً خاصاً بهم وأنا طعام خاص بي أكله وحدي وكان إخوتي يأكلون من طعام الأنفار مع زوجة أبي ولم

يكن أحد من سعاد وعبدالعزیز یلاحظون ذلك لأنهم كانوا صغاراً..
أما محمد أخي الصغير كان يبلغ من العمر عامان فهو يأكل طعام
الأطفال.. وكان أبي يعرف أن أمي تطعمني طعاماً خاصاً وكان
راضياً على ذلك، وكانت زوجة أبي تعرف ولكنها لا تستطيع أن
تبدي أي اعتراض لأن أبي موافق على ذلك، ولكنها كانت تقول
مع نفسها في غرفتها أمام سعاد وعبد العزیز :

حكّم بأولاده عليكم غلابه.. إنتو ولاد الجاموسه وحسن ابن
البقرة..

وكان الأطفال لا يفهمون أي معنى لما تقوله.. وكانت أمي تضع
لي الطعام على منضده بالمندرة وتركني أأكل وحدي قائلة :

- كُل ما تخليش حاجة.. كل قبل ما حد يجي..

ثم تخرج وتقف على باب المندرة بالمفتاح وأحياناً كان المفتاح لا
يقفل الباب لعيب في الكالون فكانت تقفل على الباب وتقعده أمامه
حتى أنتهي من طعامي.. وكان أبي يرى هذا ويعرف أنني بالداخل
أتناول طعامي فيضحك أو يتسهم ويداعب أمي قائلاً:

- هو حسن جوه..

- أيوه..

ويطلق الرجل ضحكته مره ثانية ويقول :

- ياريتني كنت حسن..

وتهز أمي رأسها وترد عليه قائلة :

- شفته بعد مرار.. لما تبقه أدّه هاعملك زيّه..

- طيب يا حميده حتى في الرّد ناشفه (كان يقولها بصوت عال وأخنف ولا أخفي أن أبي كان خفيف الظل رغم قسوته على أمي.. ولكن المشكلة كانت أنه لم يكن يعرف كيف يتعامل معها خاصة في أول أيام زواجه بها فتعقدت أمي من طريقة معاملته خاصة لما جعل زوجته الأولى تنام في نفس غرفة أمي في أول أيام الزواج.. إنه بذلك قتل الحب في قلبها ولما سألتها لماذا قال لها إنها هي التي طلبت ذلك اكثر وتأكدت من أنه لا فائده منه وأنه يعيش تحت تأثير زوجته ولما استمعت الى اهلها معه أيقنت أن أهل زوجته أيضاً لهم تأثير عليه لدرجة أنهم يريدون التدخل الكامل في كل حياته)..

بعد ذلك كان كل هم أمي كيف تحافظ على أولادها خاصة حسن وكيف تستطيع بالصبر والتدبير أن تسيطر على البيت إدارياً ومالياً لما وجدت أن زوجها مهمل في التصرفات الماليه وأنه غير مواظب على زراعة أرضه بشكل جيد خاصة أنها تعلمت كيف تدار البيوت من الداخل من أمها السيدة شلبيه الشيخ وتعلمت كيف أن والدها يزرع أرضه بدرجة ممتازة ويقوم بفلاحة وتربية حيواناته بشكل جعله مشهوراً في الناحية كلها بأنه أفضل الفلاحين في زراعة ارضه بكل أنواع المحاصيل وأن الفدان الواحد يساوي ثلاثة أفدنه عند فلاح متوسط الفلاحه، وكان أبوها أيضاً أشطر المزارعين في مركز الباجور كله في تربية المواشي اللبن والعلف.. وكانت تقول لأبي دائماً :

- مش بكثره الأرض يا حداد.. راعي الأرض.. شوف أبويا الفدان عنده بيحيب كام فيرد أبي بلا مبالاه :

- بقولك إيه تعالى إنت روجي الغيط بدالي.. (كان يقولها
بتريقه فتسكت أُمي ولكنها كانت دائماً تفكر في حل..

كان أبي في هذا الوقت يعطي أهل زوجته بسخاء.. قمح وذره
ونخضار وعنب هذا غير الفلوس.. والحق يُقال أنه يجب مساعدته
أقاربي بالقدر الذي لا يضر بيتي ولكني بهذا الشكل الذي بدأ يؤثر
على بيت أبي لا يجوز.. هكذا رأت أُمي ولكن كيف تستطيع أن
تجعل هذه المساعدات بشكل لا يضر بيتها.. هل تنتظر لَمَّا يكبر
حسن ويمسك كل شيء.. إذا إنتظرت هاتكون خربت.. وراحت
تفكر كيف وطالت بها الإجابة حتى وصلت إلى عدة حلول..

“الليلة المظلمة وموت أم الرزق”

كنت أعرف أن أيام المدرسة تقترب وكنت أكره أن تأتي لما لقيته من ألم في عام الدراسة الأول.. ولما مرّت الأيام رتيبه كنت أصّر من يوم آخر أن تحكي لي ما حدث في تلك الليلة الممطره.. ولكن أُمِّي كانت تؤجّل لما لها أثر حزين وسئ على نفسيّتها.. وفي صباح أحد الأيام دخل بيتنا طفله من عمري ولما دخلت من الباب الكبير الذي كان مفتوحاً هرولت إلى غرفة أُمِّي لبيبه دون أن تقول لي شيء حيث كنت جالساً على المصطبة بجوار صومعة القمح وكانت أُمِّي بالداخل تقضي أعمال البيت.. وفجأة بمجرد أن دخلت الطفله الغرفة سمعت صوتاً عالياً صراخاً من أُمِّي لبيبه :

- عمّتي ياروح قلبي يا حبيبتي.. ماتت إمتي.. وصرخت مرّه ثانية صرختين أشد وأعلى.. وهرولت أُمِّي إلى غرفتها ودفعت بابها قائلة:
- فيه إيه يا لبيبه..

- عمّتي .. عمّتي أم الرزق ماتت.. وهي تضرب بكلتا يديها على صدرها..

فدخلت إليها أُمِّي وأمسكت بكفي يديها وقالت :

- إستغفري الله إهدى ماتضربيش صدرك..

- أعمل إيه .. يا شردي يا حزني.. يا خراب بيتي من بعدك..

وكان سعاد وعبدالعزیز مشدوهين لما يروه لأول مره.. إرتدت ملابسها بسرعة واسرعت خارج البيت وهي تولول.. ياويلك يا خراب بيتك يا لبيبه.. والطفله التي اخبرتها تجري خلفها..

- .. أمسكت بذراع أمي ثم تناولت كفها في يدي وقبّلتها فقالت :
- ليه يا حسن..
- ماتت الأفعى..
- لأ يا حسن دي ماتت خلاص ماتقولش كده..
- أد إيه أنا مرتاح..
- ليه يا حسن دي خالة أبوك برضه..
- خالة أبويا بس بتكره أمي..
- علشان كده إنت فرحان..
- طبعاً فرحان.. أنا هاروح..
- تروح فين..
- أروح أشوفها..
- لأ تشوف إيه مالك..
- يأمه هاروح أشوفها وهي طالعه وأتأكد إنها مشيت فعلاً..
- هاتتوه.. روح معايا بعد الظهر وأنا رايحه أعزي..
- لأ.. معلش علشان خاطري.. لازم أروح.. لازم أتأكد بنفسي..
- هاتعرف تروح وتيجي..
- ماتخافيش.. هي بيتها جنب بيت عبده..
- يمكن تكون مش في بيتها هاتلاقيها في بيت عبده..

- خلاص أروح بيت عبده وأسأل..

- بعدما جوزها مات قعدت في بيت عبده..

وأمسكت أُمي بذراعي حتى الباب الخارجي للبيت وهي تصف لي بيت عبده قائلة:

- إنت عارف بيت أبوك دردير وراه على طول بيت عبده..

- خلاص خلاص..

- اتأكد وارجع على طول..

- لُما تطلع أدامي رايحه الثرب هاجي..

ولأول مره في حياتي أجرى بهذه السرعة.. كم كنت فرحاً بموتها.. مات الشاب الأزرق الذي كان يكره أُمي ويكيد لها المكائد.. وهذه أول ضربه من الله لزوجة أبي..

في هذا الوقت من الزمان كانت العادة في قريتي يدقون الطبل للميت.. طبل الإعلان عن الموت أمام باب الميت يقف الطبال يدق بالعصا طبلته الكبيره والتي علقها في رقبتة بجبلين وتتدلى الطبله حتى آخر بطنه وهو يضرب بخيرزانه قطعها نصفين وفي كل يد فرع منها ويظل يدق طبل الإعلان أمام البيت ثم يستريح قليلاً بعدها يعاود الطبل.. وبعد أن يخرج المغسل ومساعدته من البيت بعد تغسيل الميت يقوم الطبال بضرب الطبله برتم سريع معناه أن الميت سيخرج بعد قليل من بيته.. وبعد أن يخرج الميت في خشبته من البيت ويحمله الناس على أكتافهم.. يهرول الطبال ليمشي أمام الجنازه إلى القبر.. وكان في قريتي أسرة واحدة تقوم بهذا العمل وتوارثوها أباً عن

جد.. وهي أسرة أبو عوف وهم من عائلة شرف إحدى العائلات الغلبة والمكافحين في قريتي.. خرج من عائلة شرف بعد ذلك صحفياً مشهوراً كان رئيس دار التحرير.. وهذا شرف يذع واحد منها ويصير صحفياً من أسرة الطبايين في قريتي وكان أشهر هؤلاء الطبايين (عثمان أبو عوف ومحمود أبو عوف) وكان يطأ في جنازه أم الرزق أكبرهم عثمان أبو عوف..

انتظرت الميته حتى خرجت من بيت عبده وكنت أجلس بجوار أبي ومشيتُ بجواره حتى المقبره وكان أبي يمسكني من كف يدي.. كان أبي حزيناً على حالته وكنت أنا سعيداً بموتها وتكاد طبول الفرح تدق في داخلي وكنمت فرحتي في داخلي حتى لا يسمعها أبي أو يشعر بها وهذا ما لا يجب..

في هذا الوقت آخر عام ١٩٥٣ كانت مقابر العائلة ستة أربعة منها للرجال واثنان للنساء، وكانت المقبرة مثل قبو في شكل مستدير.. وكان باب المقبرة يتم طلاسته بالطين بعد دفن الميت ويتم هدمه أو فتحه بازالة طوبه بعد طوبه حتى يفتح الباب بواسطة التربي ومساعدته، وكان رجلاان غير التربي يدخلان من فتحة القبر إلى داخله ليأخذان جسد الميت من التربي ويضعانه بجوار العضم المجاور له أو الميت الذي قبله والذي ما زال جثة ولم يتحلل إلى تراب وعضم بعد وغالباً ما يكون هذان الرجلان اللذان يتناولانه من التربي في داخل القبر من أقرباء الميت.. جرى كل شيء في صمت وبدون بكاء أي رجل من أبناء أخيها وكذلك لم يبك أبي، وكنت شديد الحرص في أن أمسك بيد أبي خاصة عندما إتناهني الرعب وسرت في جسدي ورأسي قشعريره هزتي، عندما فتحوا باب القبر وحملوها

إلى داخل القبو المظلم.. مضى ما يقرب من نصف ساعة حتى إنتهى
دفنها وتقدم أبي طابور الخارجين من المقابر حتى وصل إلى آخر
طابوري المعزين، وهرول إليه نجيب درويش شعبة، السيده لبيه
قائلاً:

- له إكتفيت بتشيع الجنازة له علشان غلبانه مالهش حد..
- إنت ها تقطمني يا نجيب عايز تقعد ليها إنت أقعد..
- هو أنا معايا حاجة.. بس دي خالتك..
- طيب يا نجيب دي خالتي.. خد.. يلعن أبو خالتي..
- خلاص يا حاج خلاص..
- أنا زهقت منكم زهقت..
- ونظر نجيب إلى حسن شذراً وقال للحاج :
- يا حاج حداد إنت من يوم ما جبت العيال وما حدش عارف
ياخد معاك لا حق ولا باطل..
- أنا سكّت كثير عليكم.. الواحد منكم عياله كبار ومن يوم
ما تجوز داره مليانه عيال.. وأنا لسه غلبان عايش لي الولاد قريب..
- عايزين ايه فارقوني..
- وتلعثم نجيب وقال :
- معانا العيال ومش عارفين نأكلهم..
- أكلهم يا نجيب..
- ساعدنا بس .. ساعدنا.. عايز غموس..

- إشتغل وشغل ولادك وبطل سرقة من على البحر خلّي ربنا
يبارك لك..

- كل الصيادين بيصيدوا من على راس غيطنا وسينهم.. دا
حق واللي ما يجيليش سمك كل يوم آخذ عدته..

- إعمل ما بدالك بس ابعدوا بعيد عني..

- ماحنا بعدنا من زمان هو احنا بنخش دارك.. عايز تقطع
القمح والدرة كمان..

- وفلوس اللحمه.. كل أسبوع ليك وعبدّه ومرات أبوك
فهيمه.. عايزين ايه تاني..

- الدار كانت مفتوحة كل يوم لينا..

- إذا كنت تقدر تروح روح..

- والشومه..

- خلاص من حق الولاد يدافعوا عن بيتهم.. وكل حاجة ليها
آخِر.. اليغمه خلصت يا نجيب..

- والله نصحت يا حداد..

- طول عمري عبيط مش كده يا نجيب..

- واجبنا عليك دا حنا ولاد خالك..

- أحمدا ربنا قمح ودرة ولحمه هو فيه حد بيعمل كده في البلد
كلها..

- محمود سلطك..

- بقة لي شهر ما شفتوش..

- دا بيكرهنا كُره..

- الحق دائماً يزعل..

.. إنسل نجيب من بيننا وقصد بيت عبده وقصد أبي بيتنا وهو
يمسك بقوة كفّ يدي.. وكنت سعيدا بكلامه مع نجيب ولم أنطق
بينت شفه وتنحنح وهو يدخل البيت فخرجت إليه أمي ووقفت في
فتحة باب النص وقالت :

- الباقية في حياتك في خالتك :

- البقاء لله.

حكيت لأمي ما حصل بين أبي ونجيب بعد دفن أم الرزق..
وعادت زوجة أبي في الليل وعزّتها أمي كما فعلت مع أبي وكل ما
قالته لبيبه عن هذا اليوم أن كلب عمتها ظل ينّوح بصوته طول اليوم
حزناً على عمتها ولما كان يملأ الدار صراخاً زهق عبده منه وطلع
إليه فوق سطح البيت وراح يضربه بعصا غليظه حتى فَرَا الكلب
على سطح فهِيم مطر الجاور لسطح عبده.. وكان عبده يزعق وهو
يضربه قائلاً :

-هي ماتت وأنت هاتقعد لنا يلعن أبو سنطيلك..

وفي صباح اليوم التالي من ضرب الكلب وكُرشه الى سطح جاره
فهِيم مطر.. وجد الجار أن الكلب أسود مسلّكع له رقبه متتوفه

مخيف وسأل عن صاحب الكلب فقال له فايز فرخه أن صاحبه عبده
درويش وهو في الاصل كلب عمته ام الرزق فقال فهيم لفائز :

- تعال خذه وديه لعبده..

- وأنا مالي..

- يا فايز عيب إنت ابن اخويا خد الكلب وديه لصاحبه..

- مش ناقص مشاكل مع عبده..

- خلاص هامّوته .. الكلب لابد فوق السطح وعمال ينوح
وأنا مش ناقص قرف..

- إخلص منه ياعم..

- ساعدني..

في اليوم التالي رضخ فايز لعمه وطاوعه في إقامة مشنقة للكلب
في وسط الشارع وكان منظراً مفرعاً عندما قام فايز بتعليق الكلب
من رقبتة بجبل في عامود المشنقة وظل الكلب يعوي وهو يخرج
لسانه من فمه حتى مات أمام جمهره من أطفال الحته ومن اللي رايح
واللي جاي ولما كان لاطفال القرية في هذه الحته.. شارع
الخارجة.. أن شقي الخارجة مطر سليم وهو شاب وقتها كان
يقترّب من العشرين عاماً.. كلما وجد كلباً أجرباً أو مسلكعاً أو
مسعوراً أقام له في الخارجة مشنقه مثل التي أقامها فايز وأعدم
الكلب.. واشتهرت الخارجة بموقعة شنق الكلاب في الناحية البحرية
كلها.. لدرجة أن كل من أراد أن يتخلص من كلب جاء به الى
مطر سليم ليشنقه مقابل سندوتش فول أو طعمية وكان الذي

يتناول سندوتشات الفول والطعمية في هذا الوقت يعتبره الناس
إنسان صاحب حضارة ومتقدم عن غيره الذي يتناول الخبز والمش
أو البتاو والجبنة..

ولقد كنت أشاهد هذه المشائق وأنا ذاهب الى دار عمي محمود
من ناحية الخارجة لاحضر لأمي فحل خميرة، وأحياناً أخرى كان
يأتي لي عبد الرحمن بن عمي محمود ويأخذني الى شارع الخارجة
لأتفرج على مشنقة لكلب من الكلاب..

وفي يوم بعد مشائق الكلاب التي توالى بعد شق كلب خالة أبي
قلت لأمي وكأنني أشفي غليلي :

- تأكدت من إن أم الرزق ماتت بموت الكلب..

- مش فاهمه..

- يعني لو هي ماتت وعاش الكلب كأنها ماماتتش..

- تقصد ايه..

- لان الكلب من الآخر كان هاييجي بيت قريه علشان
ياكل..

وضربت الأم كفاً بالآخر وقالت وهي تفهقه :

- أما إنت عليك كلام يا حسن أد كده فرحت بموتها يا
حسن..

- عشان هي كانت محرّكة الناس دي كلّها وفي الأول والآخر
أقرب الناس لأبويا وكانت بالنسبة له نقطة ضعف..

- ماحدش يفرح في الموت.. لكن ربّنا خلصنا من ناب الوليه
دي..

- وعلشان كده ربّنا كريم أوي..

- طيب خلصنا من أم الرزق الورك. وباق.. وسكت..

- باق إيه..

- لّما أبويا عمل بكلام نجيب وحكم عليك إنت وأبوك تمشوا في الضلمه والمطره والبرق والرعد دا غير بعد نص الليل.. احكي لي عن اللي حصل..

- مش هاتعتقني لّما أبوك يروح الدكان والبيت يهدا وليبيه تخش قوضتها.. هاحكيلك لما تدخل القوضه قبل ماتنام..

وكان أبوك حزيناً لأنه قرار قاسي وكان مندهشاً لأن أصول القرى التي تمشي عليها الأسر الطيبه لا تفعل ذلك أبداً.. ولكن كان أهل أبيك من الكراهية والتأثير على أبيك كبير فتغيّر الرجل ولو علم محمود بالأمر لجاء ونهر أبيك وأثناه عن فعله ولكن أحداً لم يخبره وكان ذلك واجباً على دردير ولكنه سلبى لا يعرف أبعاد الأمور ضعيف الإرادة النقطة الوحيدة الطيبة فيه أنه بكى وانصرف.. ناداني والدك وقال :

- حضري هدومك.. إجدعني قبل ما تمطر..

ومن الخزنه (غرفة نوم حسن راحت الأم تعبى هدومها وهدوم حسن وهي تبكي في صمت) .. وقام عبد العظيم الحر الرجل الاسود الذي جاء مع أحمد فوده وخرج إلى البيت ليحل رباط حمارته ويحكم رباط البردعه على بطنها وبكف يده راح ينفض بكفي يديه البردعه من أي تراب.. كان أبي قد قام ووقف بالصالة

وجسده يرتعش وكان وجهه متجهما وهو يترقب خروجي من داخل البيت.. والذي قهرني هو أنني وجدت لبيبه في أول مجئ أبي وهو يتكلم مع أبيك تقف خلف باب غرفتها وتسترق السمع.. وكانت ليلة منهاها أن يكون قرار ذهابي بلا عودة.. وكانت سعاد أختك تروح وتجي من غرفتها إلى المصطبة تجلس قليلاً ثم تهرول وتدفع باب غرفة لبيبه وكأنها تقول لها ما يجري.. والذي زادني حزناً أن البنت لم تبدي أي مشاعر أو قرب ناحيتي وكأنها لا تدري بأني راحلة ومن هذه الليلة تأكدت من أن سعاد أصبحت بنت لبيبه ولم تعد بنتي والتي ولدتها من بطني.. أخرجت سبتاً كبيراً به أغراضي وملابسي وهدوم حسن، وضعت السبت فوق المصطبة قرب صومعة القمح وعدت إلى غرفتك لأحملك فتحنح أبي وقال بصوت مسموع :

- خلاص يا حميدة..

- هاجيب حسن يابه..

لففته ببشكير عرسي بعد أن لبسته أحلى ثيابه وكان الطفل بين اليقظة والنوم ولا يدرى بشئ ولا يدرك إلى أين تذهب أمه مع ركب أبيها، وصرخ وأنا أحمله وأحتضنه وأعدى به من عتبة الخزنة.. وكان أبوك يخرج إلى الشارع ويقف عند شجرة الجميزة ثم يعود قلقاً وكأنه يتعجل الرحيل..

خرج أبي إلى باب السور بعد أن إطمأن مني بأن كل شئ جاهز.. نادى عبد العظيم وهو يخرج من باب البيت الداخلي :

- يا عبد العظيم هات الركوبه..

- حاضر يابه أحمد..

حلّ عبد العظيم رباط ركوبة أبي من حديد شباك المندره
وسحبها إلى جدر شجرة مدقوق في الأرض بعد العتبه وقال :

- إركب يابه.. إركب يابه..

قالها عبد العظيم في حنان ورأيت دموعه تتزل بغزاره فوق
صدغه..

ركب أبي وساعده عبد العظيم في تلبيس قدميه في ركاب
البردعه وشّد جلبابه لتغطي فوق قدميه حتى لا يلسعها برد الليله..
هزّ أبي رأسه وقال :

- هات السبّ يا عبد العظيم أدامي..

- أنا هاشيله على كتفي يابه أحمد..

- ماينفعش إنت هاتمشي ويدوبك تسحب الحماره.. هات يا
عبد العظيم..

ورفع عبد العظيم السبّ من فوق المصطبه ومشى به حتى ركوبة
أبي ووضعه بإحكام أمامه فقال أبي له :

- دي سهله أوي.. ركّب أم حسن..

صعدت بصعوبة فوق المصطبه وكنت أرتدي بنطلون تحت
ملايسي ليحمي ساقي من البرد.. أمسك عبد العظيم بخدمة الحماره
(الحبل الي يربط وجه ورأس الحماره) ولم تكن حمارة عبدالعظيم
بركاب مثل حمارة أبي فنادى أبي أبوك وقال كأنه يشخّط فيه :

- شوف جبل مجدول يا حداد..

وهرول أبوك إلى داخل البيت ودخل زريبه البهائم وأتى بالجبل بين يديه فأخذه منه عبد العظيم وربطه من ناحية كأنه سيضع فتحته هذه في رقبة جحش صغير ودون أن يلمس قدمي أدخل الفتحة حتى منتصف قدمي وفي الناحية الأخرى عمل نفس الفتحة وأدخلت قدمي.. خمس دقائق يابني وأصبحت حمارة عبد العظيم بركاب صنعه عبد العظيم وحتى لا تتدلى ساقي طيلة الطريق وأتعب من طول وقت المسافة بين شنشور وتلوانه.. خرج أبي وقال عند باب السور الخارجي عندما رأى أبيك واقفاً :

- سلام عليكم يا حداد..

- مع السلامة يابه أحمد..

كانت أول قنطره فوق ترعة عدى فوقها أبي بركوبته هي قنطرة زكي أبو شنب والتي تقع في مقابلة البيت ثم نحن وأنا احتضنك أمامي وعبد العظيم يمسك بجبل الحمارة ويهرول أمامها.. كان الطريق من قنطرة زكي وحتى آخر غيطان عبد العزيز الصاوي شريط ضيق وكان المطر قد كسى تراب الطريق وعادت قشره الأرض مبلولة بدرجة لو أن واحداً يمشي عليه بسرعة ممكن أن يتزحلق ويقع.. فكان أبي يمسك بلجام ركوبته حتى تمشي في ثبات ولا تهرول.. وكان عبد العظيم يهدئ من خطو حمارته حتى لا تتزحلق أقدام الحمارة فيقع من عليها.. وكاد عبد العظيم يتزحلق فخلع حذاءه.. (كتانله)، وهي عبارة عن شبشب من الجلد مقفول عند صوابع القدم مفتوح من الخلف.. خلع الكتانله وامسكها بيده

وأحياناً كان يضعها تحت إبطه حتى يتمكن من المشي فوق زحاليق الطريق.. وكان الطريق مملوءً بالكلاب، في كل دار على الطريق كلب أو كلبين و هي كلاب حراسة (بلدي) تنشط بالليل في الهبهبه والعيول لتثبت لاصحابها انها جديره بعملها.. كلاب حراسة بلدي معظما جربان هلكان أو منتوفة الشعر لو رآها فايز فرخة أو مطر سليم لأقاموا لها المشنقة..

كنت أخاف على ولدي فاحتضنته بقوه.. مره ينام هنيهات ومره يصرخ ومره يريد أن يتدلى من فوق الحماره.. وعند دار قطب شاويش وهي آخر دار في ملك شنشور كانت المفاجأة التي بكيت لها.. كان قطب شاويش يقف أمام بيته وهي زريه البهائم.. كان هذا الرجل صالحاً وكان له أخ يصغره اسمه شافعي يعملان في الحقل طيلة النهار وبعد المغرب يتعشيان ولما تؤذن صلاة العشاء يقومان سوياً للصلاة بعدها ينامان حتى آذان الفجر.. كان قطب شاهين يتشاءب أمام داره.. كان قد أخذ قسطاً من النوم ثم قام ليشرب من طلمبة أقامها بجوار الزريه.. لم يكن قد شرب بعد.. كان يعرف أبي.. وجد أبي أمامه فجأة فانفلج الرجل وجرى نحو أبي وهو يقول:

- أبويا أحمد أبويا أحمد.. إيه جابك الساعة دي..

وأمسك بلجام الحماره.. إبتسم أبي وقال له :

- مافيش حاجة إزايك يا حاج قطب..

إنفلج الرجل ثانيه لما رآني خلف أبي وأمامي ولدي فقال :

- يالهوتي يابه أحمد فيه إيه.. هّي شنشور ما فيهاش بيوت..

- لأ إزاي إنت بكل شنشور..

- يابه أحمد مافيش صَرِيخِ ابنِ يومِ يمشي في الليلِ دا دلوقتي..
- خلاص قَرَبْنَا نوصل..
- فيه إيه يابه أحمد..
- أبداً أمها عيانه شويه واخذها علشان تشوفها..
- ودلوقت.. دلوقت يابه أحمد..
- معلش يا حاج قطب سينا نمشي..
- طب أقعدوا عندي للصبح..
- معلش البلد قَرَبْتُ..
- أبا أحمد أدام الطريق مقطوع هاتعدوا إزّاي.. دا الراجل مايعرفش يَعْدِي..
- مقطوع إزّاي..
- بعد الترعة الجاية واحد بيروي.. بعد عزبة سعد عمر على طول..
- خلاص نَزَلْ ونَعْدِي الحمير ونَعْدِي وبعدين نَرْكَب تاني..
- إِسْتَنَى لَمَّا أُجِيب الفاس..
- وحمل قطب شاهين الفأس وتَقَدَّمْنَا.. كان يريد أن يردم لنا القطع بفأسه حتى نَعْدِي بسلام دون أن نَقَعَ.. كان الرجل معروف عنه في سكة رحيله بالطيبة والفطره والتدئين.. مشى الراجل أمانا وراح يَرَدُّ بصوت نسمعه جيداً.. :

- والله لما أشوفك يا حاج حداد.. أكيد دا تدبير ولاد خاله..
آه من الكره.. هايتته الكره في البلاد لغايه فين.. حسبي الله ونعم
الوكيل ياللي كنت السبب.. أساس الكره في أبو عافيه من أبو
شاطيه وآدي الدراوشه طالعين في الكار جديد.. بس دول فاجرين
أوي في كرههم..

أخذ الرجل يقول ويعيد ويحسبن وهو يمشي أمام الركب الصغير
حتى وصل إلى قنطرة ضيقة فوق ترعة صغيرة متفرعة من ترعة أكبر
تسمى ترعة أبو سليمان والمتفرعة من الترعة الأكبر الأم وهي ترعة
شنشور..

وكنا قد إجتزنا عزبة سعد عمر على يسارنا، مشت الحمارتين
خطوات قليلة حتى قال الشيخ قطب :

- هو دا القطع يا إما أردم أو نجيب طبلية خشب يمكن نلاقيها
في الدار دي وأشار بيده ناحية اليسار.. دقيقة بابا أحمد..

وهرول الرجل إلى الدار.. دار السيدة فايقة الأرملة والتي تربي
ولديها محمد وحسين بعد موت زوجها منذ خمس سنين.. وكانت
هذه السيدة تحرث وتروي وتحصد الأرض بيديها وقدميها.. وهذه
أول دار في قرية قلتي الكبرى وهي قرية تتبع مركز الباجور.. تركنا
قطب شاويش وراح هذه الدار ليسأل عن قنطرة خشبية نَعْدِي
فوقها لأن هذا القطع في السكة ليس قطع فقط ولكن قطع تحته
مروى أي تمر منه الماء لتروي أرضاً أخرى في الناحية المقابلة والتي
تنتهي مساحتها عند شاطئ البحر الفرعوني.. إختفى الرجل عن
ناظرينا خلف كوشه من البوص وسمعناه ينده بصوت عال :

- يا حاجه فايقه.. يا حاجه أنا الحاج قطب.. عندك قنطرة خشب .. نادى عدة مرات وسمعنا صوت إمراة مكتوم يقول إستنى يا عم قطب.. أيوه يا عم قطب..

مَرَّت دقائق فيها قعد عبد العظيم الحر مقابل القطع وراح يسمعنا القرآن بصوته ويقول بصوت دخل قلبي يا بني :

أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها.. من القرآن الكريم من سورة النزاعات.. وما قبلها وما بعدها مَقْلَداً فيها الشيخ / محمود على البناء..

وَمَرَّت دقائق أخرى فيها جاءنا قطب شاويش يحمل قاعدة خشبية بين يديه وخلفه سيدة ترتدي جلباباً أسوداً وأول أن رأنا ضربت يديها على صدرها وقالت :

- يالهوي أبويا أحمد..

وانهمك قطب شاويش في حبك المعدية الخشبية فوق القطع.

إستدار أبي نحوها قائلاً :

- إنت مين..

- مش عارفني يابه أحمد..

- لأ.. إنت من قلتي..

- أنا من ولاد أبو كيله.. وجوزي من ولاد سلام..

- أختي هانم متجوزه عبد الحميد عبدالعال..

- أيوه يابه أحمد.. أهو عبد الحميد عبد العال ده خال جوزي
لزم..

- يانهار أبيض دا ربنا بعث لنا كل الحبايب على الطريق..

- طب تعالوا شوية يابه أحمد.. باتوا عندنا للصبح دا حنا
قرايب..

- ربنا يبارك لك يابنتي كتر خيرك.. قنطرتك عملت الواجب
وزياده..

- إحنا النهاردة شفنا النبي..

وقلت لها - ربنا يبارك لك في ولادك..

- ربنا يخليك ياست حميده..

- وعارفاني كمان..

- طبعاً شنشور وقلتي وتلوانه بلد واحدة شوف النصيب أنا من
تلوانه وجوزي من شنشور وانت من قلتي شرف الحب لما ربنا
يجمعهم مره واحدة..

وعدى أبي في سلام من فوق القنطرة الخشبية وعديت بعده
بواسطة عبدالعظيم الذي سحب حبل الحمامه في رفق وودعت
الست فايقه وتواعدنا على الزيارة وظل عمي قطب شاويش يمشي
خلفنا ويدعو لنا حتى وصلنا إلى الطريق الرئيس الذي يربط بين قلتي
وتلوانه وتسير عليه العربات والأتوبيسات الكافوري..

وبدأت السماء تندّع (يعني المطر يتزل قطره قطره) كنا في أول
الطريق الرئيسي مقابل آخر بيوت مبنيه في قلتي وبعد أمتار قليلة

كانت دور قلتي على يميننا وتكعيبة غيط عنب على شمالنا حتى وصلنا إلى الكوبرى الكبير الذي يقع في عرض البحر الفرعوني والذي في نهايته طريق على اليمين يؤدي إلى بلدة كفر الخضرة وعلى الشمال الطريق الذي يؤدي إلى تلوانه.. بدأ المطر يهطل فخلع أبي عباءته من فوق كتفه واقترب مني ،لقى بها فوق جسدي فعدلتها على كتفي وغطيت الطفل.. وكنا قد إقتربنا من سور يقع على البحر وهي مساحة أرض بها كثير من أكوام الرمل والحديد والزلط والأسمنت.. كنت أعرف يابني أن عمي المستشار عبد القادر فوده وزوجه السيدة / جليلة عبدالله المديرية بالتعليم سوف يقيمان قليلا هنا.. ألقى أبي نظره على السور وما بداخله بعد أن توقف ، قليلاً عند السور.. وعند كوبرى أولاد الشاطر سار أبي خلفنا وكان يهز رأسه ويتمتم بكلمات كأنه يكلم نفسه.. هداً المطر قليلاً وما زال الطريق قابلاً للسير فوقه بالحمير دون أن تتزحلق وعند عملية المياه لقرية تلوانه كان الموثور يبعث صوتاً يشعرا بالدفع كأننا مقبلين على دخول فرن القاعة.. كنا نقرب من بيت أبي.. هذا هو بيت الشاعر رمضان بعده ترعة صغيرة متفرعة من ترعة هيت الكبيرة.. وعند باب البيت الخارجي كان يقف الكلب لكي يهز لنا ذيله.. ضحك أبي وقال :

- إنه لا ينام حتى أنام أنا أولاً..

- كلب وفي وأمين يابه..

وأدخل عبد العظيم الحمير إلى الزريبة الخارجية للبيت.. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. طرق أبي الباب الداخلي ففتحت

له عديله الغوله التي تعمل عندنا فهي دائماً تنام خلف الباب.. قال لها أبي :

- طَّلعي لعبد العظيم الأكل.. هاتلاقيه في الزريه نائم على الفرن.. أكيد هاتلاقيه نام من التعب..

- حاضر يابه..

كانت القاعة التي تنام فيها أمي شديدة الدفء وكانت تنام معها أختي عزيزة حتى يصل أبي لتذهب إلى الغرفة المقابلة لتنام في فراشها.. كانت أمي تغط في النوم أيقظتها أختي عزيزة.. ولما قامت أمي من نومها وبدأت تفتق دخل أبي وقال:

- أنا تعبان هاطلع أنام في المقعد..

- حصل إيه يا أحمد..

- حميدة تحكيك وأنا هاحكيك الصبح..

.. ثقلت رأس حسن وبدأ النوم يغلبه من طول الحكاية وقوة تأثيرها عليه.. لكنه قاوم وقال والصبح حصل إيه.. فقلت له نام يا حبيبي.. بكره نكمّل..

"حداد يبكي"

.. كان أكبر الناس تأثراً من تلك الليلة الحزينة هو قطب شاويش وأخوه الشافعي الذي سمع الحكاية من أخيه بعد صلاة الفجر.. وكان من عادة الشقيقان بعد صلاة كل فجر يقعدان في المصلية يتكلمان عن الزرع والقلع وأمور الدنيا حتى يبدع نور الصباح فيقوموا إلى عملهما ولكن صباح هذه الليلة الحزنة قال قطب لأخيه :

- هو فيه حد في الدنيا يسيب ابن زي ده ويكرشه هو وأمه..

- أعمال السحر تعمل أكثر من كده..

- الساحرة خالته معقولة الناس كلها بتقول كده..

- السحر حاجة وتصرفات صاحب المصلحة حاجة تانيه..

- الراجل نفسه مسحور له وليبيه بتسقيه منه..

- يعني لما ربنا يديله عيال بعد السنين دي كلها مش يحمد ربنا وييقه على اللي كان السبب..

- الدراوشه شغالين جامد.. دا غير غنيمه مرات عوني ولساها الزفر..

- مش المفروض تروح ياقطب وتقول لناس كبار على اللي شفته إمبراح..

- المفروض بس أروح لمين..

- روح لكبير القطان.. روح لعبد العزيز الصاوي..

- هاروح له على الظهر يمكن ينصحه..

- المهم موضوع زي ده ماينسكتش عليه..

- إحنا في الآخر بنحب حداد..

.. وعند الظهيره صُلّي قطب مع شقيقه الشافعي في المصلية بعدها ركب قطب حمارته وذهب إلى عبد العزيز الصاوي في غيطه وحكى له الحال المائل الذي شاهده امس فراح عبد العزيز الصاوي في حزن يضرب كفاً بالأخرى ويقول :

- العيله دي فيها ناس بتكره من زمان.. والله اللي بيكره فيها أكثر من اللي بيحب.

- والحل إيه يا حاج الراجل ده عايز راجل كبير ينصحه..

- أنا رايح الدكان الليلة هأكلمه..

- لأ يا حاج مش تكلمه بس.. لم ناس كبيره من هنا وهنا واعملوا قعده ليه..

- الموضوع مش بالسهولة دي .. شوية شوية أنا مش ناقص مشاكل مع الناس في العيلة دي.. العيلة دي فيها ديابه كتير..

- وفيها ناس كويسين برضه يا حاج..

- أنا ماقلتش حاجة.. بس العيلة دي على ما تتصفى وبقه فيها شوية حب باقي لهم كتير.. على العموم فرع الحاج على ده غير باقي العيله.. خلاص ياقطب أنا مش هاسكت..

وانصرف قطب إلى غيطه وهو مرتاح نفسياً وحكى لأخيه الشافعي ما وصل إليه مع عبد العزيز الصاوي..

كان هذا الصباح في دار الحاج حداد كالحراب.. خلت الدار من أم العيال وخلت من حسن الطفل القمر.. خلت الدار من خض القربة وعمل الجبن والفتير.. خلت الدار من بنت فوده التي رفضت أن تعطي لزوجها كما تعطي لبيبه كرامة لها كإمراة وبنت ناس.. لكن صباح الخميس إمتلأت الدار بعصبة الخميس لدرجة أن الجمع الحاشد أخذوا يصفقون ويغنون وقامت أم الرزق ترقص حتى تعبت ونامت على الأرض.. نجيب وزوجه سيده، أم الرزق الورك وزوجها عبد الرازق الورك، عبده وزوجته تفيده بنت عميره، فهمه مرزوق أخت خليل مرزوق وهي زوجة محمد درويش تزوجها بعد وفاة أم اولاده.. غنيمة الشردوحة بنت أبو راكميه.. مالد وطاب من طعام البيت وضعت لبيبه على الطبلية الكبيرة بعدها شربوا الشاي ثلاثة أدوار كعادة أهل البلدة ومعهم الحاج حداد والذي كان تائها ولا يدري بشئ حوله وسعاد ابنة حميدة التي لا تعرف أمها تجلس في حجر أمها لبيبه شويه وتقعده أمامها شويه.. إنها ملتصقة بأمها لبيبه فهي التي تنام معها في سريرها وتحكي لها في الليل حكايات القسوة والكرامية.. غير أن أم إبراهيم شرفه (من عائلة شرف) جلست بلا عمل حزينة أمام باب المندرة تراقب القوم وتبكي مداريه دموعها حتى لا يهينها أحد.. تبكي سيدة البيت حميدة التي تعاملها معاملة البني آدمين والتي تكرمها في طعامها وفيما تأخذه إلى أبنائها كل ليلة.. كانت أم إبراهيم تحب حميدة وحسن حباً خالصاً نابعاً من قلبها.. وكانت تدخل وسط الدار الجواني عندما تجهش في البكاء

وتفتح باب الحزنة (غرفة نوم حسن وأمه) فتجدها ضلّمه فتنادى في صوت خفيض :

- إنت فين يا حسن. تعالى يا حسن.. تعالى يا ست حميدة.. والله لوما جيتو لأمشي ولا قاعدة في الدار دي.. يا خراي من بعدكم..

وكانت أم ابراهيم كل ليلة تحكي لابنائها ما تجده وتراه من الحوش قرايب الحاج حداد.. وكانت تسميهم.. الناس إلّي قلبها إسود.. غجر عيلة أبو عافية ولمامة فرع أبو راكيه.. كانت تفك نفسها مع أبنائها عندما تعود إلى بيتها وتقول في كل ليلة عندما تحكي عن الحوش والله لولا الست حميدة جت ما كنت أقعد يوم واحد في البيت ده..

ولما إنصرفت الشلة في يوم الخميس هذا سحب حداد حمارته وركبها متوجها الى الغيط وهو مازال شاردًا حزيناً لا يدرى ما الذي فعله وهل هذا صحيح أم خطأ.. إنه لا يعرف شيئاً وأنه في حاجة إلى النوم لكي يدفن حيرته وتيهه.. وكان كل همه عند ما وصل إلى غيطه أن لا يراه أخيه محمود وتمني ألا يكون الحاج حسين ودردير قد أبلغاه بشئ.. ونادى رجب قائلاً بصوت مبحوح :

- إفرش لي في قوضه التبن عايز أنام..

- حاضر يابه الحاج..

- حد سأل على..

- لأ ما فيش.. قدره جت ولما مالقتكش مشيت..

- روح هاتها أنا عايز حد يصب على جسمي يطلع البلا اللي فيه..

- تقصد يكب يا حاج..

- أيوه..

- أنا باعرف..

- روح جتك الغم أنا عايز قدره..

غرفة التبن في أحد أركانها كومه من التبن لعلف البهائم وفي الركن الآخر تم فرش طبقه من التبن في الأرضية وعندما ينام الحاج يتم فرش حرام قلم فوق طبقه التبن (حرام هذا مثل البطانية هذه الأيام ولكنه مجدول من الصوف) وثلاث مخدات حشيت من قش الأرز.. وحرام آخر ليتغطى به وقت البرد.. وفي الركن الثالث لغرفة التبن نصبت مصطبه عليها زلعة مملوءه بماء الطلمبه وكوز وأدوات الكب وهي عبارة عن جركن به جاز وثلاث كيزان من الطين الناشف نبتت في أعلا كل منها قولحه ذره.. إعتاد أهل الريف منذ الزمن القلم أن يتم سحب أو مص البرد أو وجع الجسم بهذه الكيزان وكان في القرية نساء مشهورات بهذا الكب مثل ست أبوها.. وأم الرزق شخيوخه وغيرهن.. يتم تغميس القولحة بالجاز ثم تشعل بعود كبريت فتصهد النار بقوة فتضعها الكابه على ظهر الرجل وبسرعة تضع فوقها كوز من الفخار وتضغط عليه بقوة فيلزم الكوز بجلد الظهر ويتم تفريغ الهواء فتتنفسي النار في لحظات وتظل الكابه تضغط على الكوز لمدة دقائق ثم تترعه الكابه بصعوبة من فوق ظهر الرجل فيحدث صوتاً إياً إياً مثل صوت تزيئ الباب..

وتعدد الكابه أماكن الكب على ظهر الرجل حتى لا يعد هناك موضعاً على ظهره دون كب.. وبهذه العملية يتم سحب البرد والرطوبة من ظهر الرجل..

.. جاءته قدره فرحه إنها تسأل عليه دائماً لتفعل له ما يريد منها.. إنه ينقدها قرشاً بعد كل كبه غير أنه يعطيها ما يكفيها بصفة منتظمة ما تحتاجه من قمح وذرره وغيرها من منتجات الغيط.. قدره في عمر الحاج أوائل العقد الخامس من عمرها.. زوجة لرجل فقير مات عنها زوجها منذ سنوات وكل يوم تأتي إلى الغيط للإهتمام بزراعة ثلاثة قراريط تركها لها زوجها زرعتهم فجعل وجرجير وملوخية وسبانخ وكافة أنواع الخضار.. تأتي كل يوم للعناية بحقلها الصغير وتجلس وأحياناً تنام في عشة من الحطب جدلتها هي وإبنها كردي.. وهي سيدة بيضاء حلوه لها جسد إمرأه مثير رغم فقرها زد على ذلك أنها تعرف مقدار أنوثتها وتعرف كيف توجهها وتحركها نحو رجال الغيط الموسرين حتى تقضي حاجتها وتعيش دون فقر شديد.. إبنها كردي يعمل شريك (نفر) بالأجره السنوية عند واحد من أصحاب الأرض.. ولا يساعدها في شئ فهو متزوج وعنده عيال ودخله على أده.. وأمه قدرية كفيلة بتدبير رزقها من زراعة غيطها الصغير ومن قضاء حاجات أصحاب الأرض حولها..

.. في دلال نساء الفلاحين دخلت عليه منشرحه.. وجدته نائماً.. كان مدلوشاً فجلست عند رأسه ووضعت يدها فوق دماغه كأنها تقيس حرارته.. تيقظ قليلاً وأحس بها فقال في صوت خفيض:

- قدريه أنا تعبان..
- وأنا باعمل إيه.. اللي تعبان منه أريحك منه..
- يا مره (يا إمرأه)..
- قول عايز إيه..
- ضهري واجعني..
- أدلكه..
- لأ كُبي.. جهزي الكب..
- حاضر.. أقفل الباب..
- أقفليه..

خرجت قدريه من غرفة التبن بعد ساعات من دخولها وتركته
يغط في نوم عميق.. ظل حتى بعد العصر نائماً ولما خرج سأل
رجب :

- حد سأل..
- أبويا محمود..
- عايز ايه..
- عايزك..
- ليه بتقوله أنا هنا..
- إنت ماقتليش أنكرك..

- طيب أنا نازل أبص في الغيط..

- ولما يسأل..

- قوله أنا على المحده الشرقية..

كلما دخل أو خرج أو راح أو عاد زفته الكلاب بصوت فرح (إيب إيب) وهزت ذيلها وسمع محمود زفة الكلاب فأيقن أن حداد وصل فترك ما في يده وذهب إلى داره فأخبره الشريك (النفر) بأنه دخل الغيط وقد تجده في المحده الشرقية.. مشي محمود في الفحل (القناة المائية التي يمرُّ فيها الماء ويحول الفلاحون منها إلى شرائح الغيط حتى تروي المياه كل الغيط) وصل اليه والقى عليه السلام وجلس بجواره على المحده الشرقية (وهي الحد العال من الأرض (رتش الغيط) الذي يفصل بين الغيط وغيطان أخرى تقع جهة الشرق).. كان حداد يفرك بأصابعه كرات الرتش ثم يرمى بها أمامه فقال محمود :

- بطل اللّي في ايدك واسمعي..

- سامعك (ورمى ما في يده)..

- عملت إيه إمبراح..

- زي أي يوم..

- دردير كان فين إمبراح..

- عندي..

- بيعمل إيه..

- هات من الآخر يا محمود.. عملت اللّي قالك دردير عليه..

- ليه دا يرضى ربنا..
- لأ ربنا عايز كده..
- لأ.. الدراوشه اللي عايزين كده..
- الدراوشه مش غُرب عني دول أهلي..
- لو أهلك صحيح ما يعملوش كده.. دي عماليل الأعداء..
- دول ولاد خالي..
- خالك محمد درويش راجل طيب ولو ماكانش طيب ماكانش أبويا الحاج على جَوُزك بنته.. بس ولاده طلَعوا شياطين..
- هُو حد يتخلَّى عن أهله..
- أهلك أنا ودردير..
- طيِّب مش إنت أهلي عايز إيه..
- عايزين حسن وأمه يرجعو بيتهم..
- المره دي دماغها ناشفه ومغلباني..
- حتى.. طالما ماعملتش حاجة وحشه ترجع..
- دا أمر..
- أنا أخوك الكبير واعتبره قطيعه بيني وبينك لآخر العمر..
- كده يا محمود..

وراح حداد ييكي.. تركه محمود ييكي.. ييكي بجرقه وشعر محمود بأنه في حيره وأنه تائه وأنه مثل الذين يشربون السحر.. ولما

إنتهى حداد أعطاه محمود قماشه كانت في سيالته لينشف دموعه
وبربوره..

وأمسك محمود بكف يد حداد وربت على ذراعه وقال في حنو:

- إرجع لعقلك وصحّح غلطك.. تعرف لو أنا مكانك أعمل
إيه..

- إيه..

- أعمل العكس..

- إزاي..

- أكرش لبيه وأكوش على ولادي سعاد وحسن..

- بس دا إفترى..

ضحك محمود وكأنه وصل الى شئ مهم معه وقال :

- فهون الأهون أكرش حميدة ولا لبيه.. تعرف تقوللي الإفتراء
عندك يعني إيه..

- أنا بحب لبيه..

- وحب حميده علشان جابت لك الأولاد ولسه هاتجيب.. دي
ست بنت ناس إنت هاتفضحنا في تلوانه.. الحق وصلحّ الغلط وضم
ولادك وأم ولادك في حضنك..

- وليبيه..

- حُطَّهَا عَلَى رَأْسِكَ وَلَفَّ بِبِهَا الْبَلَدَ وَخَلَّيَهَا وَخَلَّيَ حَمِيدَهُ..
الإثنين مع بعض واللي ترهق - ن نفسها تمشي بس خليك في كل
الأحوال راعي بيتك كله رُبلاش الإفتراء مش إحنا اللي نفترى..

- يعني عايزين أعمل إيه دلوقتي..

- زي ما قلت لك.. أصل لو أنا موجود ماكانش دا يحصل
أبدًا..

- ما هو حسين ودردير كانوا موجودين..

- حسين تابع لحاله ودردير سبعة أردب ثمانية أردب..

- طَيِّب سيبي أفكر..

- همارك إسود لسه ها تفكر.. إنت خايف..

- خايف من مين..

- من لبيه وولاد خالك.. هو فيه حد يخاف من دول.. دول
مايخوفوش فرخه.. هم شاطرين عليك بس لأنك وَطَّيت لهم من
زمان وعلى فكره كل الناس بتقول عليك إنك راجل خايب..

- من وقته الناس بتقول كده..

- من قبل ما تجيب حميده لأنك سايبهم واكلى بطنك..

- والخبه دلوقتي بقت خيبتين مش كده..

- الخبه دلوقتي بقت خيبة وهبل.. لأنك تايه ومش شايف
مصلحتك..

- طَيِّب مين هايروح معايا..

- أنا.. أنا يا حداد..
- الدراوشه هاتكرهك أكثر..
- في داهيه..
- أنا خايف من أبو حميده يقول لي كلمه كده ولا كده..
- شوف بقه دا إحساسك لأنك عملت عمله ماحدش عملها
- وفي الليل والدنيا ضلمه ومطره.. تعتبر هنت أم ولادك وأبوها إهانه
- جامدة.. وعلى العموم.. وسكت..
- سكت ليه يا محمود..
- على العموم دول ناس مؤدبين من زمان.. دي عيلة فوده
- والجرف في تلوانه من أحسن عائلات مركز الباجور كله.. ياراجل
- أنا عارف الناس دي من قبل حميده.. دا أقدم مستشارين وقضاه
- مصر من الناس دي..
- ياه يعني أنا مش داري..
- الدراوشه جنبهم خدّامين يا حداد..
- برضه هاتعيب في إخواني..
- خالك محمد درويش كان راجل طيب.. بس خلّف أبالسّه..
- إفصل ده عن ده..
- طيب لما أنا قرايبي كده جّوزني أحمد فوده بنته ليه..
- علشان أبوك الحاج على أبو عافيه..
- مش عارف أجيبك منين يا محمود..

- ماتجنيش.. جيب حسن وأمه..

- خلاص يا محمود..

- بكره..

وراح حداد يبكي مرة أخرى.. كان في المرة الأولى حين بكى
كان بكاء الحيرة والتهيه ولكن هذه المرة بكاءً كاليقظة.. كأن محمود
أضاء له شمعة في طريقه وأيقظه..

"في بيت فوده"

ركب محمود ركوبته وركب حداد ركوبته واتخذوا طريق رحيله وقلتي للوصول الى تلوانه وهو الطريق الوحيد حتى الآن "غير أن هناك آخرين يتخذون طريق البحر فيذهبون الى هناك في المركب" وكانت غيطان حداد ودردير ومحمود في الحد المناصل بين قرية هيت وتلوانه، فإذا عدّك المراكبي بقاربه في الناحية الأخرى فإنه عليك عندما تصعد المتزل إلى الطريق العام تكسر ناحية اليمين لتذهب إلى تلوانه وإذا كسرت ناحية اليسار فإنك تذهب إلى هيت.. لم يكن لنا صلة بقرية هيت إلا أن زوجة خالي عبد الحميد السيد حميده من عائلة واصل.. وجماعه واصل في هيت في الزمن القديم كان أغلبها من الأشقياء إلا أنه قبل عام ١٩٥٢ بسنوات دخل أحد أبناء واصل الكلية الحربية وهو ابن خال مرات خالي وكانت واسطته الملك فاروق.. لكن كيف لشاب من عامة الشعب أن يكون واسطته الملك.. كان خال مرات خالي يعمل السائق الخاص لقطار الملك فاروق أينما ذهب بالقطار بعد ذلك أصبح هذا الشاب قائداً لأحد الجيوش التي عدّت إلى سيناء لتحريرها في عام ١٩٧٣ وأبلى بلاءاً احسنًا.. ومن هذه العائلة خرج أحد علماء الدين ناهيك من كل هذا.. وصلت الركوبتان ومن عليها إلى دار أحمد فوده.. نادي حداد بصوته الجمهوري الأخنف :

- يابه أحمد.. يابه أحمد..

رفع حسن رأسه وكان على حجر أمه التي تجلس على دكة قرب باب الوسط بجوار طلّمبه مياه البيت.. هرولت حميده وهي

تحمل ولدها إلى الباب الداخلي.. حيث والدتها التي تتناول طعام
العشاء ومعها عزيزه وعديله الغولة..

قالت وهي تتهدّج الأنفاس :

- أمي.. أمي حداد..

- حداد..

- أيوه يامه حداد وصوته..

- فين..

- بيخبط بّره على الباب..

- روعي يا عديله عبد العظيم في الزريه هاتيه يفتح.. ولا إفتحي
إنت ودخليهم.. هرولت عديله وفتحت لهما وقالت وهي تنقلب
إلى أبوها أحمد في المندرة الخارجية.

- آبه أحمد آبه.. حداد ومعاها واحد بيربطو الحمير جنب
الباب..

كان الرجل يصلّى.. إنتهى من صلاته في دقيقة لأنه كان يقرأ
التحيات وقال :

- هاتيه.. خليهم يتفضلو..

خرجت اليهم عديله وتقدمتهم.. قائلة.. إتفضلو عدة مرات
حتى دخلا على صاحب الدار..

ردّ عليهم السلام وصافحهم بحراره وجلس كل منهم على كنبه
وجلس الرجل قبالتهم مرحباً :

- أهلاً وسهلاً.. إزيك يا حداد.. مش محمود برضه إزيك يا سيدي إنت منور تلوانه.

ورد محمود في غبطه :

- عرفتني يابه أحمد..

- طبقاً عارفك واسمع عليك إنك راجل شاطر في زرعك.

- كمان.. وأنا أعرف كده عنك..

- أهلاً وسهلاً.. تشربو إيه شاي قهوة قرفه.. ولا نجيب عشا الأول..

ويرد حداد :

- لأ والله إتعشنا.. نشرب شاي..

صفق الرجل بكفي يديه عدة مرات فجاءه عبد العظيم الحر من داخل الجنية التي تقع خلف المندره.. إنحني عبد العظيم قليلاً وقال :

- أأمر يابه أحمد..

- خليهم يعملو شاي.. وهات عنب من الجنيه..

- حاضر..

أدخلت عديله الغوله الشاي وضعته على منضده صغيرة قرب الضيفان وانصرفت.. هي أرملة في الأربعين من العمر لها ولد يعمل في مصر.. مات عنها زوجها منذ ربع قرن.. كان زوجها فقيراً وهي قرية الحاج أحمد من بعيد.. فجاء بها وولدها في بيته.. لما كبر ولدها سافر إلى مصر واستقر هناك في حي روض الفرج وترك أمه

تعمل في بيت أحمد فوده وهي دائماً تنادى من كفلها.. ياخال.. يا خال أحمد.. وجاء عبد العظيم الحر بالعنب بعد أن غسله من مياه الظلمبه وقدمه في أدب أمام الضيفان وكان أحمد فوده له روح طيبه فكان حديثه مع الضيفان ودوداً ضاحكاً كأنه لم يحدث شئ من حداد وكانت بقية الحديث :

- إزيك يا حداد.. وازي لبيبه.. وسعاد..

- كويسين يابه أحمد..

- إحنا عايزينك دائماً كويس.. عامل إيه في الزراعة..

- كويس..

- لما تيجي تزرع بطاطس قوللى هابعت واحد ميه ميه يزرعها لك..

- حاضر يابه أحمد..

ثم إنتقل الحاج أحمد إلى محادثه محمود.

- إنت شرفت يا حاج محمود ونورت تلوانه..

- منوره بيبك يابه أحمد..

وسادت فترة صمت فيها تناولا الضيفان حبّات العنب.. ثم بادر محمود قائلاً لصاحب الدار :

- إحنا عارفين إن قلبك كبير وبدون الدخول في تفاصيل أنا با عتذر عن اللي حصل..

- هو حصل إيه .. مافيش حاجة..

- شوف يابه أحمد.. حداد غلط.. غلط أوي في حَقك وحق
إبنة وأمه..

- ياسيدي الدنيا فيها حاجات كتير.. أنا مسامحه..

- معقوله يابه أحمد..

- أوي أوي.. هي الفكرة لو كنا جينا الصبح كان أحسن..
حداد تَعَنَّت معانا أوي.. يعني تقول كده زي اللي طردنا من بيته في
عز الليل والضلمه والمطره ولولا قطب شاويش ما كناش هانعرف
نَعْدِي وكانت هاتبقه ليله أسود من جنب المركب..

- حَقك على يابه أحمد..

وتقدّم محمود نحوه ليقبّل رأسه فأمسك به صاحب الدار بقوه :

- لأ والله ابدأ..

فزقق محمود في حداد قائلاً :

- تعال إنت..

فقام حداد إلى صاحب الدار وقبّل رأسه بالعافيه بعد أن أمسك
محمود بيدي صاحب الدار.. جلس حداد والدموع في عينيه ونظر
إليه صاحب الدار قائلاً :

- المهم دا ما يحصلش تاني وخلّى بالك من بيتك وولادك وخلّى
بنتي آخر حاجة..

- لكن والله يا حاج محمود علشان خاطرك بنى هاترجع معاكم
بس على شرط ما تحصلش الإهانة ده مرة تانيه.. أنا باسمح بالغلط
مره واحده لكن الغلط يتكرر مش هاقبل ده..

ورد عليه محمود :-

- دي عندي أنا.. هو بس حداد كان تايه عنده خالته الله
يخفيها من على وش الدنيا شغاله في السحر..

فرَّد عليه صاحب الدار :

- خالته المفروض تحبه وتحب ولاده وتفرح إن ربنا رزقه بالعيال
والله العظيم يا حاج محمود إحنا مدارين حسن ابنه عن أي حد يخش
البيت خايفين عليه يتحسد.. الواد صلاة النبي ربنا يبارك فيه لحداد..

- معلش يابه أحمد.. سامحني ومش هاعمل كده تاني..

- شوف يا حداد الزعل له أصوله.. والواحد يكرش مراته
وولده بالليل.. إنت كرشتي أنا معاهم زي ما يكون مالناش دور
ولا ناس ولا كرامه.. إنت مارعتش أي حاجة.. ماعرفش عملت دا
إزاي.. إنت زي ما يكون نهرتي بس إنت ليلتها نزلت من عيني..

وتدخل محمود :

- كل اللي بتقوله يابه أحمد ليك حق فيه واحنا كلنا غلطانين
ليك.. واسمح لي أقول ليلتها حداد ماكانش حداد.. حداد كان
شربان من إيد خالته..

- والحل إيه هاشرب تاني..

- اسمع يا حداد لا تروح عند خالتك ولا خالتك تيجي بيتك..
تقدر..

- من غير كده يا محمود دا مش ها يحصل تاني..

وسكت صاحب الدار وكذلك محمود و حداد وكأهما ينتظران قراره.. لكن الرجل قام واتجه ناحية باب المندرة وارتدى حذاءه ونزل درجات السلم الأرضي واتجه ناحية الباب الداخلي للبيت ودفعه بيده.. وجد زوجته شلية وعزيزه وحميده وعديله الغولة ينقيان الأرز من الحصا.. لكنهن جميعاً تركن الأرز وتعلقت وجوههن بوجهه فقال الرجل وهو ينظر في رفق إلى زوجته :

- معلش يا شليه النوبا دي.. النوبا دي سماح..

خبطت شليه على صدرها بكلتا يديها وانتفضت قائله :

- سماح وطرده بنتي من البيت بالشكل ده وطردتك والولد اللي إتبهدل طول السكه هو دا شويه خد حقك منه ربّيه عرفه الأصول..

- يعني إيه يا شليه.. هامسكه أضربه يعني.. هو فيه حد يتربى بعد ما قرّب على الخمسين.. العيب علينا إحنا من الأول إن جوزناها على ضرّه..

- مش قتللك ضرّه لأ.. قتلتي دا راجل من أصل وعنده أرض والدنيا عند واسع.. وهو بياخد بنتنا بسبب الخلفه.. الدين يقول في الظروف دي جّوزوه..

- في الآخر رأى رأيك يا أحمد.. بس دا ما يتكرّرش تاني مع بنتي ويعرف يحافظ على بيته.. وعرفه إذا حصل دا تاني هاييقه بلا رجعه..

- طيّب يا شلبيه كلامك صح وحقك تزعلي.. سيبينا المرّة دي بنجرب وعلى العموم أخوه محمود قال ما فيه الكفايه.. ومحمود شاهد عليه..

- خلاص يا أحمد إللىّ تعمله..

- قومي يا حميده إلسي ولّى هدومك..

- حاضر.. حاضر.. وانفجرت بالبكاء وهي تدخل إلى الغرفة التي كانت تنام فيها مع أختها عزيزه.. ودخلت خلفها عديله الغوله لتساعدھا..

كان أحمد فوده شديد الطبع وقاس في تربيته لأبنائه والكل في عائلته وفي الناحية الغربية لتلوانه من عائلات الجرف وعمارہ وشبابيك وعلام يعرفون عنه ذلك ويعملون له ألف حساب.. ولكنه كان يحب الناس جميعاً ولكن على طريقته أن يكون من يتعامل معه جاداً محترماً صادقاً.. إنه رجل لا يعرف الهزار أو لا يحب أن يتعامل مع أي أمر من أمور البكش.. وكان صديقاً للمعلم سعد عميد النصارى في تلوانه.. يجلس معه ويتعامل معه في التقاوي وتجارة القطن والبطاطس ومن شطارته وقوة شخصيته أن المستشار عبد القادر فوده هو وزوجته السيدة جليلة عبدالله أعطوه مساحة خمسة أفدنة لزراعتها شركة بينهم وجنوا وراء هذه المشاركة مالاً كثيراً وذلك من شطارة وفلاحة أحمد فوده ابن عم المستشار حتى بلغت

المساحة التي يزرعها أكثر من عشرين فداناً منها ثمانية فدان يملكها وبقية المساحة من عبد القادر فوده ومحمد فوده والدكتور عز الدين فوده أستاذ الإقتصاد السياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي..

الرجل قصير القامة.. جسده أبيض كاليفته.. أبيض بحمار.. يرتدى من الثياب أفخمها.. جلابيب صوف كل جلابيه مخصصة لمشاوير معينة.. فهذا جلاب وبغاية للسفر إلى مصر، وهذا جلاب للسفر إلى منوف وهذا آخر للذهاب إلى شنشور وآخر للذهاب إلى الدوار.. أما ذهابه إلى الحقل فكان له جلابيب خاصة من قماش أقل جوده لتحمل تراب الغيط وعفاره.. كانت ركوبته تضاهي ركوبة ابن العمدة شكري عبدالله.. حماره في عود الفرسه.. برده حمراء لامعه لجام ركاب.. يمشي بركوبته في البلده وكأنه يمتطي فرساً عربياً من سلالة رفيعه.. وكانت أرضه موزعة في عدة نواحي.. الطريق المؤدى إلى البحر ناحية هيت جزء منها.. والطريق المؤدى إلى منوف بعد عزبة سعد عطية جزء منها.. والطريق المؤدى إلى الناحية الشرقية بتلوانه خلف مقابر البلده بقليل جزء منها.. وكان يرتدي فوق رأسه عمامه كبيرة لتحتوي رأسه الكبيرة وكان صاحب قوة فهو يستطيع أن يحمل رجل بيد واحدة وكان كف يده سميك وأصابغه عريضه فإذا صافحك تشعر أن مرزبة لمستك.. وجسده كله ملئ بالشعر الغزير.. وإذا سار بركوبته أو ماشياً في شوارع القرية دخلت النساء بيوتهن خشيته منه أو خجلاً منه مرددين واحدة بعد الأخرى أمام كل دار.. خشى خشى أبوك أحمد فوده جاي.. وكانت الفتيات تمشي في طابور وهن يذهبن الى حنفية الماء

لماً زلعهن أو حللهن وكنَّ يسرن يحكون ويغنن في الذهب والعودة فإذا رأين الرجل قادماً من بعيد تدارت كل منهن خلف شجرة أو خلف سور بيت وسكن عن الحكى والغناء حتى يمر.. وكان يحرس بيته في البلده ثلاثة كلاب هول من نوعيه كلاب الشرطة.. والذي جلب له هذه النوعية ابن عمه المستشار عبد القادر بعد أن إستقر في مصر وسكن في حي العباسية قريباً من كلية الشرطة "أما الكلاب في حقوله فهي من النوع البلدي العادي" كلاب لحراسة حظائر البهائم والأغنام من اللصوص وكان عددها في الحقل الذي يقع قرب هيت كثيره لأن هيت كانت مشهوره في ذلك الزمان باللصوص.. وفي هذا الزمان أيضاً كانت هيصة الكلاب في الليل من هبهبه ونباح وعويل حتى ممارسه الجنس بينهم كانت بالليل. كانت القرى جميعا في الليل لا تسمع غير صوت الكلاب ونشاطها أياً كان نوعه.. ولم يكن هناك واحداً في أي قرية إلاً وقدر بّي كلباً أو كليين أو ثلاثة.. كانت الذئاب والثعالب تملأ الغيطان وتقترب من بيوت القرية في أي وقت لتلتقط الفراخ والأوز والأغنام.. وكان اللصوص ينتشرون في أي مكان يسرقون الحيوانات والذره والقمح من الأجران في الغيطان.. حتى أن واحداً من القرية كان فقيراً جداً لكنه كان يقتنى كلباً جامعاً.. وكان متزوج بإمرأة جميلة ومضت سنوات عليهما لم ينجبا فيها فبدأت المرأة تمقرعه بعدم قدرته على الخلف وكانت تهجره في الليل وتنام فوق السطح وذلك في ليال الصيف.. وفي ليلة أخذ الكلب يهبهب وينبح بشدة يطلع إلى السطح فيرى شيئاً عجيباً فيترل منادياً صاحبه الذي ينام فوق المصطبه خلف باب البيت.. إستيقظ صاحبه فوجد

الكلب يطلع إلى السطح ثم يتزل إليه كأنه يناديه فلمّا أراد أن يسكت الكلب طلع خلف الكلب فوق السطح فوجد زوجته مع جاره يمارسان الرزيلة.. وبعد هذه الحكاية التي إنتشرت في أنحاء القرية بدأت النساء تكره الكلاب خاصة في الشوارع والحارات الفقيرة التي تكتظ بسكانها الأجرية من عمال الزراعة والفلاحة.. وكانت حكايات السطوح كثيرة في هذه النواحي وكان عواء الكلاب ونباحها له معان كثيرة.. ولم تكن تستطيع أي قرية في هذا الزمان بشوارعها وحواريها بيوها الفقيرة أن تستغنى عن الكلاب لما لها من فوائد..

تحرك ركب عودة الست حميدة وولدها حسن من بيت أحمد فوده بتلوانه إلى شنشور.. وكالعادة سحب عبد العظيم الحر جبل حمارة السيدة وولدها فتقدّمًا الركب.. بعده أحمد فوده بركوبته ثم محمود وحداد متجاورين فإذا ضاق الطريق تأخّر حداد وقدّم محمود..

كان أول الكلاب الذي إعترض طريق القافلة هو كلب الشاعر رمضان شبايك من أسوء الكلاب قرب بيت أحمد فوده لدرجة أنه كان يريد أن يقزح على ظهر كل حمارة من شراسته لكن عبد العظيم الحر قطعها لما رجع إليه بعصاته، بعد ذلك لم تقابل الحمير كلباً واحداً حتى كوبرى الصيادين (المعروف بكوبرى أولاد الشاطر)، من بيت رمضان الشاعر وحتى الكوبرى كان هناك مجموعة من البيوت الطيبة المسالمة التي كانت كلابها مثلهم لدرجة أن كلاب هذه البيوت كانت تهرّز زيلها للقافلة.. هذا بيت الشيخ محمد عبد المقصود الرجل الذي يمشي حافياً في بعض مساحات

الطريق التي يشعر بأن فيها موتى تحت قدميه ثم يرتدي حذاءه في مسافات أخرى من الطريق وهكذا يحمل حذاءه تحت إبطيه حسب ما يمليه عليه الخاطر، وهذا بيت محمد العويني الذي كان يقف أمام بيته ويمسك برقبة كلبه الذي سكت عن الهبهبه خاصة عندما قال محمد العويني محياً.. إزَيْك يا عبد العظيم يسعد مساك.. سلام عليكم يابه أحمد بالسلامة والأمان.. وكان يحرف رجل شنشور.. أهلاً وسهلاً بكل العوافي (جميع عائلة أبو عافية) ولما مررنا على دار سيد الجحش لم نجد كلباً ولكن حماره كان مزعجاً فراح ينهق وكأنه يرى عفريتاً طلع عليه من المسقاة التي تمر من أمام بيته وتحمل المياه للأراضي حتى مكنته محمد رضوان.. كانت دور ابراهيم عماره وعفيفي نصر ومحمود المنوفي ورشدي عماره ومحروس شبايك وغيرها دون كلاب على الطريق ويبدو أنها كانت في الداخل تغفو.. حيث أبلغ عبد العظيم القافله بعد أن اجتازوا كوبرى الشاطر.. أن هذه الكلاب تنام لأن أصحابها يكرمونها بالطعام.. جتهم قطيعة الكلاب كلها وملعون أصحابها اللي بيسيئوهم يقطعوا الطريق..

غير أن الطريق من كوبرى الشاطر ماراً بدار علام الصياد والمدرسة الإعدادي والوحده العلاجية بالبلده ثم السور الذي في داخله ستكون فيلا المستشار عبد القادر لم يكن به كلباً واحداً وكان نهاية أرض تلوانه توحى إلينا بأن البلد ليست كلها كلاب.. الكلاب في الأطراف والكلاب الجائعة مثل أصحابها هي التي تقطع الطريق وبدون إطعام الكلاب فإن في داخل البلده بيوت كثيرة جدا بدون كلاب.. وعلى يمين الطريق بعد سور الفيلا كانت صفحة

مياه البحر قد إنكشفت وأن البحر يمتلئ بالكثير من مراكب الصيادين.. وكانت طبله صيادي السمك فوق مراكبهم أجمل من صوت النباح.. لقد تعود الصيادون أن يضربوا بطبولهم في هذا الوقت حتى يخاف السمك ويندفع من وسط البحر وأعماقه إلى الشاطئ فيدخل في شباكهم (الجبي) التي نصبوها قرب الشاطئ، وفي الواحدة والنصف تسكت دربكة المراكب يكون بعدها قد دخلت أرزاق السمك (أرتال السمك) جى الصيادين وقرب بذوع الشمس يقوم الصيادون مرة أخرى لانتشال السمك من شباكهم (الجبي) وهي أدوات مصنوعة من السلك الضيق تشبه البراميل ولها فتحة تدخل السمك ولا تخرجه ويوضع في هذه الجبي طعام من الدقيق ومواد أخرى مجبوسة كأنه عجين لا يسهل ذوبانه بسرعة حتى يغوى السمك برائحته النفاذه.. ففي هوجه السمك هذه يدخل السمك ولا يخرج.. وهكذا تفنن الصيادون في كيفية جلب الأرزاق..

كانت طبله الصيادين أحلى صوت سمعته القافلة لدرجة أن الست حميدة قالت لطفلها حسن :

- سامع يا حسن.. شوف البحر والمراكب.. شوف الطبله الحلوه..

إستيقظ حسن ولو أنه كان يتكلم لقال لأمه :

- هناك فرق يا أمي طبله الصيادين في تلوانه وطبله عثمان أبو عوف في شنشور..

أحست الست حميدة بذلك فارتاحت نفسها قليلاً وهمست كأنها تكلم حسن.. ياموزع أرزاق الصيادين في بلدنا وزّع صبري

على أيامي.. يارب ما طلع الطلعة دي تاني.. ياشنشور يابلد ولادي
إرحميني وارحمي ولادي.. ياشنشور كلك قساوة ليه أرضك
بتطردني ليه.. ليه أهلك فيها دردير وحسين ليه ما يكون كل أهلك
زي قطب شاويش ومحمود سلفى.. يارب.. وسالت الدموع من
عينيه وكادت تنتحب واحتضنت حسن الذي إستيقظ وبدا عليه
سروراً هكذا أحست أمه به فقالت:

- إنت فرحان علشان دخلنا على قلتي الناس الطيبين.. إنت
عارف يا حسن إن قلتي فيها حته مننا.. فيها عمتي هانم أطيبت
في الدنيا اتجوزت عبد الحميد عبد العال أطيبت راجل في قلتي..
تعرف يا حسن الراجل ده كل ما حد يسأله عن أي حاجة يقول إيه
قبل ما يجاوب.. والله..

- إزيك ياعم عبد الحميد..

- والله كويس..

- زرعت القطن ياعم عبد الحميد..

- والله زرعت..

- إزي عمتي معاك ياعم عبد الحميد..

- والله عال..

ربما من فرط أملها في الله كلمت الأم إنها حسن بصوت سمعه
عبد العظيم الحر وكان الرجل يتسم ويهز رأسه وكان يقول هامساً
لنفسه :

- الله يفتح نفسك يابنت الناس.. الله ينصرك.. على أد عذاب
السكك اللي إنت شفتيه يدّيك ربّنا..

إجتازت القافلة الكوبرى الكبير الذي يقع على البحر ويصل قلتي
بتلوانه وبلاد أخرى.. دخلت الركائب أرض قلتي ولم تقابل القافلة
كلباً واحداً.. حتى مرّت القافلة على آخر بيت في قلتي وهو بيت
الأرمله فايقه التي قدّمت لهم القنطرة في الليلة التي لا يعيدها الله..
ومرة أخرى إجتازت الحمير عزبة سعد عمر.. وكأن الله يريد أن
يريح قلب قطب شاهين الذي أيقظه الله في تلك الساعة وقعد أمام
بيته كالعادة فإذا به يجد نفس القافلة فراح الرجل يطق بالكثير :

- يا الله.. نورت ياست الناس.. أهلاً ياعم أحمد يا أصيل
ياريت في كل البلاد زيّك واحد..

آه يا حاج ربّنا يريح بالك.. خلّى بالك من عيالك خد بالك
من مراتك أم ولادك بالدنيا يا حداد..

الله يبارك لك يا حاج محمود.. الحمد لله.. إتفضلو إتفضلو..
والله هاتنوروا بلدنا.. الله الله أكبر..

ركب قطب شاهين حمارته وجرى إلى عبد العزيز الصاوي في
غيظه والذي وجده جالساً عند الساقية ومعه بعض الأنفار أخبره
بعودة حسن وأمه وأن الذي سعى فيها محمود أخوه.. إبتسم عبد
العزيز وقال :

- رأيتهم بأم عيني وفرحت فرحاً ما بعده فرح بعودة الرجل إلى
رشد.. وياريت ما يعملها تاني..

- رَبَّنَا يَقْطَع الدَّرَاوْشَةَ..

- خَالَته هِيَ سَبَب المَصَائِب.. يَقُولُوا إِنَّ عَبْد الرَّازِق الْوَرْكَ هُوَ
الَّذِي يَكْتُب السَّحَر..

- هُوَ مِنْ عَبْدِ الرَّازِقِ دَه..

- وَاللَّهُ مَا عَرَف..

- يَعْنِي إِيَّاهُ وَرَكَ..

- وَاللَّهُ مَا عَرَف..

- أَسْأَلُ مِنْ..

- أَسْأَلُ أَبُو لَبْدَةَ زَرْقَهُ بَايْنَ عَلَيْهِ قَرِيْبَهُ..

- رَبَّنَا يَقْطَعُهَا وَيَقْطَعُهُ أَهْمُ زَيْ بَعْض..

- دَا عِنْدَهُ كَلْبٌ قَاطِعُ الْخَارِجَةِ كُلِّهَا..

- أَهْوُ كَلْبٌ مَرْبِيُّ كَلْب..

- وَبَعْدَيْنِ فِي الْكَلَابِ دِي..

- عَمَرَهَا مَا هَتَمَوْتَ..

"أم حسن من جديد"

لم تنم لبيبة طيلة الليل.. إنها حزينة منذ علمها بأن محمود أخذ حداد وراحا يردّان حميده.. لكن حزنها زاد أكثر لأن حداد لم يأت إلى غرفتها حتى الآن، إنه دائماً حتى ولو كان تعبانياً يأتي إلى غرفتي لينام على الكنبه أو إلى جوارى في السرير بعد أن ينقل سعاد إلى الكنبه.. إنه حتى لم يكلمني ولم يقل لي أي شيء كأنني غير موجوده.. هل إنقلب علىّ هل غير من أسلوب حياته.. خرجت من غرفتها حافيه.. وارتب باب المندره فلم تر أحداً نائماً على أي كنبه.. سقط قلبها من صدرها.. فزعت هلعت.. فتحت باب الوسط.. إقتربت من باب الخزنه لتسمع أي شيء لم تسمع شيئاً.. وارتب باب الخزنه.. وجدت حسن وحده نائماً في سريره والكنبه خاليه.. يالهوتي يا حسرتي يا حرقه قلبك يا لبيبه.. إقتربت من باب القاعه سمعت همساً.. هل تطرق الباب لتقلق من الداخل.. هي معه.. أخذها بدل أن يأخذني.. لماذا وأنا وهل تغيرت هي حتى تأخذ.. من الذي دعاه إلى ذلك.. هل ذهبت إليه في المندره وأخذته.. أم هو الذي ذهب إليها في الخزنه ليأخذها إلى القاعه.. وضعت رأسها فوق باب القاعه لتسمع.. باب القاعه مقفول بالترباس من الداخل.. تسمع صوتين يتهاامسان يتعاتبان.. تضحك.. حميده تضحك ضحكة النسوان. فاضل لي إيه.. مابقاش ليه حاجه.. لاولاد ولا راجل كمان..

كان حسن في سريره قد شعر بدخول أبيه الغرفه وجلسه بجوارها على الكنبه وسمع حديثهما :

- إزّيك نوّرت دارك..
- إنت كويس..
- أيوه.. المهم ما ترعليش..
- هاستحمل كل حاجة علشان ولادي..
- أنا عايزك..
- أوي يا حداد..
- إنت نايمة..
- ولو نايمة.. أجيلك القاعة..
- الله يرضى عليك أيوه تعالى..
- عينيه يا حداد..
- إنت راضيه عني أوي..
- ومارضاش ليه وانت أبو ولادي.. أنا كليّ تحت أمرك..
- ودا كان فين من زمان.. مين عدلك..
- الزمن.. هانسي الليّ فات ولّي حصل في أول أسبوع
اتجوزتك فيه..
- معلش أنا غلطان..
- طيب روح بقه.. أنا جايه.. أحسن الولد هايصحي..
- كانت هناك شعرة تصل قلب حسن بقلب أمه سواء تكلمت أو
صمتت وكانت أذن حسن تسمع شخير أمه عندما تذهب في النوم

وكان ينام نوماً عميقاً على صوت شخيرها، ورغم أن عمره لم يتجاوز سستان إلا أنه بدأ يعي ويلاحظ بالفطرة.. سمع أبوه مع أمه وسعد لأنه عندما أيقظها وتكلم معها لم ينتهي ذلك بغضب أو شتيمه كما كان من قبل ولأول مره سمع أمه تتكلم في طراوه ودلال مع أبيه غير أنه شعر بالغيره.. راح يتحدث نفسه.. ثرى أين ذهبت مع أبيه.. لماذا تتركه وحده.. لماذا لم يشتمها مثل كل مره (جتك نكد.. جتك الغم).. قلق حسن ولم ينم مرّت عليه ساعة وهو يتقلب في فراشه.. لا فائده لابد أن يقيم ويخرج إنه يريد أمه.. كان السرير عاليًا فكاد ينقلب على الأرض وهو يتزل.. كأنه رجل كبير مشى حافياً حتى باب الخزانة (الغرفة) فتح الباب دون أن يحدث جلبه.. وارب الباب فقط ليرى باب القاعة مقفلاً ورأى أمه لبيبه تحتضن الباب برأسها.. ماذا بالداخل.. ولماذا تتسمّر هكذا في الباب قطع الطفل إندهاشه وسكت عن تساؤلاته لأنه لا يستطيع أن يجيب عليها.. لكنه أيقن أن أمه مع أبيه في داخل القاعة.. لكن لماذا تقف لبيبه هكذا إنه لا يعي أكثر من ما يرى.. وفي عصبه بأعلى صوته :

- إمبوه.. إمبوه..

فوجئت بندائه ففزعت وسقط قلبها من صدرها إبتعدت عن الباب خطوه وكانت تريد أن تقول بصوت عال.. ياهوي.. ياهوي.. وجدته واقفاً لا يحيد عن طلبه..

- أمه.. أمه.. أمه فين.. ميه.. مي..

لم تكن تستطيع أن تلبّي طلبه في هدوء إنها لو فعلت وخرج من في القاعة سوف يقولون ماذا تفعل هذه هنا وربما يعتقدون أنها هي

التي أيقظت الولد.. إنقلبت حافيه مسرعه.. اجتازت باب الوسط
ودخلت غرفتها.. رفع حسن صوته.. واربت الباب.. إقترَب صوته
من أذنها وراح الولد يصرخ خبطت بايها ورزعت باب الوسط.. إنه
أيقظها فجاءته تلبى نداءه.. بصوت عال :

- يا حبيب قلبي.. عطشان.. فين أمك..

دخلت الزريه.. وقاعة الغموس.. مافيش حد.. حتى تُسمع من
بالداخل..

أخذت كوباً زجاجياً من على منضده الطيبخ بالصاله وملأت
الكوب من القلّه وجاءته مهله..

- يا حبيبي ياروح قلبي إشرب..

شرب ولّما بلع الميه سعل وقال وهو يمسك بكتفها شيليني.. فين
أمي..

ضحكت ضحكه النسوان.. فين أبويا.. مش عارفه يا حبيبي..

وراحت وهي تحمله وتمشى به في شكل دائري.. أمام الفرن
وقاعة الغموس ودرج البيت حتى ألها إقتربت من الكنيف ومنه إلى
باب الخزنه وتربتُ بيدها على ظهره في رفق.. وطفقت تغني :

- نام يا حسن نام.. هاجيلك جوزين حمام..

تغنّى بصوت عال وتلف وسط الدار الداخليه وعندما تصل قرب
باب القاعة تنظر إلى الباب شذراً وفي غيط ولسان حالها يقول:

- إطلعي يا مفجوصه.. إطلعي بقه كل ده ومش سامعه إبنك..

حتى أنها دخلت الزريبه ووضعت حسن فوق ظهر الحماره وعلا صوتها بالغناء لدرجة أن عبد النبي هاده الرجل الذي تشتمه مراته فتوح كل يوم الصبح شويه وتصبحه بالوطه كان فوق السطح في هذه الساعة قال في نفسه وهو ينظر من فوق سطحه إلى شباك زريبه جاره :

- هو فيه ناس فايقه كده.. من كتر السم إللى بتحشوه في بطونكم عمالين تغنوا..

سمعت لبيبه صوتا فأدركت أنه هو .. فخرجت من الزريبه تجنباً لعدم سماع هذا الجار النكدي خاصة وأهم كل يوم يشبعون من كلامه وردحه هو وفتوح مع بعضهما فيقفلون شباك الزريبه لعدم سماع هذا القهر الصباحي.. ولما خرجت إلى وسط الدار فوجئت بجدار يوارب باب القاعة ويقولها في شئ من الغضب :

- سكّتي الواد يا لبيبه..

وهي تتمايل له :

- يعني صحيت.. فين أمه..

- جوّه..

- يالهوي ومش سامعه عياط إبنها..

- الواد ما بيعيطش إسقيه ودخله ينام بلاش دوشه يا لبيبه..

- طب بكفايه كدة طلّعها.

- خلّي عندك دم واختشي.. دخلّي الواد في سريره وروحي

قوضتك إترزعي..

- أنا دلوقتي أترزع.. قلبوك علىَّ يا حداد.. طب يانه يا انت..
طب يانه يا هي..

- روحي يلعن أبوك وأبو أبوك.. أقسم بالله أرمي عليك يمين
الطلاق عالصبح روحي جتك الغم من بدري..

ويبدو أن الطفل سعد بجوار أبيه معها فسكت وقال لها بعد أن
إطمأن على أمه:

- أناام .. أناام..

أدخلته في سريره وهي تبكي بصوت مسموع في حرقه.. إنه لم
يشتمها ويلعنها من قبل.. إنه يقسو عليها لأول مره بصوت عال
وامام ضرّتها.. إنقلبت إلى غرفتها باكيه حزينه كالجنونه.. تهزي :

.. هيَّ عملت له إيه.. أد كده هوَّ عايزها.. طب والله لانا لا
هي..

نمت ساعتين مطمئناً على سعادة أبي وأمي بعدها قمت في
الضحى وفتحت باب الخزانة في رفق ربما أجد شيئاً مثل الذي رأيته
في الليل.. وجدت أُمِّي تجلس أمام الكانون تشعل النار تحت حلة
كبيرة وتجلس على كرسي خشبي يعلو الأرض بقليل.. وفي بيتنا
كثير من هذه الكراسي يستخدمونها وهم يستحمون في الطشت أو
يحبسون البهائم وهم يشعلون النار في الكانون أو يخضّون القشطة في
القربة أو يقعدون أمام طشت الغسيل.. وكان النجار دردير حرب
والذي يعيش في شارع أبو سمك هو النجار الوحيد الذي يقوم بعمل

هذه المقاعد للدور الكبيره ولم يكن هذا النجار ماهراً فهو يجيد فقط
عمل هذه الكراسي وعمل الطبايى.. شعرت بي أمي وأنا أقف
فالتفت نحوى وهي تبسم إبتسامه تملأ وجهها وقالت مداعبه :

- برضه عايز إمبوه..
- لأ.. هّي فين لبييه..
- مرزوعه في قوضتها..
- عايزها..
- لأ..
- طيب خش نام..
- فين أبويا..
- راح الغيط..
- مبسوطه يامّه..
- أوي..
- كده عايز أعمل حمام..
- تعال..

وأجلستني فوق القصريه بالقرب منها وراحت تغني وهي تدخل
جدر الشجرة الناشف في داخل الكانون، وتارة أخرى تقول لأم
إبراهيم.. هات حطب من فوق.. إملي القلل.. رشي البيت كله ميه
وبعدين أكنسيه وكانت أم إبراهيم تقضي أعمالها ولما تنتهي تقول
لسيدتها :

- وايه تاني يا أم حسن..
- عيبك إنك مابتعرفيش تحلي البهائم..
- معلهش يا ستي ساحيبي مشوار الغيط بعيد.. على فكره الحلّه بتغلي.. هذى النار بتغلي..
- زمان الحاج جاي وجايب الجدي..
- الحلّه الكبيره دي علشان الجدي..
- أيوه .. هايدبحه ويقطعه في الغيط ويجيبه..
- بس النهارده مش الخميس..
- دا عشان الحاج فرحان أوي وقالى هادبح جدي علشان النحس يتفك..
- باين عليك راضيه على الحاج النهارده..
- مهما عمل هوّ أبو ولادي..
- والني يابنت الناس شوفيه عايز إيه واعمليه..
- عملت..
- ربّنا هايكرمك في ولادك..
- يعني لّما مشيت كنت زعلانه..
- كنت في عز القهر آجي الصبح أكنس الدّار وأمشي.. أقعد لمين..
- ما ساعدتيش لبيه..
- أساعدها ليه طول عمرها واخده عالشغل في بيت أبوها النسوان بتشتغل في الدار والغيط..

- طيب خدي حسن شطفه رنضفي القصرية..

- حاضر..

كانت أم إبراهيم تحملني كثيراً فأضربها بقبضة يدي على كتفها وظهرها وما كان منها إلا أن تضحك وتقول ضرب الحبيب زي أكل الزبيب.. وكانت في كثير من مشاويرها القريه إلى البقال تحملني على كتفها في الراجحه والجايه وكان أهل الدور يقفون أمام بيوتهم ليتفرّجوا على حسن.. وكثير من النساء والفتيات يهرولون خلفها ليقبلوا حسن.. وكانت أم إبراهيم تهرب منهم مهرولة نحو الدار أو الدكان، وعندما تصل إلى البيت حامله ما إشتريته تضعه أمام أمي قائله :

- قل أعوذ برب الفلق..

- حد شافه..

- كل النسوان بتجري عشان تبوسه..

- هات البخور ودوّر الراديو يمكن يكون فيه قرآن..

وتسرع أم إبراهيم لتشعل قوايح الذرة الناشفة في المنقد.. وكان في البيت عدد من مناقد الفخار الصغيرة للبخور أو لتسخين العيش والبتاو ومنقد كبير عال من النحاس إشتروه من أشمون في عطر أمي (تجهيز أمي) هذا المنقد الفخم لا يستخدمه غير أبي في غلي اللبن في الصباح أو المساء فوق فرن القاعه في الليل أو في الصباح.. ويستخدمه أيضاً في عمل الشاي وتسخين العيش والبتاو أو في تسخين طبخ كلما لزم ذلك..

في هذا اليوم جاء أبو حسن من الغيط وأمامه جدي تمّ ذبحه
وتقطعيه في قفه أمامه ودخل بالحماره البيت حتى وقف أمام زوجته
التي هلعت إليه وأخذت القفه من أمامه وأنزلتها إلى الأرض في
صعوبة وهي تقول كل ده..

- إسمعي نصه يتوزع على الغلابه دلوقتي والباقي طيبه واعملي
فته..

- حاضر..

قامت أم حسن بتقسيمه إلى نصفين ونادت أم إبراهيم قائلة :

- إنت عارفه غلابه..

- الشارع بتاعنا كله غلابه..

إنصرف حداد إلى وسط الدار الخارجي ودفع باب غرفة لبيه
فلم يجد إلاّ سعاد نائمة فقال بصوت عال :

- فين أملك لبيه..

- لبست وطلعت..

- راحت فين..

- ماعرفش..

وخرج الرجل قاصداً بيت خاله ولما دخل من الباب زعق
بصوته :

- فين لبيه..

وردت عليه فهيمه مرزوق وهي أرمله خاله :

- جَوَّه خالص دخلت قوضة أبوها..

- بتعمل إيه..

- ماعرفش.. بس باين عليها جايه غضبانه معاها بؤجه هدوم..

دخل عليها فوجدها ترتدي جلباب البيت ولما وجدته أمامها
زرفت الدمع ثم راحت تبكي بصوت عال فقال وهو يقترب من
جلستها فوق مصطبة القوضه :

- جيتي ليه..

- هُو أنا ليه مكان عندك..

- إنت مراتي ومكانك في بيتي..

- بكفاية عليك حميدة مش قلبتك عليه..

- أبداً هي برضه مراتي ولازم أصلحها..

- طيب خلاص روح صالحها..

- طيب قومي روحي..

- أروِّح بس ما تدخلش قوضتها ولا تدخلها القاعه ولاحد
يحميك غيري..

- لأ بقه دا إنت إيجنت..

- هُو كده هُو أنا لي حاجة في البيت غيرك..

- وهِّي ليها في زيك..

- هي أحسن مني.. أحلى مني.. من يحميك ويدعك لك
ظهرك.. هي بتعمل أي حاجة زبي..

راح الرجل يقهقه من قلبه ثم قال في حكمه :

- لا إنت أحسن..

- صحيحح ولا بتراضيني..

- وحياة خالي محمد صحيح..

- إذا كان كده أرجع..

- طيب قومي تعالى ورايا..

- لأ هاجي بالليل..

- وليه مش دلوقتي..

- هاوضب نفسي وآجي على سنجة عشرة علشان تشوف مين
اللي حلوه..

- تعالى إعملي حاجتك عندنا..

- لأ.. طاوعني أنا هاجي متوضبه..

خرج الرجل من بيت خاله مبتسماً.. هو في داخل نفسه يريد أن
يعدل بين زوجته وأن يصلح الجميع وأن يكوّش على أبنائه.. لما
خرج نادى لبيه على مرات أبوها ورجتها بأن تذهب إلى فاطمة
مرات سعيد وتأتي بها.. وكانت فاطمة هذه قريه لها من أبيها
وكانت معروفه بعمل الحلاوة وإزالة الشعر ونتف الحواجب
للنساء..

تنحنح وهو يدخل بيته فهلع إليه حسن فأخذه في أحضانه وحمله
وقعد مقابل زوجته فوق مصطبه صغيره بجوار الفرن وقال :

- عملت لحمة الناس..

- عملت عشر أكياس أد بعض شوف إنت وزّعهم..

ونادى أم إبراهيم التي جاءت من عند حوض الطلمبه فقال لها :

- هات مقطف وخدى اللحمة دي.. روجي الأول شارع أبو
سمك وعدّ لها ثلاثه.. وبعدين روجي شارعك كملّى.. خدى منهم
كيسين لبيتك والباقي خمسة وزعهم بمعرفتك..

- حاضر يا حاج.. حاضر.. ربّنا يخليك..

دخل حداد لينام في المندرة كعادته وغطي نفسه بعباءته.. ساعة
من النوم إستيقظ بعدها وخرج إلى وسط الدار الجواني فوجد
زوجه تعمل الفته فقال لها :

- على فكرة إحنا ناسيين لظيمه..

- لظيمه بتاعة الكفر..

- دي بتحبك أوي..

- إنت عايز إيه يا حاج..

- نوّدّيلها على ما قسم..

- وماله.. بس ما عدش لحمة نيّه..

- ناخذ لها مستويه..

- وفته..

- لأ.. نأخذها شوية حاجات من الزرع..

- زي إيه..

- بطاطس وبصل وتوم وشويه جنبه ورطلين زبده..

- وماله كل حاجة موجودة لما تيجي أم إبراهيم تعبيلك..

- طيب هات أكل..

- الفته واللحمة جاهزة.. لسه الملوخية..

- مش مهم هات أي حاجة..

وضعت له طبق الفته وطبق مملوء بلحم الجدى وجلس إلى جواره
حسن يلعب بالملعقة في الفته واللحمة..

وبعد أن إنتهى وصلت أم إبراهيم الذي قال لها :

- حطّي الخُرج على ظهر الحماره (عبارة عن قماش تخين له
عينان مثل غبيط الحماره).

- حاضر..

- حطّي البصل في ناحية والبطاطس في ناحية والتوم مع
البصل..

- أحط أد إيه..

- قانون خمسة كيلو من كل حاجة..

- حاضر يا حاج..

- لَمَّا تَخَلَّصَ إِلَيَّ فِي أَيْدِكَ يَا حَمِيدَهُ.. هَاتِ الزَّبْدَهُ وَالْجَبْنَةَ
وَاللَّحْمَ حَطِيَّهَا فِي كَيْسٍ فِي حُدُودِ كَيْسِينَ.. اللَّهُ يَرْضَى عَلَيْكَ..
- إِبْتَسَمَتْ وَقَالَتْ
- دَانَتْ مَتَوَصَّى بِبِهَا أُوِي..
- دَوْلَ نَاسٍ مَا لَهْمَشَ حَدَّ..
- مَشَ مِنَ الْبَلَدِ..
- مِنَ الْبَلَدِ بَسَ زِي الْأَغْرَابِ لَا أَخَ وَلَا أُخْتِ وَجُوزَهَا مَاتَ..
- وَأَنْتِ الْحَنِينِ..
- كُلْ شَيْءَ بَثْوَابِهِ.. الْوَدَّ حَلُوًّا يَا حَمِيدَهُ..
- إِنْتِ سَحَّابٌ بَتْدَهْلَزْنِي يَاتِرِي وَرَاكَ إِيهِ.. هَا تَتَأَخَّرُ عَنْدَهَا..
- لَا شَوِيهِ أَقْعَدْ مَعَهَا هِيَّ وَبَنْتَهَا..
- وَبَعْدِينَ..
- أَرْوَحُ الْغَيْطِ.. جَهَّزِي الْغَدَا لِنَفْرَيْنِ وَحَطِيَّ أَكُلِ الْكَلَابِ..
- دَا الْكَلَابُ بَتَاكُلِ أَدَ الْأَنْفَارِ..
- لَازِمٌ مِنَ الْكَلَابِ.. الدِّيَابَهُ وَالتَّعَالِبَ وَبَعْدِينَ دَا حَيَوَانَ
أُخْرَسَ..
- قُطِعَتْ الْكَلَابِ..
- مَا بُوَكِي مَرْبِيَّ كَلَابِ..
- كَلَابُ أَبُويَا نَضِيفُهُ مَشَ بِلْدِي..

- كلها كلاب.. آه لو تشوفي الكلاب أول ما روح الغيط ولا
لما تمشي معايا في كل خطوه في الغيط.. دول حته مّنى..

وضعت أم إبراهيم كل ما طلبه الحاج في الخُرج فوق ظهر
الحماره ووضعت أم حسن باقي الحاجات في مقطف..

سحب الحاج حمارته حتى باب البيت الخارجي وركب من فوق
جدر الشجرة المدقوق في الأرض.. وحملت أم إبراهيم المقطف
ووضعت أمامه وقصد الرجل وحمارته طريق الكفر..

نام حسن في حجر أمه وناولته لأم إبراهيم التي أخذته منها
ووضعت في فراشه وهي تُسمّى (بسم الله صلاة النبي.. بسم الله
عليه) وجاءها أم إبراهيم وهي تغمز بعينها لأم حسن :

- رايح للمعدلة بتاع الكفر..

- إنت عارفه كل حاجة..

- عارفه بس مش عارفه كل حاجة..

- إيه إللى تعرفه..

- تقوله يا خال حداد يُخر على طول..

- إنت عارفه ياست الرجاله بتحب النعوميه..

- والست دي ناعمه أوي..

- ما إنت شفيتها لما جت تبارك لك في الجواز..

- شفتها على الماشي لكن ماعرفش عنها حاجة..

- هيَّ ست غير ستات البلد.. خياطة بتفصّل أفرنجي نضيفه
ومتلمعه..

- بتفصّل لحد هنا من بحري..

- بتوع بحري بيلبسوا جلابيب وقمصان بشمار بعيد عنك
نسوان تلاليس.. دي زباينها من بتوع الكفر بنات وستات موضه..

- طيب ما حنا بنلبس نضيف برضه..

- طبعاً يا ستي إنت جيت حسّنت الناحية البحرية.. إنت حتة
منورّه في أبو عافيه لكن.. وسكنت..

- لكن إيه..

- حشمه برضه الستات في الكفر مكشوف وسواريه بعيد
عنك.. والنبي لو كنت راجل وربّنا مديلي لاتجوزت من الكفر..
حريم يفتح النفس..

تضحك السيدة حميدة وتقول - إنت مش سهل يا أم إبراهيم..

- أبداً أنا عايشة في البلد وشايفه وملاحظة.. إنت عارفه يا أم
حسن نسوان أبو عافيه أوحش نسوان في البلد..

- إزّاي..

- رجاله أبو عافيه كل واحد منهم جايب واحده من عيله تانيه
أو من بلد تانيه علشان يعملوا عمليه تهجين وتحسين لنسلهم..

- فيه حد غير حداد..

- محمود جايب مجيده من القطان، ودردير جايب منصوره من
البُكل وصلاح سالم جايب من حمدان، والغندور جايب من
الفخراي وابراهيم عوض جايب من تلوانه.. كله مغير حريم أبو
عافيه الخناشير.. وعلى فكره الحاج أمين جايب من الخضره..

- ياه دا كل العيله..

- الرجاله ليها حق علشان يجيبوا بنات وولاد حلوين..
- هوّ دا اللي حاصل في الناحية البحرية وتلاقي الليّ واخذ على
طول حريم من أبو عافيه تلاقيه مهيب ومراته هباب وولاده زي
تراب المحمه..

- دخلتيني في سكة تانيه بعيد..

- أنا نسيت ياسني إنت عايزه إيه..

- هوّ بيروح عند لظيمه ليه.. لازم تجييلي قراره..

- كل الليّ أعرفه هيّ بتقوله ياخال الحاج..

- قوليلي من حق هوّ ليه ستات كتير بتقولهُ ياخال الحاج..

- أنا طلعت لقيت كده..

- برضه ماوصلتنيش لحاجه..

- يمكن عشان لابس عمه وله دقن وأزهري..

- دا مش كل حاجة..

- يمكن عشان بيرد النسوان الليّ غضبانه..

- بس دي مش كل حاجة..

- يمكن عشان مافيش واحده تتصلح في البلد.. تتصلح صح مع جوزها إلا لازم يصلحها الحاج حداد..
- أكيد فيه حاجات تانيه..
- أسمع أن أبويا الحاج على كان كده..
- لأ وأنا أسمع إن الحاج على كان راجل شاطر في غيطه وزرعه.. غير حداد..
- والله يا ستي أهل مراته اللي بيخسروه وبيوظوا زرعه وواكلينه بلى ومساحة..
- محمود بيحوش أرض ودردير بياكل تسقيه وحداد سايب أرضه فنيه للناس وبيته ولاد خاله وخالته مخلصين على عيشه وبتاوه وقاعه الغموس كلّها جايينها على تحت..
- على فكرة ياستي محمود مش أخوهم..
- إزّاي..
- محمود ابن عمّهم السيد..
- السيد.. والسيد دا فين..
- السيد أخو الحاج على مات قبل سن ثلاثين سنه..
- يعني عمه اللي ربّاه..
- أيوه وكان بيخاف عليه أكثر من ولاده خده معاه الحج وهوّ سنه تلتاشر سنه خاف عليه من ولاد محروس يموتوه..
- ولاد محروس دول مين..

- دول ولاد عم الحاج على.. وكانوا بيكرهوا الحاج على
وأخوه السيد..

- ليه..

- لّما ربّنا إدّى لعلّى والسيد وفتح عليهم بدأ الكره والحقد
والغيره..

- يقولوا ناس زمان كانوا طيبين..

- إلّا ولاد محروس كانوا بيحبوا العنطرة والكبر والأنتكه
والفزلكه وعلشان كده لّما ولادهم كبروا ضيعوا أرضهم كلها..
وكان حمدان شغّال مع نسوان الطلمبه..

- نسوان الطلمبه مش فاهمه..

- دي حكاية طويله يا أم حسن..

- نرجع تاني لمحمود أمه من درويش برضه..

- لأ أمه من الهلاليه..

- ودردير أمه منين..

- من دار سالم.. قُطعت كانت ست مابتقبلش حد وكانت
بتكره حداد كُره العمى لدرجة إن أبوه كان بيخاف عليه من أم
دردير أحسن تسمّه..

- وليه الكره ده..

- الكره ده في أبو عافيه من زمان من قديم من ساعة ما جم
شنشور.. إذا واحد فيهم ربّنا إدّاه كرهه بقيت أهله..

- ومنين بيعجي الكره..
- شوية قُرب من ربّنا يمشي الكره والحقْد..
- والحاج على دا جاب الأرض دي كلها منين..
- هوّ كان أحسن ولاد عمه.. وأبوه حسين كان غاوي ذهب وماكنش عنده أرض كثير لّما مات أبوه حسين فتح الرُّبع (الزلعه) كانت برنية فخار زي براني الزيده.. لقاها مليانه ذهب من كل نوع..
- أنا سامعه إنه كان راجل شاطر لكن كان مظلوم في بيته..
- أيوه ياسي أم حداد ماتت بدري وكانت ست طيبه مالهش في الرجاله أوي..
- وأم دردير..
- كانت ست مابتحبّش حد قلبها إسود وهي أخت محمد سالم ابن عم الحاج على..
- الحب والود والقلب اللّي بيعحب لازم الناس تتربى عليها من صغرها لكن هي المشكلة إن الناس بتدوّر على الأرض والبهايم والفلوس وبس..
- .. وهزّت أم إبراهيم رأسها كأنها تخبّي الكثير وقالت في همس :
- على فكرة حداد كان له أخت اسمها فايقه أكبر منه..
- راحت فين..
- ماتت.. يقولوا ماتت.. وسكتت..

- يانهارك أبيض يا أم ابراهيم بتخبّي .. يعني إيه ماتت ..

- ياسق الله يرضى عليك الناس اللي بتقول مش أنا ..

- بتقول إيه الناس ..

- إن .. إن ..

- هاتموتيني يا أم ابراهيم .. إن إيه ..

قامت أم إبراهيم وخرجت حتى السور الخارجي وفتحت الغرف
كلها حتى تتأكد من أنه لا أحد يسمعها فقالت لها أم حسن :

- أد كده خايفه ..

- يموتوني ياست ولا لى ديه ..

- قولى والله سرك في بير .. أنا عايزه أعرف كل شئ في البيت
اللى أنا عايشه فيه ..

قامت أم إبراهيم وأتكفأت على أذن أم حسن وهمست :

- بيقولوا قطيفه سمّت البنت ..

- يانهار مشوم .. وش عرّف الناس ..

- الأسرار مهما داروا عليها في البيوت بتطلع ولو بعد سنين ..

- مسكوا دليل عليها ..

- هو كل اللي حصل .. فجأة البنت إترمت وراحت ترجع ..

الخبر راح بيت ستها أم أمها بيت الدراوشه يعني .. جُم نسوانهم
كلهم وستها قعدت تهر فيها وتقول لها :

- كَلَّتِي إِيه كَلَّتِي إِيه قَوْلِي يَا بِنْتِي كَلَّتِي إِيه..
- فردت البنت وهي تشهق في النفس قبل الأخير :
- قطيفة إدتنى حاجة بيضه شكل الحلاوة كَلَّتْهَا..
- يَاهَارِي يَاسَوَادِ يَوْمَنَا وَلِيلِنَا عَمَلْتَهَا.. عَمَلْتَهَا..
- وشهقت البنت الشهقة الأخيرة.. وكفوا على الطبق ما جور..
- والحاج على عمل إِيه..
- يقولوا الراجل ستر على نفسه.. دا قطيفه بنت عمه ومش عايز يفضح الدنيا كله سكت واتخرس لَمَّا لقوا الراجل الكبير سكت وحزن ومرض وكان ها يروح فيها..
- مش كان المفروض مشّاها وطلّقها أقل حاجة..
- البيوت الليّ زي دي في البلد كلها كان بيحصل فيها حاجات زي دي وأكبر من كده وبيعطوا عليها.. ما بيحبوش الفضائح والهليله.. وكان أهل البيوت دي سمعاً وطاعة للراجل الكبير زي ما يعمل ويتصرّف هَمّ وراه آمين..
- لكن مافيش إثبات حقيقي عليها إنّها إدّها سم..
- كلام البنت وكل الشواهد والدلائل وتاريخ قطيفه في البغض والكره والشراسه يقول كده..
- وبعدين..
- لَمَّا حداد جه بعد سنين وأمه ماتت بعد سنتين من ولادته..
- أبوه ودّاه بيت سته..

- يعني هوَّ إترى هناك..

- حطُّوا على قطيفه ناس بتشتغل جوَّ البيت لمراقبه تصرفاتها
والكل من الستات اللىَّ بتشتغل في البيت خدو بالهم من حداد وأبوه
نَبَّه عليه بأن لا يأكل في البيت إلَّا في وجوده.. وأعطى لسته أم أمه
كل ما يلزم لإطعام حداد في الوقت اللىَّ الحاج على مايقاش
موجود فيه..

- يعني الفضل يرجع لبيت الدراوشه برضه في الخوف والعناية
وحراسة حداد حتى كبر..

- الحق يتقال آي..

- مسكين يا حداد.. يتيم الأم هوَّ اليتيم الحقيقي. لكن ست
حداد من أبو عافيه..

- مش عارفه..

- إطمئنِّي كل كلامك ده دخل من هنا وطلع من الناحية
التانية..

- علشان بحبِّك قتللك..

- إنت أميره يا أم إبراهيم..

”أسرار في الغيط والبيت”

”كالعادة يعود صاحب البيت من الغيط بعد المغرب.. يربط حمارته في الزريه ويجلس ليتناول عشاؤه في وسط البيت الداخلي مقابل القاعه.. تضع له أم إبراهيم الأطباق فوق طبلية صغيرة بعد أن تكون أم حسن قد غرفت له ما في البيت من طيخ.. بعدها يغسل يديه من طلمبة السور ثم يتوضأ ويخرج لصلاة العشاء في المسجد.. وفي بعض الليال يذهب إلى دكان عبده أبو سعده ليشرب الشاي ثلاث أدوار في كوبايات صغيره ويدخن كرسي معسل من الجوزه (معسل زغلول أو عنتبلي) ويجلس مع صحبته الذين يتعودون الذهاب إلى الدكان كل ليلة وهم أبو عياد وحداد الكيلاني ونصر عبد الحليم وعبد العزيز الصاوي وجميعهم من الموسرين أصحاب الأرض وتجمعهم حكاوي الزرع والقلع والري ومنسوب الميه في الترعه وكيمايوي الجمعيه وتقاوي البطاطس وحكايات جنى القطن وضم القمح وكل هذه الروايات تخصهم لأنهم أصحاب مهنة واحدة وهي فلاحه الأرض، يجلسون على حصيرة وتتوسطهم نار تصهد في منقد فخار إذا كان الوقت شتاءً وكل منهم يلتف في عبائه ويرتدي طاقيه أو عمامه أو شالاً (تلفيحة) يلف بها رأسه، وهناك زكي أبو شاطيه أو عبد اللطيف مليجي أي منهما يقوم بعمل الشاي كل ليلة مقابل ألا يدفع في ثمن الطلبات.. يعمل الشاي على منقد فخار ناره غالباً تكون من قوالب الذره الناشفه وكلما نضبت النار زودوها بمزيد من القوالب أو من فروع الشجر الجافه وأحياناً أخرى يعملون الشاي على وابور جاز.. والنشاط الليلي للدكان

كلما دخل واحد من الزباين وقعد وانعدل في جلسته صاحب الدكان أوتوماتيك ينزل له طلبه من الشاي والسكر.. السكر في قرطاس والشاي في ورقة صغيرة من ورق كتب وكراسات المدارس المرصوصه عنده في الدكان والتي يبيعها التلاميذ للمحلات بعد إنتهاء العام الدراسي، وكانت حتى مطاعم الفول والطعمية في الناحية مطعم زكية ومطعم أحمد داود يبيعون الطعميه في ورق المدارس.. كانت القرية في هذا الوقت في عام ١٩٥٠ وما قبله وما بعده بسنوات كثيره شوارعها ظلماء ولم تكن حتى تضاء شوارعها الكبيره بفوانيس بل كانت الوسيلة الوحيدة لتنوير الشوارع أن النساء والأطفال يحملون لمبات صفيح (لمبات الجاز) يحملونها في أيديهم من البيت إلى الدكان أو إلى الجار لقضاء حاجتهم وكان الموسرين أو القادرين من الرجال والنساء والأولاد يحملون كشافات تضئ بالبطارية، وإذا وجد الأطفال في الشوارع واحداً أو واحده يحمل كشافاً ويمشي به فذلك حدث جميل ويعتبرون صاحب الكشاف من الناس المتنورين والمتحضرين، وكان كثير من الأطفال الصغار إذا رأوا كشافاً في يد رجل أو امرأة فإنهم يجرون في ضوئه الزاهي فرحين ومسرورين بنوره الساطع.. وفي ليال القمر تكون أيام وليال العيد حيث يكثر اللعب في الشوارع وكانت اللعبات المنتشرة (أستغماية، وسرّح كشكه، ولا يتزل ولا يززل، واستوماج) وهي ألعاب بدائية سهلة نشأت منذ نشأة القرى وانقرضت في الزمن الحديث ولم يعد الأطفال يلعبون هذه اللعبات البته، وكما يقول الفلاحون أن ليال القمره هي أحلى ليال الري وضم القمح (حصاد) وكان الناس جميعاً في داخل القرية أو الغيطان

يقضون كثيراً من أعمالهم وزياراتهم في هذه الليالي المضيفة بنور القمر..

وكان أبي في جلسته مع أصحابه في الدكان التي تستغرق وقتاً ما يقرب من الساعتين حتى يكونوا بعد هذا الوقت قد شبعوا من الكلام والحديث، لكن إذا جاء أحد من الخارج ونادى واحد من الصبية لأمر هام ترك الدكان وذهب مع القادم لقضاء مصلحة أو لأمر هام في بيته، لكن في بيت أبي كانت بعض النسوة اللاتي لهن بعض المشاكل مع أزواجهن أو أبائهن أو جيرانهن أي مشاكل تقابل النسوة أيضاً من المطلقات والأرامل فإنه في الناحية البحرية كلها لا يوجد غير أبي لحلها وكان الكثيرون منهم أو منهن يرتضى حله، كان أبي يهوى حل مشاكل الناس وله باع طويل في هذا العمل ونجح فيه وناس كثيرون يعتقدون في كلامه وحكمه وكان مصدر ثقة الجميع، وكان كل أهل الناحية يأتمنونه في حفظ عقود البيع والشراء وعقود الزواج حتى شهادات الطلاق وعقود الشركة الخاصة بالمواشي والأغنام، كل الأوراق المهمة لدى أي رجل أو امرأة ويريد حفظها في أمان الله يذهب إلى عمه الحاج حداد ليحفظها عنده، وكان أبي يحفظ هذه الأوراق في محافظ ورقية يعملها بنفسه من ورق الأظرف أو من أوراق الرسم ويضع كل نوع منها في محفظة ليسهل الحصول عليها في أي وقت وكان يضع أوراق الناس (الأمانات والكمبيالات) في صندوق خشبي قديم ورثه عن أبيه الذي كان يضع فيه الفلوس، وثقة الناس في أبي لها أسبابها فهو ابن رجل موسر وورثوا ذلك منذ القدم، وهو رجل يحفظ كثيراً من كتاب الله لأنه درس في الأزهر عامان ويحفظ كثيراً من أحاديث

الرسول وكثير من الشعر القديم وأقوال الصحابه والحكماء، فلا توجد قضيه أو مشكله إلا وقال عنها آية من كتاب الله أو من حديث للرسول أو من قول للصحابه أو حكم أو بيت شعر له معان، إذا مات فقير كان أول من يمشي في جنازته، الفقير عنده مثل الغني بل يكون حريصاً على قضاء الواجب للفقير والمسكين قبل الغنى، وفي وقت الجدل إذا جار ظالم على أحد شخط فيه وزعق فدفعه عن ظلمه بقدر ما يستطيع كان يعمل الرجل وكان يقضي وقتاً طويلاً في قضاء حاجات الناس وحل مشاكلهم قبل أن يقضي مصلحته أو عمله.. ولذلك كان هناك كثير من الإهمال في زراعة الأرض أو حصدها أو في ريّها فهو في بعض أو كثير من الأوقات لا يكون موجوداً فيهمل الشركه (الأنفار) في أعمالهم في الأرض أو يسرقونه أو يأكلونه أو يجاملوا به جاراً أو صديقاً، وكان الرجل يحل مشاكل الآخرين ولا يحل مشاكله.. فتأثير أهل خاله عليه كان كبيراً لم يتخلص منه إلا بعد زمن طويل، وتأثير زوجته لبيبه كان شديداً وله تأثير شديد على زوجته حميده أم أولاده، وكان الرجل بعيداً عن الناس جميعاً قد تزوج عرفياً بلظيمه البدرى من الكفر، وبعض نساء العاملين في الحقل.. هذه أرملة.. هذه مطلقة.. وكان الرجل يحب جمال المرأة ودلالها.. وكانت نساء الحقول لو كان سايبها على البحري كما يقولون لنال منهن جميعاً فالواحدة منهن تسقط تحت دواعي الحاجة.. بدنجانه.. شوية دره.. شوية قمح.. شوية لبن من الجاموسه.. بواقي الطعام.. كوزين دره.. أمسك بتلايب نفسه وأشبع ميله وحاجته للنساء بالزواج عرفياً سراً من خلف عيون زوجته لبيبه وحميده.. والذي شجعه على ذلك وأقنعه بهذا الزواج

وأنه صحيح طالما الهدف عمل الخير والبعد عن الزنا وحماية النفس ومداراه وستر النساء الفقيرات (المطلقات منهن والأرامل) هو رجل كان في ذلك الوقت يعتبره الناس جميعاً عالماً في الدين وكان قريباً لأبي في فكره وحبه قبل أن يكون قريباً له في الدم.. تزوّج أم العلو وفوقيه وعكيله وستيته وفايقه وكفايه ومرات جبر وبنت الشاطر وقدريه.. لم يجمع أكثر من أربع زوجات وكان زواجه من كل واحدة منهن له أسبابه فكان يحفظهن ويحفظ نفسه وينفق عليهن ويكسوهن وكل هؤلاء النسوة بدان معه أو هو بدأ يتزوج منهن قبل زواجه من لبيبه وكان عمره وقتها أقل من العشرين عاماً بسنوات، بدأ في ذلك عندما حكى لصديقه وقريبه رجل الدين هذا ما يتعرض له من اغراءات نساء الغيط.. وكان لقاءه بهن إذا كن من ملاءة مريان فهذه غرفة التبن أو فرن الزريبة، وإذا كن بعيداً فيذهب إليهن من وقت لآخر.. وتعرض أبي لكثير من الإشاعات بأن له علاقات مع هذه وهذه ولم يكن أحد يعلم حقيقة علاقته بهذه وهذه إلا الله ولم يكن يهمه غير ذلك.. وكان يشعر أنه يقوم بأعمال طيبة وصالحه حين يقضي حاجات كل هؤلاء النسوة زوجاته واحده بعد الأخرى.. حاجاتهن كلها.. حاجة كل منهن إلى الرجل وإلى الغذاء وإلى الفلوس وإلى الكسوة وإلى الحماية.. ولكن كيف تزوج بهن واحدة بعد الأخرى.. هذه مرضت ولا تستطيع العشرة الزوجية، وهذه ماتت، وهذه هجرت القرية وذهبت مع أولادها مصر للعمل هناك، وكانت هناك واحدة منهن تسكن في ناحية بعيدة عن القرية وعن ملاءة مريان ومن شدة حاجتها لأبي كانت تقطع هذه المسافة من يوم بعد آخر وتأتي إليه راكبة دابتها.. فإذا لم تجده في الغيط

دخلت غرفة التبن ونامت حتى يأتي.. وكان الشركة (الأنفار) من واحد لآخر يحافظون على سره وكان كريماً معهم فيعطيههم فلوس زيادة عن أجرهم.. إلا أنه في يوم عمل عنده واحد اسمه فريد طربلي وهذا نفر كان له أم تقول لأبي يا خال وكانت تذهب إليه في غرفة التبن وكانت إحدى زوجاته وكان هذا الولد يعمل وهو صغير عند أخيه محمود ولما كبر قليلاً ترامت إلى عينيه وإلى أذنه أن أمه تذهب إلى الحاج حداد بصفة مستمرة وأنها دائماً تحكي عن خالها حداد أمامه، وكان الولد يسمعها ويسكت ويقول في نفسه.. (طيب لما هو خالها بتروح له تقعد معاه دا كله ليه) وفي يوم لما كبر قليلاً وعينه فتحت قال لأمه :

- يأمه إنت بتروحي عند أبويا الحاج كتير ليه..

- دا خالي .. طول عمره خالي..

- وخالك تروحي له الزريه وتقفلو الباب على بعض بالساعات..

- ياوسخ إنت مش عارف حاجة.. لولا خيره كنا خدامين عند الناس اللي ماتسواش..

- ما انت خدامه عنده مش بتروحي من يوم للتاني بيته تشتغلي..

- برضه خالي.. إحنا مانقدرش نسيب البيت ده..

- ليه هو إحنا عبيد وخدم..

- دي الحقيقة يابني إنت ناسي إنك من سلالة عبد ولاد مخيون..

- أنا عارف كده يأمه.. بس خالك ده من ولاد على..
- ولاد مخيون خابوا من زمان وباعوا أرضهم ماعندهم حاجة هانروح نشتغل عندهم ببلاش..
- طيب ياله نمشي من البلد دي..
- هانروح فين .. إمشي إنت وسييني في حالي..
- هوّ الحاج دا سره باتع أوي كده.. دا مش إنت لوحدك..
- يا كلب يا ابن الكلب سر كل واحد عند ربه.. أنا مش باعمل حاجة وحشه دا خالي.. خالي.. لو تعرف السر هاتقول أمي دي ليها حق وصح الصبح..
- يعني يأمه إنت ماشيه صح..
- أيوه..
- وكلام الناس..
- خلّي كل واحد منهم يدور على أخته وأمه..
- معايا في الشغل على طول وحواليه ليل ونهار..
- أنفار كلاب.. قولي مين.. قولي زي مين..
- فاروق بن عطيات طريده..
- طيب شوف أخته عامله إيه..
- عارفها كويس..
- إنت عارف شأنه دي بتعمل إيه.. واخواتها أربعة..

- سامع يأمه..

- دي متاع علي لكل الموسرين في الملاة.. تحب أعد لك..

- اللي أنا مستغرب له إن إخوانها بيتكلموا على الناس والمصيه
إنهم شايفين أختهم أدام عينيهم..

- يابني دي شنانه دي وارثه.. أمها نبوية وستها هندومه..

- يابني سيب الدنيا تمشي زي ما تمشي وأحسن حاجة إعمل
زي دولت.. إعمل كإنك مش شايف ولا بتسمع..

- إزاي.. دانا راسي إنتولت يأمه..

- بس أملك غير الناس دي.. مش هندومه ولا نبوية ولا
شنانه..

- يعني هو خالك بصحيح..

- أكثر من خالي..

- بس بتقفلو الباب ليه..

- علشان ما حدش يشوفني وأنا باحلب الجاموسة.. بنخاف من
الحسد.. أصل الجاموسة لبنها كثير أوي..

.. عمل بعد ذلك فريد طربلي بعد وفاة أمه عند خاله الحاج..
واستراحت نفسيته كثيراً بموتها حتى لا يتغامز الناس عليه.. كان
يريد أن يكون مخلصاً لصاحب الأرض وصاحبات الدار.. عندما
يذهب لإحضار الغداء أو في حمل نقلة رتش إلى حظيرة البلده كان
كثير الرغى مع السيدة لبييه، وكان يعرف أن نقل أخبار الغيط إلى

البيت من ضمن الأمور الهامة التي تحبها كل امرأة زوجة صاحب أرض وتتوصى بالشريك (النفر) تعطيه قرصه أو كعكه أو جزءاً من فطيرة أو تعريفه أو حذاءً قديماً ينعله في قدمه. وفي يوم تخمرت في رأسه أن يبلغ أم حسن بحكاية قدره مع الحاج في غرفة التبن ولكن كان الوصول إلى هذه السيدة صعباً فهي لا تنكشف على الشركة (الأنفار).. وفي يوم كانت السيدة لبيبة مريضة في غرفتها فدخل بنقلة الرتش وقلبها في الزريبة ثم سحب الحمارة إلى خارج السور وقال وهو يخرج :

- يا ست لبيبة أنا بره (يعني عند باب السور الخارجي).

وسمعت لبيبة فردّت عليه بصوت مسموع :

- أم حسن هاتجيب لك الأكل..

ووجدها فرصه في أن يخبر سيّدة البيت.. دقائق وجهزت أم حسن الطعام ووضعت في مقطف وأخرجت المقطف إلى خارج البيت حيث وضعت فوق مصطبه صومعة القمح وانقلبت إلى داخل البيت حيث وقفت خلف باب الوسط ونادت بصوت مسموع :

- الغدا على المصطبه يا فريد..

وسمعتها فهرول إلى الداخل قائلاً :

- حاضر ياستي..

أمسك المقطف بيد وران بناظره إلى حيث تقف السيدة خلف الباب وقال في همس:

- عايز أقول لحضرتك حاجة يا ستي..

ولم تكن متعوده أن تقول لشريك (النفر) شئ أو تسمع منه
فقلت بحده :

- عايز إيه..

- هاقولك حاجة ياست سر واوعى تقولي أنا قلت حاجة.. أنا
بس علشان بحب البيت ده واللى فيه..

- إيه في إيه..

- واحدة في الغيط إسمها قدره قاعده مع الحاج على طول..

- قاعده معاه فين..

- في غرفة التبن..

- يعني إيه..

- ماعرفش ياست ماقدرش أقول..

- طيب خلاص وانت مالك روح لشغلك..

هرول سعيد بالمقطف وركب حمارة الرتش إلى الغيط وكان
حزيناً وتأكد من أنه مطرود من هذه الدار لأن السيدة لم تلقى
بأخباره أي إهتمام وعاملته في قسوة وأنها سوف تبلغ زوجها
بوشايقي وأنه لابد أن يطردني ولكن بعد علقه ساخنه نالها من
قبلي..

مرَّ يومان ولم يحدث شئ غير أن أم حسن في ليلة بعد عودة أبو
حسن من الدكان وجدته جالسا في المندره وحده فدخلت عليه في
لطف قائلة :

- أقعد معاك شويه..

- أقعدي..

- لبييه لسه ماخفتش..

- إسألني عليها..

- دخلت لها النهاردة وقعدت معاها شوية وعملت لها كوباية
ليمون..

- كويس خليكو كويسين مع بعض..

تربعت على الكنبه وهي تحمل حسن.. وكان الولد يميل برأسه
ووجهه إلى الأمام كأنه يريد أن يتزل إلى الأرض ولاحظت أمه ذلك
فقالت لأبيه :

- هو على طول كده مدلل راسه..

- علشان متغذى كويس من لبن أمه..

- صدقت ولبن.. ولبن..

- تقصدي الفرسه والحماره..

- أيوه والله أنا خايفه الولد يطلع غي ولا مخه تخين..

- خلاص إحنا مش هانجيب تاني.. كفاية عليه كده وافطمييه..

- شويه شويه..

- خلّي بالك أنا كنت زي الغريق عايز أتعلق في أي شئ

علشان إبني يعيش..

- إنت عارف أنا عملت إيه.. بعد السبوع خدته في حجري
وقعدت على السلمّ الفوقاني والفجر بيدنّ وقلعت التريعه وبراسي
عريانه بصيت لفوق وقلت.. يارب حسن.. يارب خلّي حسن
وبارك فيه يارب ما يموت لي ولد تاني..

- كويس وعلشان كده جبت لبن الفرس والحماره من كل بلد
شويه..

- كنت بتجيب لبن الفرسه منين وازّاي تقف الفرسه لحد
يحبها..

- كنت بيجيه من سرس اللّيان واحد عنده فرسه أصيله وهوّ
إلليّ بيحبها وكان مشهور بيبع لبن فرسته للّى زيّ وناس كثير
بيتوصف ليها لبن الفرسه..

- وماكنتش ترفسه..

- كان بيعمل ليها حاجة علشان تحن وتسكت وتبقه زي
الأرنّب..

- كان بيعمل إيه..

- ماقدرش أقولك.. كل حاجة وليها حلال..

- مش مهم أعرف.. كان اللبن غال..

- الإزازه بجنه..

- يعني تمن عشره كيلو لحمه..

- زي كده..

- طيب ولبن الحماره..

- ده كنت باجييه من تلوانه..
- من مين..
- من نجيب شكري عبدالله ابن عمدة تلوانه..
- دا قريبي..
- وعلشان كده كنت بجييه ببلاش..
- ربنا يسامحنا إذا كنّا غلطانين..
- على فكره من الناحية الطبية لبن الحمارة ولبن الفرسه أقرب
لبن إلى لبن الأم..
- معقولة..
- والله..
- ربنا يستر بعد كده والواد مايطلعش حمار ولا فرس..
- يضحك أبو حسن ويقول :
- دي ما تخافيش عليها الواد هايطلع عال العال..
- .. حملت حسن إلى فراشه بعد أن نام في حجرها ثم عادت إلى
زوجها قائلة في دلال :
- عايزني دلوقتي..
- ضحك بصوت عال وقال :
- إيه الهنا دا كله.. ماقدرش أستغنى عنك..
- طيب بالراحة أحسن لبييه تسمع..

- أبوها وأبو أبوها.. هوَّ إحنا بنسرق..

- أد كده مش هاملك..

- إنت زي القشطه..

- وليبيه..

- زي الخيزه..

رئت أم حسن ضحكه لم تضحكها من قبل مثل ضحكات لبيه
التي كانت تسمعها وتقول في نفسها.. ربنا يسد نفسك بتجبي
الضحكة دي منين.. أهى عملتها زي لبيه.. إطمأنت لقربه منها
بكلامه الحلو فقالت له في دعه ودلال :

- طيب ما نت حلو آهه وبتقول كلام حلو..

- ولسه فيه كتير..

- أسكت بقه أحسن بخاف..

- أنا غلبان أوي.. ياريت تفهميني..

- طيب بلاش غلب دلوقتي.. أروح القاعة..

- روعي يا قشطه..

”شأنه والكلاب“

كانت الكلاب في الغيط أنصح وأذكى من بنى آدم.. إستيقظ أبي في ليلة مبكراً قبل صلاة الفجر بساعة فركب دابته وذهب إلى الغيط وكالعادة راح يقرأ القرآن بصوت مسموع، وكان الليل ما زال يرخى خيوطه ولم تكن الليلة قمرية لكن النجوم كانت تنور الطريق.. شئت الكلاب رائحة صاحبها فأخذت تعوي وتزوم وتهز ذيلها وهو عند دار عبد الرازق حجاج وهي دار تبعد عن مكان الكلاب بمائتي متر.. نزل الرجل من فوق ركوبته وزفته الكلاب وجرت أمامه ناحية الغيط فلم ينتبه لقصد الكلاب ودخل الزريبة يمينا، لكنها لم تدعه يدخل أكثر من مساحة فتحة الباب وشده الكبير من جلبابه وهو يصرخ.. بدأ أبي ينتبه فقال لهم :

- فيه إيه.. فيه حاجة..

الكلاب تقرح لأعلى وتجري ناحية الغيط ثم تعود إليه.. أخذه الكلب الكبير من ذيل جلبابه حتى قناة الري الرئيسية.. مشي الرجل خلف الكلاب وهو على يقين من أن هناك شيئاً لإصرار الكلاب على سحبه بهذا الحماس.. قطعوا مسافة فلقه وأخرى ثم فلقه ثالثة ورابعة (الفلقه تعني تقسيمه في الأرض تبلغ مساحتها عشرين متراً طوياً لمُحدده بحدود لأنهم عندما يروون الأرض يروون جزءاً جزءاً (يعني فلقه ثم التي بعدها) أسرع الكلب الكبير حتى وصل قرب نهاية الغيط وراح يهبهب..

سمع صاحب الكلاب تخليع دره بمعنى أن أحداً يقطع الكوز عن عوده.. إسترق السمع فتأكد من أن هناك فعلاً تخليع الكيزان من

أعوادها.. لم يكن الذي يخلع يبالى بصوت ونباح الكلاب وهو
ملخوم في استكمال سرقة ولم يرقى إلى تفكيره أن يكون صاحب
الكلاب آت خلفها.. رآه بأمر عينيه فهو رول نحوه زاعقاً :

- إوعه تجري.. خليك زي ما إنت.. إوعه تتحرك..

توقف الرجل خال الذره وتلعثم :

- معلش يابه الحاج.. ساحني.. أنا.. أنا..

وصله صاحب الأرض وأمسك ذراعه وشخط فيه :

- إيه اللي بتعمله يا كلب.

- أنا غلطان يابه الحاج.. أصل.. أصل..

- أصل إيه ياسليمان..

- مافيش دقيق في البيت..

- تعال قوللي وأنا أدّيك هو أنا بحوش عنكم حاجة..

- لأ والله ياعم الحاج.. بس بلاش النقطة..

- نقطة إيه.. إنت عايز كام كوز..

وناوله صاحب الأرض صفعه قويه على وجهه وبعدها صفعه
أخرى فوق الجانب الآخر لصدغه..

وانهار ييكي بصوت عال يسمعه من على السكه..

- أقعد يا كلب عد الذره..

ويبد مرتعشة راح يعد الذره.. حتى وصل إلى سبعين فقال له :

- قوم خلَّع كمان ثلاثين..
- في دقائق خلع سليمان بقيه المائة.. وقال وهو ينحني :
- أبوس إيدك..
- لأ.. بعد كده هاودِّيك النقطة..
- قلبك كبير يابه الحاج..
- معاك شوال..
- أيوه..
- عبّى في شوالك..
- إنتهى من تعبئة شواله وقال :
- أطلّعه بره..
- برّه فين..
- أوديه الزريبه..
- شيل على بيتك..
- يانهار اسود..
- إنت إللى نهارك إسود..
- شيل يا كلب على البلد.. مش إنت عايز دقيق.. يالّه على دارك..
- يالهوي يابه حداد..
- لا تلت ولا تعجن.. إمشي من أدّامي..

سكتت الكلاب ولم تنبح وتوقفت ذيولهم.. كأنهم شعروا بأن صاحبهم لم يستفد شيئاً وكأنهم لم يفعلوا شيئاً.. شعر صاحبهم بذلك فراح يطبطب على ظهر ورقبة كل منهم قائلاً :

- تعالو.. تعالو.. وطلع إلى حيث مربوط بهائم :

كان سليمان يعمل عند حسين ابن أخت حداد وكان له أخ اسمه صلاح يعمل عند عبد العال شقيق حسين، وثالثهم شوقي يعمل عند أخيه دردير ورابعهم عدوى يعمل عند حسن قريب حداد.. وكانت لهم أخت حلوه متزوجة من أحد الأنفار يعمل عند أخيه محمود.. إسمها شأنه كل يوم قبل الظهر بعد أن تقضي حاجات بيتها في البلده تذهب إلى الغيط.. تمارس نشاطها في جمع أعواد الملوخية الخضراء المتناثرة في حقول الذره، تاخذ الباميه شوية من هنا وشوية من هناك.. تاخذ كوزين دره من هذا أوداك.. تقطع باذنجان وشويه خضار.. المهم كما يقولون تلقط رزقها ويقولون عنها في قريتي القشاشه وأحياناً يقولون عنها النناشه..

عندما تصل شأنه إلى الغيط تذهب إلى حيث يعمل زوجها لتخلع قميصها الأسود وتبدأ في ممارسة نشاطها هنا وهناك وهي ترتدي جلباباً ملوناً دائماً ترتديه تحت قميصها الأسود.. وهذا الجلباب غالباً ما يكون شفافاً خاصة في أيام الصيف ليظهر كثيراً من علامات جسدها المثير.. وكان لها في كل غيط زبون أو في كل دار واحد تعطيه جسدها حتى يكون لها غيطه مشاعاً لها.. لم تكن ترضى أن ترقد لنفر أو عامل.. كانت تحتقرهم وتشتهم وتبلى عليهم لو اقترب أو تمسح أحد منهم فيها.. وكان فراشها لأسياها

بين أعواد الذره أو بين أعواد القمح أو في عشه وسط الغيط أو
خص قرب البحر.. كانت تبتعد عن كبار أصحاب الأرض وتحتشي
منهم وتعمل كأنها مكسوفه وغلبانه.. كانت امرأة زوجة نفر شقيان
وأخت لأربعة أشقاء جميعهم يعملون أنفار عند أصحاب الغيطان
هذه.. كانت قشاشه ونتاشه ورقاده ولكن بمزاج.. تختار من هذه
الغيطان أصحابها ولكن من الشباب لكي تشبع لبيب شوقها المتأجج
دائماً.. كانت فاجرة الغيط ترقد لمن يريد والهدف إخضاع الجميع
لتستطيع الحفاظ على حرية نشاطها بين الغيطان وأن تكون هي
الوحيدة والمفضلة دون نساء كل الأنفار مستغلة فجور عينيها
وجسدها الصارخ في إخضاع الجميع ولم يكن هناك في هذا الوقت
من نساء الأنفار ألد منها فهي ترضى الجميع وفي أي وقت وأي
مكان.. وكان غالبية نساء الأنفار الغاويات يعملن ما يريدون ولكن
في قليل من الحياء وفي الدرا.. يعني لا أحد يراهم خوفاً من أي كلام
أو فضيحة.. وكان لكل واحدة منهن طريقة وأسلوب ولم تكن
تستطيع واحدة ليس فيها شئ يثير الرجل (وحشه) أن تقوم بمثل
هذه الأعمال لأنه لا أحد يقبل عليها ويعمل الرجال أحراراً عندما
يشتمون تلك المرأة الوحشة ويمنعونها من الدخول في غيطاتهم.

كان زوجها يعلم بكل شئ.. إنه لا يستطيع أن يمنعها.. هي
باكسه.. يعني لا أحد يستطيع من أخواتها وزوجها أن يقف في
طريقها فهي امرأة جاحمة لها طموح وكم من السعادة تقريبا عندما
تجلس مع نساء الأنفار في الحارة وتحكي لهن عن أعمالها تلك مع
أحسن ناس في الملاءه.. وهي في نهاية اليوم تجني مقطفاً مملوءاً بكل
أنواع ما في الغيط من طعام.. وإذا استطاع أحد من أهلها أو

زوجها منعها فإن أصحاب الغيطان يغضبون عليهم وقد يطردونهم من أعمالهم فهذه شأنه تعمل لكل أهلها وزوجها الذين يعملون في الغيطان خربوشاً في جنى المزيد من المزاياء.. فكانت شأنه ورقة رابحة لأهلها جميعاً فهي تستفيد وهم يستفيدون ولولاها ما كان لهم كل هذا العشم والأفضليه لدى أصحاب هذه الغيطان..

كان لسليمان ضغينه في نفسه ضد أصحاب الزرع ومّره قال لزوج شأنه حوش مراتك شوبه.. خليّها تدارى نفسها لكن زوجها قال له.. وانت مالك كل واحد حر في بيته خليك في حالك يا سليمان.. وكان سليمان هذا أكثرهم شعوراً بالخزى على أخته ولكن ماذا يفعل الفقراء بين الأغنياء لكي يكونوا أحراراً.. إن الأنفار والأجريه لا يستطيعون أن يرفعوا رؤسهم وهذه العادات والممارسات ورثوها منذ زمن بعيد وأن هذا هو حال مجتمع الشركه (الأنفار) وكما يقول المثل "ماحدش ضرب حد على إيده" شأنه هيّ اللي بتروح للرجالة" شأنه حلوه وفاجره ولها سوقها.. شأنه إذا لم تأتي إلى الغيط أصبح زوجها وأخواتها الأربعة بلا تمن.. فهي التي تعمل لأهلها جميعاً قيمة.. وكانوا جميعاً يعرفون هذه الحقيقة.. فما كان لأحد منهم يداً تستطيع أن تغيّر هذه الأوضاع.. ولكن هل يستطيع أحد من هؤلاء الأنفار أن يتجاوز أو ينتقم أو يشفى غلاً في نفسه..

هذا سليمان يسرق الذره من عند حداد والقمح من دردير هو مستمر في سرقاته كرد إعتباراً أو إنتقام من أصحاب الأرض واحداً بعد الآخر.. رغم أن كل منهما ليس له علاقة بها..

وفي يوم كان صلاح يضحك بصوت عال دون سبب وهو يسير
مع أخيه شوقي راجعين إلى البلده من أعمالهم بعد المغرب.. فسأله
شوقي :

- ليه بتضحك من غير سبب..
- أبداً باخد حَقِّي بس..
- يعني إيه..
- مش شنآنه مافيش واحد في الملاءه إلا..
- ما تكملش..
- وأنا راخر مش هاسيب حقي مع الناس دي..
- ياليله سوده عملت إيه..
- مش الدار اللي أنا فيها..
- أمال رُحت فين..
- إنت عارف بركات قمر..
- أيوه..
- عنده ارض..
- بالكثير فدانين..
- أهو عنده أرض وبس..
- كمّل عملت إيه..
- إنت عارف مراته.. هي..

- شَعَّالَ معاها..
- بقه لي شهرين..
- دا غلبان حرام عليك..
- وهم مش حرام على الملاء كلها في شنآنه..
- هيَّ أختك غاويه كده وجوزها راضي..
- أنا باخد حَقِّي..
- لكن بركات قمر مالوش دعوه بأختك..
- مش مهم.. أهو واحد عنده أرض..
- جت إزاي دي..
- دي حكاية طويله..
- مش مهم أعرفها لكن لولا بتوع الأرض في الملاء كتَّاهَا
نشتغل فين..
- يالَّه نمشي من هنا..
- الليَّ محروق يمشي..

وفي يوم طرد دردير شوقي لإهماله في العمل فأخذه حداد يعمل عنده، وكان شوقي أكبر الأخوة متزوج من سعدية بنت أحد عبيد فرع مخيون، وكان دائما يفتخر أن له نسايب عندهم أصل، ولم يكن عنده عرض بمعنى أنه لا يشم ولا يحس، وكان الحاج حداد لا يرتاح له كثيراً ولكنه كان يقوِّمه.. كيف يجتهد في عمله وكيف يكون مخلصاً لصاحب الأرض، ولكن شوقي كانت له رأس أخرى وتغلبت على رأسه حكاية أخيه صلاح.. فراح ينظر بعين فارغه إلى

النساء اللاتي يحلبن بهائم حداد كل صباح ومساء يقعد أمام كل امرأة وهي تحلب اللبن لكي يرى ساقها العاريه ويعمل كأنه يوالي معهن العمل فإذا بجاموسه لم تحن (أي لا يقبل ضرعها بتدليك يقوم بتدليك أفخاذ البقرة والجاموسة من أعلى حتى تستجيب لأصابع الحلابه) وكان يذهب إلى صاحب الأرض ليحكي له بمجهوده في تسييس البهائم حتى تحلب، وبدأ يولى كل امرأة منهما إهتمامه، واستجابت له المراتان لأنهما كانتا دائماً موضع إهمال من الرجال وبالطبع مرضع إهمال من صاحب الأرض.. وعندما يدخل الحاج حداد عليهما وهما يقومان بعملهما الصباحي والمسائي يقول كلمة واحدة :

- الأمور ماشية..

ولا يقف ولا يقعد معهما ولا يجاملهما حتى بكلمة فكانت كل منهما تشعر بنقص شديد يعتربها.. فلماً جاء شوقي وجدت كل منهما ضالتها فيه لأنه شديد الإهتمام ويعاونهما في إتمام حلب البهائم.. ومّرت الأيام فيها يذهب شوقي إلى دار فكيهه في نزلة البحر مّره يشرب معها الشاي ومّره يأخذ لها كوزين دره ومّره يسرق لها فطير أو رغيف عيش وبدأ يودّها قدر ما يستطيع.. وكانت فكيهه أرملة لرجل كان عجوزاً.. خلفت منه بنت تزوجت في عمر السادسة عشرة صياداً من هيت يسكن في عشه في البر الثاني ملاصقه لمياه البحر..

وكان لها ولد يبلغ من العمر عشرين عاماً يعمل في مصر عاملاً في أحد مصانع النسيج.. كانت وحيدة وهي في كل الأحوال امرأة لها حاجتها إلى الرجل.. وكانت تستقبل شوقي كل ليلة وفي ليلة من الليالي عرضت عليه أن يتزوجها فقال لها أنه يخاف من سلالة العبيد أقاربها أن يقتلوه، بعد ذلك تعمّقت العلاقة بينهما فبدأ لقاءهما

كل ليلة بعد العشاء أو قبل أن يطلع نور الصباح.. وكان ينام معظم الليالي في مرتبط البهائم متحججاً بأن صاحب العمل يريد أن يحرس البهائم والغيط مع الكلاب.. وكان أهل الملائة جميعاً بعد طول وقت قد أدركوا أن هذا النفر له علاقة شديدة بفكيهه.. ولم يكن أحد يجرؤ على مقاومته لأن من يتعرض له كأنه يتعرض لصاحب الأرض.. وكذلك لا يستطيع أحد أن يتعرض لفكيهه لأنها حلابة بهائم الحاج حداد.. وفي يوم كان حداد ودردير يجلسان في وقت الضهرية تحت ظل الشجرة الكبيرة فقال دردير وكأنه ينه حداد :

- الواد شوقي بيروح لفكيهه..

- أهو واحد نجس زي أخته شنانه..

- طيب وها تسكت على كده..

- الموضوع فعلاً بقه عوار في حقّي ولازم أعالجه..

- مشي شوقي من الملائه كلّها..

- عملية قطع العيش دي صعبة أوي هاشوف حاجة تانيه..

- وبعدين يا حداد هو إنت مش مكفّيك مرتين (إمرأتان)..

- مش فاهم..

ضحك دردير بصوت عال وهزّ رأسه وقال :

- قدريه.. قدريه يا حداد على طول عندك..

- دي غلبانه وأرمله بتيجي تحمي نفسها من حرارة الشمس..

- ماشي قلبك حنين طيب ما تقعد في الزريه ما هو فيه ضل في الزريه..

- هي بتخش قوضه التبن علشان تنام شويه براحتها..

- شوف إنت بتلف وتدور على.. بلاش الحرام يا حداد..

وفي حزن وألم قال حداد :

- طالما وصلت لكده هاقولك.. وسكت..

- قول سكت ليه..

- قدره دي.. قدره دي.. وسكت..

- قول.. قول يا حداد قدره دي إيه..

- مراي.. مراي..

وقف دردير على الأرض وراح يضرب الأرض بقدميه وكفاً بالآخر :

- نهارك إسود هو إنت مش مكفيك حد.. وليه..

- ليه إزاي.. واحده جوزها مات وحلوه وهاتيقه مطمع للرجاله وزى ما إنت شايف هي فايره ولما بدأت تقرب مني وتغريني قلت ليه ماعملش عمل طيب ليها ولى..

- يعني إنت فاتحها كل واحدة تعجبك تتجوزها.

- أبداً أنا بحب أحافظ على الناس حواليه وبعدين الشرع محلل اربعة بقدر ما يستطيع الراجل يتجوز طالما قادر..

- دا الناس مفكره إنك مرافقها..

- مش مهم الناس.. المهم ربنا.. وعلى أنا ما بعملش الحرام..

- ياخويا دانت جامد أوي.. أنا مش قادر على واحده..

- دي أرزاق وأسرار..

- طيب ولظيمه بتاع الكفر..

- آه يا دردير تَنَّتْكِ ورايا لَمَّا جِبت أُراري..

- قول.. مرافقها ولا..

- لظيمه مراي يادردير..

أَمْسِكْ دردير برأسه وراح يقول بصوت عال.. يا عالم يا عالم
إلحقوني دماغِي هاتفرقع.. وتركه حداد يقول ويندهش حتى سكت
وتفحص وجه حداد وقال :

- إنت مش بنى آدم..

- أنا فعلا مش بنى آدم.. إنت اللى بنى آدم يا دردير..

- أقصد إنت جَبَّار وها تتجوز مين تاني..

- يا دردير أنا إنسان أعرف كيف أستغل رزقي الذي حبانى به
الله ودا رزق زى الأرض والفلوس والبهام.. أنا إنسان يا دردير
بحاول أسعد الناس وطول مانا لا أغضب الله... ييقه الموضوع
إنتهى..

- لكن لظيمه دي موضه أوي.. دي ست أفرنجي قادر عليها
إزاي.. دانت بجلايه وفلاح..

- هي الست ست أفرنجي أو بلدي عايزه راجل صح يسعدها
ويحميها وهي لقت فيّه كده وأنا حبيت أشوف طعم الستات الموضه
دي.. فيه مانع يا دردير..

- يعوّض ربنا..

- يعوّض ربنا فيك واللى زيك..

- ليه أنا راجل محترم متجّوز واحده بس..

- كده فكرك وصلك.. أقولك إنت راجل خايب وعييط..
يادردير خليك في التسقيه..

- فعلاً يا حداد.. إنت ابن مرة وأنا ابن مرة.. (يعني إمراة)..

- بالضبط كده أنا ابن ستيته وانت ابن قطيفه..

- لكن إنت كده ليه..

- إيه الغلط فيه..

- والله بعد كده طالما متجّوز ماقدرش أقول إنك غلطان..

- خلّى اللى قلته سر بيني وبينك..

- هاقول لمحمود بس..

وقام كل منهما إلى غيطه وكان الوقت يقترب من العصر فتوضأ
حداد وذهب إلى مصلية فتح الله حجاج ليصلي مع الناس جماعة ولما
رجع إلى زريته وجد كل من رجب وشوقي يفرشان الرتش تحت
البهائم فسلم عليهما ثم دلف إلى غرفة التبن فوجد باهما مقفلاً

بالترباس.. نقر الباب ففتحت له قدرية مبتهجة وارتمت على صدره متلهفة فاحتضنها ثم أخذها إلى فراش الغرفة..

نزل أو نزلة عامر هو مكان مشهور يذهب الفلاحون جميعاً (أنفار وأصحاب أرض) إليه يسقون بهائمهم ويستحمون وتغسل فيه النساء القمح والهدوم.. هو منزل (دحديره) تنحدر نحو شاطئ البحر الأعمى في نهاية هذه التزله المنحدرة (الدحديره) تجد طريقاً يحف البحر (شاطئ) فيه أشجار وأوتاد تُسحب البهائم من زرائبها ومرابطها كل صباح وظهر ومساء ليسقيها أصحاب الأرض والعاملين عليها من مياه البحر.. وهذا البحر هو فرع من الرياح المنوفي المتفرع من عيون القناطر الخيرية وتختلط مياه هذا البحر بمياه أخرى تنزل إليه بواسطة بوابخ (مواسير) أو قنوات من الأراضي الزراعية حينما تكون هناك مياه زيادة بعد الري.. هذا البحر اسمه في الخريطة البحر الفرعوني وفي السنة الناس إسمه البحر الأعمى ويبدأ هذا البحر من بلدة كفر الخضره البلدة التي تحف الرياح المنوفي عن طريق الأسفلت الممتد من القناطر الخيرية حتى الباجور ثم شبين الكوم.. يبدأ هذا البحر من كفر الخضره وينتهي عند حدود أراضي ومدينة منوف ماراً بعشرات القرى من مراكز الباجور وأشمون ومنوف، هذا البحر نبع وخير لكل الناس الذين يسكنون على ضفافه في البرين (الشاطئين) فيه من السمك أنواع لا تعد ولا تحصى وينتشر على ضفافه صيادي السمك بمراكبهم الصغيرة وشباكهم ويوتهم وعششهم عند تارة هذا البحر (حرف هذا البحر) من الجانبيين.. الفلاحون في بلدى لهم حكايات مع هذا البحر والصيادون لهم حكايات لأنه مورد رزقهم الأساسي.. ولقد كان

أبي يحب البحر فيذهب إليه ومعه جاموسه أو بقره أو حمارته ليسقيها ثم يدخل البهيمه التي سحبها معه الى البحر إلى مياه البحر لتستحم.. وفي كل مره يذهب إلى نزلة عامر وهي الطريق الوحيد إلى البحر.. ليسقى البهيمه أولاً ثم يدعها تنزل إلى البحر لتستحم وتحت الشجرة ينظر يمينا ويساراً حتى لا يراه أحد وهو يخلع ملابسه وينسل الرجل وهو يمسك عورته بكف يده.. يتزل ليستحم ويسبح حتى منتصف البحر ثم يعود إلى بهائمه ليجرّها إلى عمق ما.. العمق الذي يغطّي الجاموسه حتى لا يظهر منها حتى رأسها.. وكل زيارة للبحر تستغرق ساعة أو نصف ساعة.. إن الذهاب إلى البحر هو برنامج عمل لكل فلاح يسكن في ملاءة مريان.. البهائم تشرب وتستحم وأصحابها وأنفارها يستحمون فقط ولا يشربون.. وكان أبي يقول أن في استحمام البهائم كثير من الفوائد لأن في الاستحمام نظافة للبهيم.. ومياه البحر لو كان هناك بهيم يشعر بالانتفاخ أو به ألم الهضم (عُسْر هضم) فإن نزوله المياه تشفيه وتنتهي تلك الآلام والمياه والاستحمام فيه متعه كبيرة للحيوان وهو مثل الانسان تعيده من جديد إلى قوه نشاطه، وكم كان الأنفار يحاولون منع أبي من التعب والذهاب للبحر فهم سيقومون بهذه الأعمال بدلاً منه إلا أنه كان دائماً يقول أن هذا مزاج له منذ الصغر.. يسقي البهائم ويحميها ويستحم، وكان من فوائد هذا البحر أنه وسيله للإستحمام السريع فعندما كان ينتهي من لقائه بقدره فإن يذهب إلى نزلة عامر حيث البحر ليستحم ويتطهّر ثم يعود إلى رأس غيطه طاهراً.. وكانت كل نساء ملاءة مريان يذهبن إلى البحر لغسل

القمح ونشره على حصير في المساحة المتوفرة بين مياه البحر وحدود
الحقول التي تحف بالبحر..

وعندما ظهر وبان أن شوقي له علاقة أكيده بفكيهه التي تسكن
في بيتها الصغير قرب نزلة عامر.. فاحت أخبارها.. وكان أخوه
محمود عنده علم بزواج حداد من قدريه ولظيمه فوق زوجته كان
يضحك مسرورا بينه وبين نفسه لقوة أخيه حداد، وفي يوم عرج
محمود على حداد وهو يدخل غيطه.. كان حداد يقف متأملا
عيدان القطن.. ناداه محمود :

- حداد تعال..

جاءه حداد - أيوه يا محمود..

- تبقه شوف موضوع فكيهه مع شوقي..

- الناس قالت لي..

- طيب إنت ماترضاش الحرام بيقه حوالينا..

- بس أنا عايز أتأكد..

- كلنا متأكدين.. تعال في أي يوم من البلد بعد العشاء..

- يعني الواد بيروح لها في الوقت ده..

- أيوه.. وساعات قبل طلوع الشمس.. الواد دا نجس..

- أنا عارف..

- دول شغالين عندك وأنت في ايدك تنهي الكلام الفارغ ده..

- معاك حق أنا هاتصرف..

- الله يرضى عليك..

وانصرف محمود إلى داخل حقله وانتوى حداد أن يبيت الليلة في الغيط.. ونبه على رجب النفر الدائم عنده أنه سوف يدخل غرفة التبن لينام قليلاً وعليه أن يوقظه فور ذهاب شوقي إلى نزلة عامر حيث تسكن فكيهه فابتسم رجب وقال في حياء :

- هي وصلتك يابه الحاج..

- خلاص يا رجب زي ما قتلتك..

عندما يحل الظلام في الليل وتسكن حركة المارة على السكة يقعد شوقي عند باب المربط يرقب الطريق المؤدى إلى نزلة عامر حتى إذا تأكد من أن أحداً لن يقابله ذهب إلى دارها.. وكانت حركة الغيطان غالباً ما تهدأ وتخلو الطرق من أي مارة بعد أذان العشاء بقليل.. تابعه رجب حتى دخل شوقي دار فكيهه..

- هرول رجب إلى حيث يرقد الحاج حداد وقال له :

- يابه الحاج.. الواد دخل دار فكيهه دلوقتي حالاً..

قام الرجل ووضع عباءته فوق كتفيه وقال لرجب وهو يخرج من داره :

- تعال معايا.. خليك ورايا بخطوتين..

تنصت الرجل برأسه على باهما.. سمع صوتاً وكلاماً وهمساً.. تأكد أنه بالداخل.. نقر الباب فلم يفتح أحد.. نقره بشده فارتبكت في الداخل وفتحت ترباس الباب وقالت:

- مين..

- إفتحني يا أنيته..

- يالهوي آبه الحاج..

- إفتحني بسرعة وإلا هاكسر الباب..

- لأ هافتح.. هافتح..

دفعها بيده من أمامه واندفع بسرعة نحو باب الغرفة الوحيدة في الدار فوجده يقف في العرقوب وقد تهدّجت أنفاسه وزعق الحاج وتناول قلّه من فوق الفرن ورمأها بكل قوته نحوه فأزاحها شوقي بذراعيه قبل أن ترتطم بوجهه وقال في رجاء:

- معلش يابه الحاج أنا غلطان..

- تعال.. بتعمل إيه هنا..

- كانت عيانه قلت أبص عليها..

- هيَّ عيانه كل ليلة..

- ما هي.. ما هو..

جرّه الحاج بيد وباليد الأخرى صفعه مرتين فالتوى شوقي أمامه ووضع ذراعيه وكفيه فوق وجهه فقال له كفي.. إنت عارف المربط.. روح إستناني يابن الزانية.. فجرى نحو الباب وهو يردّد حاضر.. حاضر.. وانقلب نحو مربط الحاج وهو يبكي وتبعه رجب إلى هناك..

أمسك الحاج بذراعها لحظة وفي اللحظة التي بعدها.. ناولها صفتين على وجهها فصرخت.. وقالت :

- غيتني يابه الحاج ماليش غيرك..

- إنت نجسه والنجس مايجلبش بهايي..

- ومنين آكل.. دانا غلبانه.. إسترتني يابه الحاج.. ماليش غيرك
ماتفضحنيش..

- هو أنا نصير الليّ زيك.. ليك بنت وليك ولد إعملي خاطر
لهم..

- غصب عني.. غصب يا عم الحاج.. أنا عايزة أتجوز جوّزي
مش إنت بتحكم بين الناس وكل الناس الغلابة تحت إيدك.. جوّزي
راجل غلبان ماتفضحنيش أديني قلت لك يابه الحاج..

ولما إنتهت من كلامها شعر بأن قالبا من الطوب ألقى فوق
رأسه كأن أحداً قذفه به من أعلى وقال :
- تعالى ورايا..

خرج من بيتها إلى بيته.. حائراً تائهاً وكان فكيهه قد ألفت عليه
مسئولية كبيرة وأنه لابد أن يعالج أمور الناس جميعاً في الملاء وليس
الحل أن يمنع الناس عن العمل.. ولكن عليه أن يعالج ويعالج ويوجد
حلول وعليه أن لا يفكر في أمر نفسه فقط وأن هؤلاء الناس جميعاً
مسئولين منه ولكن كيف.. خاطر رافقه حتى جلس فوق دكة
النورج في مقابلة المصطبه وأشار باصبعه :

لاذ كل منهما بحافة المصطبه جلست عند حافة المصطبه على
الأرض واستحي هو ولم يجلس ولكنه وقف يرتعش عند الحافة
الأخرى بعيداً عنها فقال الحاج وهو يهز رأسه :

- أختك شآنه مش كده..
- مش قادرين عليها.. جوزها راضي..
- إنت بتاخذ حق أختك..
- أبداً مش معنى أنا..
- هوّ فيه ناس تانيه شغاله..
- الملاءه مليانه..
- طيب.. الحرامي بمسكته.. الحرامي بسرقة.. إنت ليه عملت كده..
- أبداً الدنيا حواليه أكبر مّني.. ومش أنا لوحدي هوّ أنا رحت لها غصب عنها..
- إتجوزها..
- وسعديه..
- هوّ دا الحل الوحيد..
- لكن أهل سعديه يموتوني..
- مالکش دعوة أنا هاتصرف..
- يابه الحاج من إيدك دي لإيدك دي..
- عايزاه يا فكيهه..
- الحلال أحسن يابه الحاج..
- بكره هاجيب المأذون سامع يا شوقي..

- هوَّ حد ما يسمعش كلامك..

ونظر إليها شذراً

- كفاية شنَّانه في الملاءه..

وفي ضعف ورجاء قال شوقي :

- ياريت تلاقي لها حل زي فكيهه..

- أختك متجوزة هاجيب حل منين.. دا شنَّانه بترقد لأي

واحد.. لو كانت حتى مش متجوِّزة مالهش حل لأن هاجوِّزها
تلاتين واحد..

- طيّب ما تنصح جوزها يريَّها ويحبسها في البيت..

- مش ها يقدر عليها لأنها فتحت على الآخر وما تقدرش
تبطل..

- مشيهم من الملاءه..

- هاتروح حتّه تانية تبقيه الدنيا ضاعت في حتت كثير..

- ياريت تلاقي لها حل وشنا بقه في الحضيض..

- هيَّ المشكلة إن مافيش حد منكم ماشي كويس.. شوف

إنت وسليمان حرامي هوَّ شغال في الدرّه وصلاح زيه.. ماعدش
غير عدوى..

- دا مالوش دعوة بحد تضرب تقلب مع نفسه..

- ياريت تمشوا من البلد كلها..

وفي اليوم التالي قام الحاج بتزويج شوقي وفكيهه وارتاحت
الملاء.. ومن هذا اليوم لم يغب عن باله كيف يعالج أمر شأنه..

مرّت ايام بعدها وأرسل الحاج في طلب جوز شأنه والذي جاءه
هادئاً وفي برود جلس أمام الحاج في مرتبط البهائم فقال له في هدوء:
إنت ليه سايب شأنه..

- بتساعدني على المعيشة..

- إنت عارف إنها بترقد للناس كلها..

- ماقدرش عليها دلوقتي ولو حبستها في البيت هاتجيب الرجاله
في بيتي.. خليها بره أحسن.. تروح تعمل في الوسع.. إديني فدان
وجاموسة تبقه لقمتي ملكي الأول وبعدين حاسبني.. إحنا طلعلنا
لقينا الدنيا كده..

- نغيرها..

- مين يقدر يغير إنت ومحمود ودردير تقدرُوا تعملوا اللي إنتو
عايزينه لكن الفقير مايقدرش يعمل حاجة.. يابه الحاج إديني حريتي
الأول.. إديني لقمتي بحق وحقيقي خليني بكدي بس أكفيها وأكفي
ولادي.. لكن إذا كنت مش قادر أكفي نفسي.. ييقه الكل لازم
يطلع يشوف له حل.. إحنا كلنا بنشتغل ويادوب بناكل وعلى
فكرة شأنه هي اللي بتجيب لنا اللقمة الطرية.. الموضوع أكبر مني
يابه الحاج.. يابه الحاج أنا غلبان أوي وماقدرش أعمل حاجة..

- طيب عايز أشوف شأنه..

- أنا سايبها في زريه الشيخ عمار..

- مين معاها جوّة..

- إبنه..

- خبّط عليها وهاتها..

- ماليش دعوه..

- أد كده بقيت ندل..

- ياريت يابه الحاج تدوّر بنفسك ليه أنا بقيت ندل.. وإذا
ماوصلتش الحاجة تعال وأنا أحكيك عن أبويا وجدي..

- أبوك وجدك كانوا كده..

- أنا ورثت عنهم كل حاجة.. تعال شوف حارة حسين
حنضل وحارة أم الرزق الدييه وحارة شعبان فرج.. وشوف الناس
الليّ في الحارات عايشين إزّاي.. يابه الحاج إنت جيت عالوجع
الليّ مالوش دوا..

- طيب روح إنت أنا هاتصرّف..

ومرت الأيام فيها طرد الحاج حسن نفره عدوى لأمر لم يفصح
عنه حتّى عندما سأله قريبه الحاج حداد لماذا طردت عدوي.. فقال
الرجل كده وخلاص مش عايز حد من ريحة شنّانه أدامي.. ضمّه
حداد إلى شوقي ورجب فأصبح عنده ثلاثة أنفار بصفة دائمة وكان
عليه أن يوجد لهم عمل في غيطه..

وكان رجب يسكن بصفة دائمة في زريبة صاحب الأرض وإذا
زهق من إقامته في الزريبة طلع الى المربط لينام فيه، وبدأ شوقي بعد
المغرب في كل ليلة يذهب إلى فكيهه لينام عندها فقد أصبح

زوجها.. ولم يعد غير عدوى الذي لم يتزوج بعد ورافق رجب في نومته فوق فرن الزريه أو في المربط فوق كومة من الرتش.. ومن ليلة لأخرى شعر رجب بأن عدوى ينسل من جانبه في منتصف الليل وأحياناً في الهزيع الأخير من الليل ثم يعود بعد وقت، في أول الأمر لم يهتم رجب بالأمر وقال إنه يخرج إلى أول الحقل يتبول لكن ذلك لا يستغرق خمس دقائق.. وفي تلك الليلة بعد منتصف الليل لما قام عدوي كعادته كل ليلة تابعه رجب.. وجده يدخل المربط ويقف خلف حمارة الرتش.. خلع سرواله وانعدل قليلاً بعد أن وضع تحت قدميه قوالب من الطوب وراح يأتي بحركات غريبة كأنه يدهن جسد ومؤخرة الحمارة بمرهم.. إقترب رجب ليتأكد ماذا يفعل.. يالهوي ياللفظاعه إنه يعاشر الحمارة.. يخرب بيتك ياعدوي هاتروح في داهيه.. آه لو الحاج عرف.. كتم في نفسه الخير واحتار هل يقول لصاحب الأرض.. هل ينصحه هو بالابتعاد..

عن فعلته الشنعاء.. راقبه عدة ليال وشعر رجب بالحسرة عليه وفي ليلة من الليالي بعد أن تناولا شاي الرّكيه في مدخل الزريه فاتحه رجب قائلاً :

- إنت بتروح فين كل ليله..
- مانا نايـم جنبك طول الليل..
- لأ إنت بتقوم وتدخل المربط.. ياعدوي أنا شفتك..
- شفتني إزاي مش فاهم..
- لو كنت بتصلّي عمرك ما كنت هاتعمل كده..

- أعمل إيه.. قولى أنا باعمل إيه..
- ياعدوي بعينه دول اللى هاتاكلهم الدود بشوفك.. بتعمل إيه فى الحماره..
- أنا أبداً.. (وارتبك وتلعثم) دانا بدلك ليها علشان قرّبت تولد..
- طيب بتقلع سروالك ليه.. وبتحط طوب تحت رجلك ليه.. شوف عيب اللى بتعمله ده..
- إنت قلت لآبه الحاج..
- قلت أقولك الأول علشان ماظلمكش..
- طب هاروح فىن إنت عارف أنا مش متجوز وماقدرش أتجوز.. طب قولى أعمل إيه وبعدين هوّ أنا بضرحد.. مش أحسن ما أألف على واحدة فى الملاءه واتفضح زى شوقى..
- بقولك إيه.. هوّ إنت عملت كده عند الحاج حسن.. سرّك فى بير..
- صحيح هاتستر على..
- عيب قول ياعدوي..
- كنت شغال مع الركوبه بتاعته..
- الله يخرب بيتك أد كده إنت فاجر.. وبعدين..
- مسكني بعملتي وخدني من قفايا وعلى برّه..
- بس الراجل دا كويس المفروض كان غرقك فى البحر..

- على فكره الحمامة الركوبه حاجة تانيه خالص غير حمامة
الرتش..

- يعني إنت معلّم حمير..

- خلاص الله يكرمك يا رجب سييني غصب عني وماتقولش
لعم الحاج..

- أنا مختار ماعرفش أعمل إيه..

كانت الكلاب الثلاثة عندما تنام في الليل فكل واحد فيهم ينام
في مكان منفصل عن الآخر.. أصغرهم ينام بين باب المربط وباب
الزريبه والوسط ينام عند الباب المؤدى إلى مدخل الغيط وأكبرهم
ينام خارج باب البيت الرئيسي فوق القنطرة.. وكان العرف بينهم
إذا رأى أي نفر طالع خارج فإنه يكمل نومه لأنه لا خطر أما إذا
رأى أي منهم غريباً يخترق الحدود فإن كل منهم يهره ولا يتركه
سليماً.. كان الكلب الصغير الذي يحرس بهائم المربط يرى عدوى
كل ليلة وهو يدخل المربط ثم وهو يخرج منه فيكمل نومه لأنه واحد
من البيت.. لكن في ليلة من الليالي سمع همهمه وأصواتاً غريبة تخرج
من وسط البهائم بعدها سمع الحمامة تنهق بصوت عال ومستمر فقام
ودخل بين العجل والبقرة والجمل فلم يجد شيئاً لكن في العرقوب
المواجه وجد الحمامة تجتر وعدوى يأخذ سرواله من فوق الأرض
ويرتديه فعوى عليه الكلب وكاد يهره.. لكن عدوى قعد على
الأرض وراح يحتضن الكلب ويقبل رقبته.. وكان يتملص من بين
يديه لشعوره بأن هذا نفر الحديد يأتي بأفعال يراها الكلب لأول
مره..

في صباح اليوم التالي وصل الحاج دار الغيط وكالعادة قابلته الكلاب بزفتها حتى قعد عند الراكية ليتدفأ.. وكان كل من رجب وعدوى يقمّران (يسخنان) بواقي خبز على النار ويغمسانه بالجبنه فراح الحاج يشاركهما الطعام.. جلس الكلبان الكبير والوسط قرب الحاج الذي أخذ يرمي اليهما ببعض بقايا الطعام.. غير أن الكلب الصغير راح يعوعو.. يقترب من عدوى ويصرخ ثم يهرول نحو باب المربط ويدخله حتى يصل الى الحماره ويعوى.. ولما وجد الكلب أن أحداً لا يفهمه.. أمسك الكلب بكم جلباب صاحبه وراح يشدّه إلى المربط فقام الحاج معه حتى وقف الكلب خلف الحماره وراح يعوى عواء الكلاب التي إذا ما سمعها كل صاحب كلاب قال.. هناك مصيبه ماتحصل.. إنحنى الحاج على الكلب وطبطب على ظهره وقال له : تعال.. فتبعه الكلب وهذا قليلاً وقعد خلف صاحبه، وكان للحاج خبرة بالكلاب فهو منذ صغره يعيش وسط الكلاب والحمير والجاموس والبقر.. وكان للكلاب لغة خاصة يفهمها ويعيها ويكاد يفهم كل حركة للكلب ماذا تعني.. جلس الحاج ثانية بين نفريه وهزّ رأسه وقال في ثبات وهدوء:

- يا رجب إيه اللي حصل إمبراح في المربط..

إنفلج رجب

- مافيش أي حاجة حصلت..

- عمر الكلب ما يعمل كده لوحده.. (وران ببصره نحو

عدوى) واكمل :

- مافيش حاجة شفتها إمبراح ياعدوي..

تلعثم وارتبك

- أنا طول الليل نايم جنب رجب..

- يبقه إنتو الإثنين ماتنفعوش.. بياتكم في الغيط زي قلته..

كنت فين يارجب إمبراح.. إوعه يكون ليك صاحبه بتروح لها
بالليل زي شوقي..

- لأ والله يابه الحاج..

- طيب قوم يا عدوي سييني شويه مع رجب..

قام عدوي وهو يرتعش وخرج من زمام البيت حتى وصل إلى
قناة الري الرئيسية للغيط وراح يكلم نفسه خائفاً.. إذا ضغط الحاج
على رجب فإنه سوف يفشى ما فعلته لأنه في النهاية بيحافظ على
لقمة عيشه.. يارب ما يقول.. تبقه مصيبه هاتفضح في الملاءه..
هيقولوا على بتاع الحمير وساعتها الناس دي كلها هاتاكل وشي..

قضم الحاج غيظه وقال لرجب في صرامه :

- بقالك بتشتغل عندي خمس سنين.. آمنتك على غيطي وحالي
كله.. لازم تقول إيه اللي حصل يا رجب..

وراح رجب يبكي.. فhez الحاج رأسه ومُد يده وطبطب على
كفته وطفق :

- قول يا أمين. قول يا رجب..

مسح دموعه بكم جلاباه وشهق ثم سعل بعدها قال :

- يابه الحاج عدوي.. وسكت..

- قول عدوي إيه..

- يي— بي—..

- ياخير أبيض النهارده قول عدوي إيه..

- بينِّل الحماره..

- تقصد إيه.. بيضرها قول إشرح قول الحكايه..

- يابه الحاج بيقوم من جنبي بعد نص الليل كل ليله وبيروح
المربط.. يركب الحماره ويعمل فيها زي ما تكون مراته..

- كويس كويس.. ييقه الحاج حسن مسك الواد بالعمله دي
برضه..

- مش عارف يابه الحاج..

- طيب وانت قلت له إيه..

- نصحته ومافيش فايده..

- إنت رأيك إيه يا رجب.. الواد بعد كده له قعاد عندي..

- الحق يابه الحاج دا واد نجس..

- أنا مش عايز أظلم.. ماقدرشي أقعد واحد زي ده.. دي
كارته..

- صح يابه الحاج..

- مش المفروض ياخذ علقه..

- يستحق..

- خلِّي بالك إن دي حماتي.. بكره يروح للجاموسة وبعد
يروح للبقرة.. وبعده ماتعرفش هايروح فين..

- المثل يقول إقطع عرق وسيح دم في الأمور دي..

- طيب روح هاته..

وضع الحاج كفى يديه على وجهه كأنه يتخذ قراراً..

أتى به رجب.. نظر إليه صاحب الأرض نظره نافذه غاضبه ثم قال في حزم:

- لم هدومك وتعال..

إنصرف ومشى مطأطئ الرأس ودخل من الباب الثاني للدار.. ولم جلبابه وأثمال باليه أخرى لفها في جلبابه وانقلب إلى الحاج فقال له :

- قَرَّب شويه..

(إقترب وأصبح في حوزة ساعديه) بصق في وجهه ثلاث مرات.. ثم قال :

- حرام أمد إيدي على نجس زيك..

إنحني على كفي يديه ليقبلها فأزاحه الحاج قائلاً :

- لوشفتك في الملاء دي تاني هايكون آخر يوم في عمرك..

- سامحني يابه الحاج..

- أسامح إزاي وانت زنيت في داري..

- طب أروح فين دلوقتي.

- البلد واسعة.. روح رحيله روح الحوض.. روح شروحة حسن.. وعلى فكره كل ما تروح حته هايكر شوك..
- مانتش عارف حد في مصر أروح عنده..
- يعني أنا راجل مجنون أبتليه بمصيبه زيك..
- يعني خلاص..
- إمشي من أدامي يا كلب..
- وعلى السكة جرى نحوه الكلب الصغير وهبره من ساقه..

”أسرار البيت الكبير“

كانت أم حسن في الشهور الأخيرة للحمل عندما بدأ حسن يتكلم كلاماً مفهوماً ويمشي بقوة على الأرض.. كانت تقوم بأعمالها اليومية باستطاعت وكانت أم إبراهيم تغني فرحه بقدوم مولود جديد وبدأت السيدة ليبة تسلّم بالأمر الواقع وبدأت نشاطها في أعمال السحر التي كانت توصي بها عمتها أم الرزق دائماً، كانت تضع الأعمال التي تصلها من عمتها تحت خشبة خلف حنفية الوش بعد أن باتت ترضخ للأمر الواقع وأن حميدة بدأت تثبت أقدامها بالفعل خاصة بقدوم البطن الثالثة.. تناولها عمتها أم الرزق الأعمال وهي غالباً ما تكون في أحجية أو كمية من الشعر ملفوفة في قطعة قماش فتقول لها :

- أعمال كذّابه.. زي قلتها..

فتقول لها عمتها :

- أصبري..

شعرت باليأس لدرجة أنها كانت تضع الأعمال عاريه ومكشوفة خلف الحنفية أو صومعة القمح، كانت تصلّي بصفة دائمة في غرفتها، وعندما بلغ حسن العايمان أعلنت عن صلاحها خارج الغرفة.. تفرش مصليّة حصير أمام باب الغرفة وتصلّي وبعد الصلاة تقوم بالاستغفار على حبات مسبحة حباتها تسعة وتسعون حبة لوها بني.. وكان حسن يمشي نحوها وهي تصلّي ويقول.. أكبر ويرمي بنفسه فوق المصلية أمامها فتسجد فوقه في رفق وعندما تنتهي من

صلاحتها تأخذه في أحضانها فيجلس في حجرها قليلاً ويخطف المسبحه من بين يديها ويجري إلى المندره وكان كثيراً ما يقع على الأرض فتهرول نحوه وتحمله وهو يصرخ وتقول :

- العين عليك بارده.. إسم الله عليك وقعت على أختك أحسن منك..

وكانت حميدة تسعد لهذه المداعبات لإبنها وتقول في سرّها.. ياهادي يارب.. ولم تكن لبيبه تحن على سعاد أو تحضنها بنفس القوة كما تحضنُ حسن.. ولذلك نشأت سعاد أختي في صغرها تنشئه جافه بين أحضان صدر محروم من الخلفه.. ولم تكن سعاد تستطيع أن تغادر مكانها مع أمها لبيبه وتذهب إلى أمها وإذا ذهبت إلى فهي لا تندفع إليها وكذلك فإن أمها تقول لها : روجي لأهلك.. كواجب وود نحو لبيبه ولكي تشعرها دائماً أنهما شركة في الأبناء.. وكانت لبيبه تسعد لذلك ولكن سعاد لا تدخل إلى القلب ولكن هي سعاد لا تتعدى طبله أذنيها.. كانت الأعراف في ذلك الوقت إذا أنجبت الزوجة بنتاً فكأنها لم تلد وكانت البنت شئ قليل والجميع ينتظر الولد في شوق والبنت يزيحونها على جنب.. لكن أبي كان يأخذ سعاد في أحضانه في بعض الأوقات وعندما يعود من دكان عبده أبو سعده كل ليلة يشتري لها بقرش حلاوة.. وفي هذا الوقت كانت الحلاوة الطحينية هي الحلوى المرغوب فيها والتي يتمناها أي طفل أو غلام ولم يكن هناك من الحلوى غير الحلاوة الطحينية والكرامله.. وعندما كان والدي يذهب إلى السيدة لظيمة البدري في الكفر كانت تعطيه دائماً قطعة من حلاوة جوز الهند وكانت ترسل دائماً مع أي واحدة ذاهبه إلى أشمون لتشتريها خصيصاً لحسن ابن

الحاج.. وكان الناس في الكفر يعملون ألف حساب لعلاقة الحاج بلظيمه.. فمنهم من يقول أنه قريها.. كان صديق زوجها.. إنه خالها.. إنه سيتزوجها.. أو هو عاشق لها وفي كل هذه الأسقف الكلاميه المتداولة بين الناس.. يقول الجميع في النهاية إنه الرجل الطيب الودود الذي يود الناس.. فتقول كثير من النساء ياريتني كنت لظيمه وخالي الحاج حداد، وكان الناس في أهله يقولون.. الحاج ييحب الكفر ولظيمه بتحب الحاج.. ومحمود يقول بتحبه بالجلاليه والعبايه والمسك اللى بيترجحه وفلوسه ودقيقه وأقفاص الوز والبط.. ودردير يقول.. علشان متعلّم ليه نص البلد.. ياخويا مافيش ولا واحدة بتقول ياخال دردير.. فيقول له محمود على إيه يادردير وهوّ مين يقرب منك دا إنت بتعص عمرك ما قبلت حد ولا حبيّت حد.. الله يرحمك يامرات عمي.. وكان محمود يقصد قطيفة أم دردير وهي المثل في أولاد أبو عافية والخارجة والعزبة البحرية وملاة مريان مثل البغض والكراهية وكان الناس من أعيان عائلة القطان رجال ونساء يقولون عنها ومين يقدر على قطيفة دي سمّت بنت جوزها وسكت الحاج على عليها.. لكن ليه سكت.. الناس في البلد كلها يقولون ليه سكت.. قطيفة خلّفت دردير والسيدة وشفيقة وفتاة أخرى كانت غير جميلة ولم تخلّف وعادت إلى قطيفة في بيتها حتى ماتت.. ومرّ جدى على حسين في حياته بثلاث مراحل.. مرحلة الذهب التي فيها فتح زلعة أبيه ليخرج منها الذهب شيئاً فشيئاً ليشتري الأرض.. والمرحلة الثانية موت أخيه السيد قبل أن يبلغ الثلاثين عاماً وتبنيه لإبنه محمود وكان دائماً يأخذه معه في أي مكان يذهب إليه ويقولون أنه كان يخاف عليه

من أولاد محروس أن يقتلوه لدرجة أنه أخذه معه إلى الحجاز ليحج وعمره ثلاثة عشرة عاماً.. والمرحلة الثالثة صراعه مع الناس واحتوائه الكامل لإبنه حداد وكيف حافظ عليه حتى كبر بعيداً عن خطر قطيفة وكثير من الحكاوي.. كل هذا ما علمته حميدة أم حسن عن أهل حداد وأبوه وأخوته ولكنها كانت تريد دائماً أن تعيش في مكان وتعرف ما حولها ماضيه وحاضره وكيف يكون مستقبل هذا البيت.. عقدت العزم على مفاتحته في كل شيء.. وفي ليلة أخذها إلى القاعة فأطاعته وأعطته نفسها رغم أنها في شهرها الأخير.. بعد ذلك جلست معه في المندرة قبل صلاة الفجر، جلس هو على كنبه وجلست هي على كنبه في مواجهته وهي تضع فوق حجرها حسن وتحتضنه، قالت له في ود :

- بعد كده أعذرني مش هاقدر تاني.. شايف بطني قُرِّبت..

- ربّنا يبلغك السلامة..

- روح بعد كده للبيه..

- أنا عارف هاعمل إيه..

- يا حاج أن عايزة أعرف كل حاجة عنك..

- عايزة تعرفني إيه..

- إنت بتحب أخوك دردير كإن مافيش حاجة..

- أخويا لازم أحبه..

- مش أمه سمّت أختك..

- وش عرفني إنها سمّت أختي..

- البنت قالت وهي بتموت والناس كلّها بتقول كدة لغاية النهاردة..

- لكن حد شاف حاجة ماحدّش شاف حاجة.. أهو كلام..

- ياه أد كده مسامح..

- والله أبويا قال طالما مش متأكدين هانعمل إيه ولو اتأكدنا هانعمل إيه..

المشكلة إنها بنت عمه وعيب نقع في مشاكل زي دي واحنا بيوت كبيرة..

- يعني أبوك ردم على الموضوع..

- الموضوع كان لازم يتردم عليه ونسكت ونصبر ونترك الأمر لله.. لأن ماحدّش ماسك حاجة..

- وإنت مشيت ورا أبوك..

- عيب أقول حاجة غير اللي بيقولها.. دا الكبير والكل ييمشي ورا كلامه..

- كان المفروض يمشي قطيفة..

- والبنات تروح فين..

- تقصد السيدة وشفيقه والثالثة كان إسمها..

- كمونه..

- السيدة أم عبد الحميد وشفيقه أم مجيده ومنوفي.. وكمونه إيجوزت وماخلفتش..

- أبوك ماخفش عليك من قطيفة..

- خاف..

- نَبّه على كل اللّٰى فى البيت إن لا أكل إلّا فى وجوده ولا
أأكل من إيد قطيفة وقال لها كده.. لو أكلت حداد فى غيابى أو
حضورى هأقتلك.. كنت أأكل فى حضور أبى ومعه.. وكان دردير
يأكل معنا ويقوم من على الأكل ويدخل لأمه لتعطيه المزيد فإذا
قمت بعد أخى.. يقول أبى لى.. رايح فىن كل ده داخل لأمه..
وإنت هاتدخل لىن..

- أملك ماتت إمتى..

- كان عندي سنتين..

- وأختك..

- كان سنّها ست سنين..

- سمعت إن خالك اللّٰى ربّاك..

- فعلاً خالى محمد أبو لبيه وكانت سقى أم أمى عايشه عملت
لى كتير وأكلتني كل حاجة من إيديها وكانت تبكي وهى تطعمني..

- خالك محمد كان طيب..

- كان أطيب واحد فى درويش..

- خالك كان فقير سمعت كده..

- كان فقير لكن كان غنى بأخلاقه وطيبته..

- عشت فى بيت خالك كتير..

- لغاية سني سبع سنين إلى أن وعيت..
- كان أبوك بيديهم..
- كل حاجة علشاني وعلشان هم أهلي اللي ربوني وحموني بعيد عن قطيفة..
- يعني لولا أهل أمك..
- دي حقيقة وأبويا عارف كده وكان جزيل العطاء بهم.. لولا هُمة..
- كنت هاتموت..
- أكيد.. دي كانت ست ماجاش زيها في الكره والغل.. قلبها كان زي قلب الكلب الأسود..
- علشان كدة بتحب دار خالك..
- عندي حق ولا لأ..
- بصراحة أي أنا رخره مدينه
-
- لهم..
- بجدا يا حميده..
- آي والله..
- طيب ماترعلش لما أكون حنين عليهم..
- لأ مش هازعل.. بس مايجوش البيت.. إديهم من بره لبره..
- على أد ما قدر.. فعلاً بجيهم بيضايقك ولكن خلينا واحدة واحدة..

- لكن إنت بتحب دردير أوي رغم إنه ابن قطيفة..
- ودردير ذنبه إيه.. أنا ماعرفش أكره..
- يمكن دراستك في الأزهر نورتك شوية ويبيضت قلبك..
- لأ والله.. أنا من صغري لا أكره..
- واخوات دردير البنات.
- بيحبوني اكتر من دردير..
- ليه.. هي جاية من عند ربنا وكانو بيزعقو لأهمهم علشاني
وعلي أدام كل الناس اللي بتدخل البيت..
- كانوا عارفين حقيقة أهمهم..
- كانوا عارفين إن أهمهم خميرة من الظلام.. كانت بؤره من
بؤر الجهل والبغض راحت..
- لما ماتت أبويا إتшал من على صدره جبل كان راقد على
نفسه.. وكان دائما عندما يأتي أحد بسيرة قطيفة.. يقول روعي الله
ما يرحمك ويظلم قبرك..
- وبعد كدة أبوك بقه من غير زوجة..
- وطول عمره من غير زوجة.. أمي ماتت بدري وقطيفة
كلاب البلد ماتقبلهاش..
- عرفت إنه.. كان فيه واحدة..
- إسمها.. كانت ست جميلة وبديعة وادارجيه رافقت أبي حتى
موته وكان كثير من الناس يقولون الراحل عشق على كبر..

- صحيح..
- عرفنا بعد كدة لّما مات.. عرفنا الحقيقة في ورقة جواز رسمي وجدناها في الصندوق..
- ياه.. والناس عرفت..
- كل حاجة قلتها للناس علشان يتقطع الكلام على أبويا..
- أبوك كده كان راجل دماغ..
- إنت عارفه كان متجوزها إمتى..
- إمتى..
- من أربعين سنه
- أبوك مات سنه كام
- كذا وثمانين..
- هايل خد حقه..
- الله يرحمه..
- أنا كده عرفت الحقيقة منك.. أنا كده عرفت اللي فات وإن شاء الله إللي جاي هايقه أحسن..
- يارب..

كان الفلاحون جميعاً أصحاب أرض وأنفار يواظبون على أداء الصلاة في أوقاتها.. وفي الملاة توجد ثلاث مصليات للصلاة جماعة.. مصلية فتح الله حجاج تقع عند الساقية الكبيرة الخاصة بمجداد

ومحمود ودردير وسميت بهذا الإسم لأنها ملاصقة لدار فتح الله التي تحف الساقية من بحري وتوسع هذه المصلية لعشرة أنفار وهي مفروشة بقش القمح والإمام في هذه المصلية عادة ما يكون فتح الله وإذا وجد الحاج حداد فهو الذي يؤم الصلاة، والمصلية الثانية تقع على تارة البحر مقابل دار محمد الهلالي وتسمى باسمه وهي تفيد كل الذين يستحمون في البحر أو يتطهرون فيصعدون التل (نزل عامر) ويصلون فيها والذي يؤم الناس فيها محمد الهلالي إذا لم يوجد الحاج حداد، والمصلية الثالثة تقع على المسقة الشرقية قرب دار الحاج حسين والذي يؤم الناس فيها محمد أبو شاطيه.. وكان من أجل العادات أن أهل الملاء الذين يقيمون الصلاة فيها عندما ينتهون من صلاتهم خاصة صلاة العشاء يقعدون بالقرب منها في دائرة على الأرض ويشعلون النار في رابية (حفرة) يحفرونها في الأرض ويتكلمون في كل أمور الغيط والزرع والقلع والبحر والصيد ولبن الجاموس والبقر وأسعار كل منها في سوق الخميس أو سوق الأربعاء أو سوق السبت.. وهي الأسواق الثلاثة وتقع في شنشور سوق الخميس، والأربعاء سوق أشمون، والسبت سوق منوف وهذه هي الأسواق الثلاثة القريبة والتي فيها يشترون بهائمهم ويبيعونها ولم يكن في الملاء تاجر مواشي واحد ولكن كان أشهر تجار القرية في المواشي أولاد شراره وهم يتاجرون في السقط.. يعني المواشي درجة ثانية وثالثة والتاجر الوحيد القوي والمشهور في قريتي هو الحاج إبراهيم على وتقع داره في شروة حسن.. لكن في ليلة من الليالي بعد صلاة العشاء كان حديث من تجمّع حول الراكية عن حدث واحد.. هو مظاهرة قام بها أطفال الملاء من سن ثماني سنوات وحتى

سن خمستاشر سنة لفؤا الملاء سُبْعَه (يعني كثيرًا أكثر من سبع مرات رايح جاي على جسر التريعة يمين وشمال من دار أبو القاسم السوداني وحتى دار شوقي الهلالي عند البحر.. بحماس وبصوت عال.. ياشنّاه عيب عيب كُبّه تاخذ المتاعيس.. كفايه علينا صغِيرين لما نشوف المجرمين.. ياشنّاه عيب إحنا لسه صغِيرين.. أوقفهم فتح الله حجاج حتى يكفوا ويذهب كل منهم إلى داره فلم يقدر عليهم، أوقفهم أحمد سليم محاولاً تهدئتهم فلم يستطع، أوقفهم الحاج محمود وانصرفوا بعد أن وعدهم بأن كبار الملاء سوف يعالجون الأمر من الليلة..

بعد صلاة عشاء هذه الليلة إلتفوا حول الراكيه بجوار مصلية فتح الله وقرب دوران الساقية الكبيرة وراح صلاح حجاج يصب الشاي ويوزعه على من يلتف حول الراكيه.. الحاج حداد ودردير ومحمود وعبد الرازق وأحمد سليم وفتح الله وعبدالعال.. قال فتح الله وهي ينظر في وجه عمه حداد :

- إنت أول واحد فينا حافظ للقرآن وكلّك حركة في البلد كلها في حل مشاكل الناس.. معلش ياعم الحاج بتحل مشاكل الناس كلها وماعرفش ليه مابتحلش مشاكلنا..

هَزَّ حداد رأسه وقال :

- تقصد حكاية شنّاه..

- أيوه..

ويقول محمود :

- العيال فاضت بيها دا بقه عيب لّما العيال تقرف من أفعال واحده زي دي واحنا لسه ماضجّناش..

ويتابع دردير :

- هُوَ الكلام ده لسه النهاردة شنّاه من زمان شغّاله واحنا كلّنا ساكتين..

ويقول عبد الرازق :

- الناس صاحبة الأرض في إيدها الحل..

ويقول أحمد سليم كأنه يريد أن يفهم :

- مش فاهم.. مش معنى أصحاب الأرض..

فيقول له عبد الرازق :

- اللي يملك يحل ويربط..

فيقول عبد العال :

- هيّ بتخش أرض مين أكثر..

وفي صراحة يقول حداد :

- أرضنا كلّنا وهي على طول لابده في الشرق..

ويكمل فتح الله :

- علشان الشباب هناك كثير وبياخدوها عند الساقية وكأنه

يدافع عن نفسه وعن إخوته ويقول دردير :

- الحمد لله ولادنا لسه صغّيرين..

أحمد سليم يقضم غيظه ويقول :

- بكره يكبروا ويعملوا زي الكبار ما بتعمل.. ملاتنا ما كنتش كده..

ويقول محمود وكأنه يصدر قراراً لا رجعة فيه :

- دي تمشي وجوزها واخواتها الأربعة معاها من بكره..

وفي حكمه يقول حداد :

- هاتيجي إزأي.. دا قطع عيش همّ ناس من البلد برضه مش عايزين نظلم.. الظلم ظلمات يوم القيامة..

يسكت الجميع عندما تكلم حداد عن الظلم..

لكن عبد الرازق قطع صمتهم :

- بيقه تنسم..

شعر الجميع بالذعر من اقتراح عبد الرازق ولكن أحمد سليم قال:

- نغرقها في البحر..

يكمل محمود :

- ده قتل وده قتل.. بيقه ندى الموضوع لجبر صميده ونديله قرشين..

يرفع حداد كف يده لأعلى كأنه يقول لهم كفاية ولما أنزل يده قال :

- خلّيني أبعت ليها بكره وأشوف الموضوع معاها الأول..

.. وسكتوا جميعاً وكأنهم لم يصلوا إلى شئ وقالوا جميعاً واحداً

بعد الآخر :

- خلاص الحاج حداد يشوف الموضوع معاها الأول..

لكن محمود الذي يجبذ قتلها قال :

- لكن الموضوع لازم يتعالج بسرعة وقطع بتر..

أكملوا شرب شايبهم وتناثر الحديث بينهم عن أشياء أخرى ثم
إنصرفوا كل إلى داره.. وذهب أبي إلى دار الغيط فاستقبلته الكلاب
الثلاثة بكثير من الحفاوة وأخبره رجب بأن الست قدره منتظراه
جوة..

دخل إليها ونقر باب غرفة التبني وفتحت له فوجدتها باكية فقال
لها :

- فيه إيه..

- إبنك كرتي..

- عمل إيه..

- كرشي من البيت..

- ليه..

- مش طابق يشوفني علشان أنا على علاقة بيبك..

- دا عايز يتأدب على العموم دي دارك.. خليك هنا ولا يهملك
هاجيلك كل ما يلزم للمعيشة هنا وأشوفه عايز إيه..

- صحيح يا حاج..

- مش إنت مراتي أدام ربنا.. خلاص يكفيك الغرفة دي..

- إنت راجل أد الدنيا.. إنت مالكش حد مثيلك يا حاج.. بس
أنا خايفة من مراتك..

- الموضوع دا بتاعي أنا..

- طيّب عايزه هدومي..

- روعي هاتيها الصبح..

- وإذا ضربيني..

- دي تبقه مصيبه آخدلك حقك..

- طيب عرفه الحقيقة يا حاج..

- أوي أوي..

كان أبي يشعر بأن حائطاً وقع على رأسه هذه الليلة فترك لها نفسه ونام على بطنه وعرّى ظهره لتكب فوق جسده كاسات الهواء.. وشعر بأن البرد يملأ ظهره وأن جسده موجوع من الهموم التي ألّمت به دفعة واحدة.. نام أبي وهي تداويه وحتى الصباح لم يلقاها ونامت إلى جواره منكوده ولما بزغ نور النهار قال لها :

- سخّني ميه..

- حاضر يا حاج..

وفي كانون صغير قرب باب الزريبه الداخلي أشعلت النار تحت حلّة كبيرة وتركتها تغلى وذهبت اليه وقالت :

- عايز حاجة دلوقتي..

- لازم الدنيا تمشي مش هاتقف معايه..

- مش فاهمه..

- روعي إتشطفي وتعالى..

- حاضر يا حاج..

وكان في دار الغيط كنيف له باب دهنت أَرْضِيته بِالْأَسْمَنْتِ
وبصفة دائمة به إبريقان من الفخار مملوءان بالماء..

ودخلت إليه وخلعت ملابسها وقفلت الباب وقعدت إلى جوار
رأسه كعادتها تمرر أصابعها في شعر رأسه القصير وقالت له :

- شاييني..

- شايك..

- طيب ما تقوم..

قام أبي وخلع جلبابه وعلقه فوق وتد بالحيطه وانقلب اليها..
وقبل أن تلمسها يديه قالت :

- ربنا يخليك ويبارك فيك للغلاية اللّي زبي..

- خلاص بقه يا قدره مش عايز كلام..

- ياريت مارحش لإبني تاني..

- قلت بلاش كلام..

”شأنه في غرفة التبني“

أرسل أبي شوقي ليحضر شأنه فوجدها في داخل زريبة عوضين
السطوحي فنقر الباب فقالت :

- مين..

- أنا شوقي أخوك..

- عايز إيه..

- أبويا الحاج عايزك..

- الحاج مين..

- الحاج حداد..

- يالهوري دانا وصلت.. معقوله..

- أنا ماشي وتعالى ورايا بسرعة..

- وراك.. بس أغير هدومي..

عاد شوقي إلى أبي وأبلغه بأنها قادمة فهز رأسه وخرج من باب
المربط ليشتق على أول الأرض وجلس عند أول فلقه ذرة.. وكان
رجب النفر الأول عنده قد ظن أن الحاج إنحرف وأنه يريد شأنه
ليلتقى بها فاقترب من شوقي وقال له هامساً :

- شأنه جايه صحيح..

- أيوه الحاج عايزها

- ليه

- وأنا مالي مش عارف..
 - مش أختك..
 - أنا في حالي لى دعوه ببيتي ومراتي بس..
 - على الأقل مش قدامك..
 - بقه أنا هاعمل حرّ على الحاج.. دا كلاب الملاء قطعوها..
 - أنا مش مصدق..
 - ياخير بفلوس بس لما تيجي هامشي..
 - هاتروح فين..
 - هاروح..
 - أد كده بتوسع لأختك..
 - جوزها أولى بيها..
- وكانت قدره قد ذهبت إلى دارها في البلده لتحضر هدومها وحاجياتها.. قليل من الوقت ودخلت شأنه من الباب الكبير ومنه إلى باب الزريه وهي ترتدي جلبابها الشفاف الذي يظهر كامل جسدها وعلى عجل قالت :
- واد يا شوقي أبوك الحاج جوّه..
 - لأ.. جوه في الغيط..
 - إبعث هاته أنا جوه..
 - طب إستني لما ييجي

- يا وسخ مش ها تعرفني أمشي إزاي..

وكان رجب يشعر بالحسره لظنه أن الحاج طلبها ليلقاها.. وراح يضرب كفاً بالأخر ويقول :

- سقطت الملاءه كلّها النهارده.. لا إله إلا الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

وفي سرعة البرق أبلغ شوقي الحاج بوصولها وانها دخلت جوه.. أخذ الحاج يهز رأسه ويقول :

- جوه .. جوه ليه..

ولم يجبه شوقي لأنه فر من خلفه إلى داره حتى لا يرى أخته أمام عينيه في أعمالها اليومية.. تنحنح الحاج ودخل من باب المرتبط فوجد رجب يقول.. لا إله إلا الله .. فردّ عليه بصوته الجمهوري الأخنف :

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- آي والله يابه الحاج..

- الآنيته دخلت جوه..

- أيوه..

- هاتما بتدخل ليه..

وتهلل وجهه وتهدجت أنفاسه فرحاً وهروا ليأتي بها فوجدها عاريه راقده في غرفة التبني فوقف لحظة ينبهر بجسدها وقال متغلباً على نفسه :

- تعالى عمك الحاج عايزك بره..

وضحكت ضحكة كل أنيته (فاجرة) وقالت ساخرة وهي تترع
جسدها من فوق الأرض:

- هي الناس بتعوزني برّه ولاّ جوّه..

وقفت أمام أبي ترتدي جلبابها العاري فقال لها وهو ينظر إليها
شذراً :

- حطي على نفسك عبايه.. هات لها حاجة تلبسها يارجب..

- حاضر..

جاء بعباءة له واعطاها إياها.. إرتدتها فتدارى الجسد الخال من
الحياء، وجلس الحاج القرفصاء وقال لها مشيراً إلى حرف المصطبه :

- أقعدي أدامي..

قعدت وهي مشدوهة ماذا يريد.. أهو درس في الأخلاق كما
تعود منه الناس.. طيب ما يقول لنفسه قدره معاه علي من سنين
وأسكتها عن ظنونها وقال في تريث:

- شوفي أنا سايبك سنين لكن الموضوع زاد عن حده.. وسكت
بره ثم طفق :

- العيال إمبارح فاضت بيهم حكايتك مشيو في كل حة في
الملأه.. كانوا يستغيثون منك..

- مش فاهمة يابه حداد..

- آبه يقرصك.. إلهي تعبان يمص دمك.. البعيدة ما عندهاش

دم..

- إنت عايز إيه يا شيخ الملاءه..

- عايزك تبطلي..

- أبطل عيشه.. الناس عايزه كده..

- إشتغلي في أي بيت وكللي لقمة حلال.. دا كل فرع في مريان مال عليك..

- ولاد الناس اللي معاهم فلوس هم إللى بيدفعوا وأنا عايزه الفلوس..

- جوزك بيشتغل وولادك بيشتغلوا وإخواتك.. الدور كلها نسوانها بتشتغل..

- دول بياخدو ملاليم لو قعدت في البيت هاناكل بتاو وجبنه.. أنا بيجيب اللقمة الطرية لأولادي وجوزي..

- إنت خدي الموضوع وراثه عن أمك..

- دي حقيقة.. أمي كانت في البيت وأدام عيني..

- كانت مدارية..

- بس إنتوا كلكم كتتم عارفين.. وولاد الناس اللي عندهم أرض هم اللي بيعجوا ليها..

- كانت ماضي ضلمه وراحت أمك.. إنت العوار اللي هاتخلي الناس دلوقتي توطي راسها..

- هو أنت جوزي ولا أخويا..

- ما عندهم دم.. وبعدين أنا راجل كبير في الملاءه وعيب أسكت عليك..
- يا به الحاج.. قدرية بتجيلك على عينك يا تاجر..
- يا كلبه يا بنت الكلاب قدرية مراقي على سنة الله ورسوله..
- قدرية مراتك.. معقوله إنت تتجوز مرات النفر..
- معقولة أوي..
- ونسوانك راضين بكده..
- راضين مش راضين المهم هي مراقي وروحي قولي للناس كلها..
- إنها كردي كرشها علشان بتجيلك..
- إنها كردي غبي قال زي الناس على أمه.. لكن لو كان عاقل كان جه سألني..
- عايزني أبطل.. إتجوزني..
- فشارك إسود..
- هي قدرية أحسن مني..
- قدرية ما حدش لمسها غير جوزها اللي مات.. لكن إنت خربتيتها..
- شوف حد تاني يتجوزني من الناس الغلابة.. بس على شرط يكفيني..
- الحل الوحيد إنك تمشي من البلد إنت واخواتك وجوزك وولادك..

- ماحدث يقدر يمسينا..

- يا قليلة الأدب أنا أقدر..

- لو كنت تقدر ورّيني..

وقام واندفع نحوها وراح يصفعها على وجهها حتى سقطت فوق الأرض وهي تولول وتصرخ..

ياناس الحقوني.. حرام عليك.. سييني في حالي.. إنت مالك ومالي..

- قومي يا أنيتة يا نجسه.. قومي رّوحي على البلد.. على دارك ومن النهاردة ماشفكيش في الملاء..

وشدها رجب بذراعيه وقال لها وهو يجرها نحو باب السكه :

- إمشي دلوقتي على البلد وقصّري الشر.. رّوحي بس دلوقتي واسمعي الكلام..

ولم تدري ولم تشعر بأنها ترتدي جلبابها العاري وراحت تبكي وتدعى وكلما قابلها رجل أو امرأة وسألها..

قالت له :

- إلی ينضرب في قلبه.. اللى تجيله مصيبه الحاج حداد عايز يقطع عيشي..

وراح الناس يتساءلون على جانبي الطريق.. هو الحاج حداد عمل إيه في شأنه.. ولم يجب عليهم أحد لكنهم تأكدوا من أن شيئاً ليس عادياً قد حصل لها.. علينا أن نذهب ونسأل الحاج عما

جرى.. ولما وصل بعض الرجال إلى غيط أبي وجدوه يجلس مع زوج وأولاد شنّانه في حديث هامس لا يسمعه أحد. وكان أهلها ينصتون لما يقوله أبي في طاعة..

لما إنتهى لقاء أبي مع أهل شنّانه دخل إلى غرفة التبن ليستريح من عناء عمله.. وبإخلاص قام رجب إليه وغطى أبي بالحرام.. كان أبي يرتعش رغم أن الجو لم يكن بارداً، تركه رجب لينام ودخل الغيط يعزق بعض شرائح الذرة المملوءة بالنجيل والحشيش.. ولما طلع يستريح في المربط جاءه الحاج محمود ليسأله عن حداد فأبلغه أنه نائم فسأله محمود :

- ماتعرفش عمل إيه مع الكلاب..

- ضربها يابه الحاج ورؤحت..

- وبعدين..

- جاب جوزها وأولادها واتفق معاهم على إتهم يمشوا من البلد..

- معقولة..

- والغريب إتهم وافقوا..

- معقولة بالسهولة دي.. ياريت بيقه عمل أحسن عمل..

وانصرف محمود إلى غيطه فرحاً بهذه الأخبار ولكن عليه أن يعرف التفاصيل من حداد فلما قام من نومته في غرفة التبن سأل رجب عن قدرية التي لم تصل بعد وقلق عليها خاصة أن ابنها

متهور.. ففكر قليلاً في الأمر ثم ذهب إلى محمود وأبلغه بما حدث مع
شأنه وزوجها ولكن المطلوب شوية فلوس فقال له محمود :

- فلوس أد إيه..

- لو خمسين جنيه يلموا الموضوع.

- ليه هانشترى فدان..

- الناس دي هاتخدم مصر عند واحد صاحبي في إمبابة نعمل
لهم بيت وحياة..

- خلاص نجتمع من كل واحد قادر..

- إنت ودردير والحاج حسن وحسين وعبد العال وعبد الرازق
واللى يقدر يساهم..

- من بكره..

- أيوه من بكره..

حملهم أبي بحاجة بيتهم من قريتنا في عربة يجرها حمار إلى قرية
الخضرة حيث الرفاص، وصل مصر في اليوم التالي إلى ساحل روض
الفرج ومن روض الفرج إلى إمبابة بعربة كارو وهناك دخلوا منطقة
خالية من الناس إلا من بيوت قليلة بنيت بالطين.. ذهب إلى دار
صديقة جابر عسر وكلمه عن الناس الذي أتى بهم ولكنه لم يخبره
بسر المرأة.. ترك أبي الناس مع جابر عسر كأمانة.. أقاموا في بيته
حتى بنى لهم بيتاً.. وسعى في تشغيل زوج شأنه وأولادها الثلاثة..
وراحت شأنه تقلي الطعمية في نصبة أمام بيتها.. بعد ذلك قام أبي
بترحيل أخوات شأنه إلى إمبابة فأقاموا هناك بجوار أختهم وأوجد
لكل منهم عملاً ومعاشاً..

الولادة قبل الفجر

كان الحمل في بطن أمي هو الخامس ولكن هو الولادة الثالثة التي ستحيا مثل سعاد وأنا إذا قدّر لها أن تعيش.. وفي الأيام الأخيرة قبل الوضع كانت أم إبراهيم تعني بأمي عناية كبيرة وقبل أن تمشي إلى بيتها تشعل لها النار في المنقد الحديد وتضع لها البخور.. وكانت في بعض الأحيان تنام معها على الأرض بجوار الكنبه التي تنام فوقها أمي.. وفي ليلة قبل الوضع بيومين وجدت أم إبراهيم أحد الأعمال ملفوفاً بقماشه خلف حنفية الوش بالصالة الخارجية للبيت فأحضرتة بيدها لأمي قائلة :

- أدى لفة من بتوع أم الرزق..
- معلّش كل حي منه لله..
- ياترى عاملاه ليه علشان الواد يروح زي سامي وسعيد..
- بعيد الشر ربنا فوق.. بطّلية يا أم إبراهيم..
- .. وضعت أم إبراهيم بعض المياه في كوز وسّختها فوق النار ثم وضعت لفة العمل في الماء الساخن..
- وهي تقول منكم لله.. مش كفاية يا لبييه.. فردت عليها أمي :
- ماتظلميش لبييه.. الوليه تأثيرها كبير أوي..
- كرهها وحقدّها يملا بلاد زي بلدنا..

- ربنا هاأيديك كمان وكمان..

ودخل عليهما أبي وكما سمعت حديث أمي وأم إبراهيم سمعت
أبي يقول :

- إنت تعبانة أوي..

- أوي..

- أروح أجيب الدايه..

- لسه الطلق ماجاش..

- يمكن على ما تيجي..

- روح يا حداد..

تمشي أبي إلى غرب البلدة حيث تسكن أم هان الدايه في شارع
طراد.. وكان صاحب حس في كل أنحاء البلده.. إذا تنحنح أو
سعل أو تحنف بصوته الرخيم عرفه الناس جميعاً في بيوتهم كانوا
مستيقظين أو نائمين أن هذا هو الحاج حداد.. تنحنح في أول
الشارع مرتين فانتبهت أم هان في بيتها الصغير بمنتصف الشارع
وواربت باب البيت وقبل أن ينده قالت لما رأته سيقف:

- أيوه يا حاج آجي..

- تعال ورايا..

وانقلب الرجل إلى بيته وبدأ يقرأ القرآن بصوت مسموع
والدموع تنسل من عينيه ودعا أن يبلغ المولود السلامة وأمه.. وكان
يقول دائماً بينه وبين نفسه رغم أنها امرأة ترفس فهي التي جاءتني

وانقلب الرجل إلى بيته وبدأ يقرأ القرآن بصوت مسموع
والدموع تنسل من عينيه ودعا أن يبلغ المولود السلامة وأمه.. وكان
يقول دائماً بينه وبين نفسه رغم أنها امرأة ترفس فهي التي جاءتني
بالبنت والولد.. فكيف لا أشكر الله.. ومن شارع طراد ماراً بدار
صباحي رمضان ودور الهلالي في العزبة البحرية حتى دار حسن تنك
ثم إلى الشارع المملوء بأقاربه خلف بيته الذي يقع على التربة
الكبيرة المقابل لمترل زكي أبو شنب ملأ أبي كل هذه الشوارع
بكلمات القرآن العظيم التي ألفت بمعانيها الكبيره ظلالاً مثل خيمة
نور فوق كل بيت.. وقال وهو يدفع باب البيت الكبير.. يا الله..
فوجد لبيبه تقف في باب غرفتها والتي فاجأته قائلة :

- تعال كنت فين.. هو فيه إيه تعال جوه..
- آجي هو دا وقته.. إخشعى أم هان جايه..
- يالهوي هي هاتولد..
- قل أعوذ برب الفلق إتق الله.. دا إنت بتصلي يالبيبه..
- أستغفر الله.. أستغفر الله.. مين معاها جوه..
- أم إبراهيم بايته معاها..
- أم إبراهيم أحسن مني.. هو أنا عدوه..
- إنت مش هاتقدري تسهري معاها طول الليل..
- لأ مش كده.. دا المعنى تاني خالص..
- إخشعى يا لبيبه..

وراحت تبكي ودخلت إلى غرفتها بعد أن قفلت بابها بالترباس حتى لا يدخل عليها أحد.. وأخذت تضرب بكفي يديها على صدرها حتى مزقت صدر جلبابها.. ولما دخل أبي على أمي التي بدأت في الطلق أخبرها بأن أم هان تعقبه.. فراحت ترعق.. يارب.. يارب.. وجلست فوق سريري أبكى على صراخ أمي وكنت قد بلغت العامين فقلت لأم إبراهيم.. أبويا ضربها.. فقالت وهي تعري جلباب أمي عن جسدها.. يا حبيبي أمك بتولد عارف يعني إيه بتولد.. لأ أبويا عمل إيه.. ودخلت أم هان وهي تحمل حقيبة جلدية قديمة في يدها بها أدواتها.. وقالت.. باسم الله.. دا طلق الولادة.. سكْتُ عن أسئلي وخجلت لأني رأيت أمي عارية وغطيت وجهي لكنني كنت أسمع كل شئ وأبكي.. إحذقي ياست أيوه.. يقويك ربنا، ولادتك سهلة زي ولادتك قبل كدة.. هات.. يارب.. ولم تتكلم أمي بشئ ولكن صراخها يكاد يخرج إلى شارع التربة كأن رجلاً يضرب زوجته.. ورحت أقول كلمة واحدة والدموع تدخل فمي.. يارب.. يارب.. يامه حبيبي.. أمي.. أمي.. هو فيه إيه.. إلا أنني عندما إسترقت السمع جيداً أيقنت أن هناك مولوداً سيزل من بطن أمي خاصة لما أخذت الدايه تقول.. أيوه جاي أهه.. كمان مره أوي.. أهى راسه بان..

وشعرت بأن أبي غلبان مظلوم راجل طيب أوي.. حينما صرخت الدايه حمد الله على سلامتكم أهو جه نزل ولد.. وصرخت أم إبراهيم كانت صرختها زاعقة شاكره قائلة ولد.. أخ حسن جه.. زعق الرجل الجالس قرب باب الغرفة.. يا الله.. يا الله يارزاق.. كان يتشنج في دعائه ويكي بكاءً حاراً.. سمعته وأنا صغير وفهمت

ودخل في قلبي شيئاً عميقاً صافياً وشعرتُ باطمئنان شديد كدت فيه
أزعق مثل أبي.. كان فرحاً جديداً يدق قلبي وأن أبي وأمي كيان
واحد وأم إبراهيم سيدة مخلصة في بيتنا وأن الله يفعل ما يريد.. فهذا
يريد وهذا لا يريد ولكن الله يفعل ما يريد..

.. إستيقظت أختي سعاد في غرفتها على الصراخ والدوشة
فقالت لأمي لبيبه :

- فيه إيه يامه..

- أبوك بيضرب أمك..

- يضرهما.. تعالى نامي جنبي..

- شوية هاطلع جنبك..

كانت تجلس على الكنبه.. دقت سعاد النظر في وجه أمها لبيبه
فوجدته باكياً ولما جالت بناظرها إلى صدرها وجدته ممزقاً فقالت :

- مين قطع هدومك..

- نامي ياسعاد في عرض النبي..

- طيب غطيني..

راحت أم إبراهيم تحضر الماء الساخن في حلل وأوعية من فوق
حلة كبيرة فوق الكانون.. وجلست أم هان تعدل الطفل وتربط
صرته وتلفه في لفف من القماش ولما شعر ابي بأن الأمور تسير على
ما يرام قال :

- الأمور كويسة يا أم هان..

- كل حاجة كويسة يا حاج.. ولد.. مبروك..

- تمام.. البركة في الله.. تسلم إيدك..

- الحمد لله ولادتها سهلة..

- هاتسميه إيه يا أم حسن..

وفي همس لم يسمعه أبي قالت لأم إبراهيم.. قوليله عبدالعزيز..
واقتربت أم إبراهيم من الباب ليسمع أبي وقالت بتقولك الست..
عبدالعزیز..

- حلو.. كله حلو.. على إسم أخوها..

.. وكان خالي عبدالعزيز أحمد فوده في السنة النهائية في كلية
الحقوق وكان محبوباً من أبيه وأمه وأخواته البنات كان نابغاً في مواد
الحقوق كما هي العادة في أهل فوده جميعاً.. ودخل أبي عليها قائلاً:

- مبروك.. مبروك يا حميده..

وفي صوت واهن قالت أمي..

- مبروك يا حداد..

كنت قد بلغت ذروه فرح فأزحت الغطاء عن وجهي وقلت ما
ستطعت :

- برونك.. برونك.. (يعني مبروك)

ذهل الجميع وراحوا يضحكون.. وقالت أم هان وهي تجمع
حاجياتها.. القط دا كان فين.. سبقها أبي إلى خارج البيت وأعطائها

أجرهما على أن تأتي كل يوم كالعادة لملاحظة الطفل وأمه.. ورجع
أبي يقول من خلف الباب المقفل :

- أبعث تلوانه..

- أيوه إبعث..

- مين هايعمل لك الأكل..

- أم إبراهيم على ما يعبتو حد..

وكان صوت أمي واهناً ضعيفاً وكانت أم إبراهيم تكرر ما تقوله
أمي لكي يسمعه وكانت الشمس قد بزغت حينما ركب أبي
ركوبته وذهب إلى الغيط.. أيقظ رجب وأخبره بالولادة فباركه
رجب.. وقام وارتنى ملابسه وقال له ابي :

- روح تلوانه.. عدى بالقارب وبلغ الحاج أحمد بأن أم حسن
ولدت عبدالعزيز..

- حاضر يابه الحاج.. أقوله ولدت إمتي..

- النهارده بعد الفجر..

وكانت الكلاب تزوم وتجري على السكة فرحه.. وتعجب
الحاج ربما تكون قد فهمت ما قلته لرجب.. ليس في الكون شيء إلا
وسره عند الله.. ذهبت شأنه وزوجها وأولادها.. وشوقي وزوجته
فكيهه وجميع إخوته.. ذهب ناس من مكان إلى مكان وجاء الله
بآخرين وتأكد الرجل من الله يرى الناس بالسلامة إذا ما قاموا
بأعمال يرضى عنها.. كان الرجل سعيداً ملاً كل الحقول حوله..
ولم يكن أحد من الناس قد وصل إلى الغيط فراح يسحب بقره بقره

وعجلاً بعد عجل وجاموسه بعد جاموسه.. ذهب بكل بهيمه
فرادي وسحبهم إلى البحر كي يشربوا ويستحموا ويغتسلوا.. إن في
هذا اليوم لابد أن تشبع كل بهيمه في زريته من الطعام والشراب
وأن تستحم.. إنه نسي أن يتناول كسرة من طعام فأخذ يجمع
الطعام المتبقى من أمس وأشعل النار وسخّنه وراح يتناول لقيمات
من عيش القمح والبتاو مغموسة من الجبنه القديمه والقريش.. كان
الطعام جافاً خشناً على زوره.. ولكنه كان كمن يأكل الفتة بلحم
ضأن..

”القافلة والزرزور“

أعدت جدتي شليبه الشيخ زوارة تليق بإبنتها التي بدأت تثبت أقدامها في شنشور بمولودها الثالث، وكالعادة بدأت قافلة النساء تستعد للذهاب إلى الوالدة، وفي اليوم الثاني كانت زوجة خالي عبد الحكيم هي أول من يتقدم القافلة راكبه حمارتها وتمسك أمامها بقفص الديوك الرومي، وثانية القافلة خالتي عزيزة التي لم تتزوج بعد تمسك أمامها فوق ظهر حمارتها قفص الديوك البلدي والفراخ وثالثتهما عديلة الغولة تركب حمارتها الزعره وأمامها قفه بها ثلاث حبل.. حله بها دجاجتين محمرتان، وحله مملوءة بالأرز المحمر، وثالثه بها عشرة بواكي من الزبدة.. إلتخذت القافلة طريق كوبرى أولاد الشاطر ثم الطريق المؤدي إلى كفر الخضره بعدها وصلت القافلة قلتي الكبرى ثم عرجت الحمير يمينا إلى السكه المؤديه إلى زمام شنشور ناحية رحيله.. وكانت عديله الغوله كلما رأت الطريق خالياً من الرجال علا صوتها بالغناء.. تلك الأغنيات القديمة التي كان الناس يتغنوا بها في الولادة.. وقالت لهم جدتي وصية أوصاها بها جدي أحمد.. وأنتن تطرقن الباب نادوا ياست لبيبه.. فقالت لها خالتي عزيزة وهم يهمون بالرحيل فوق ظهر الحمير :

- ماشاء الله.. أهل لبيبه بيتقرعوا على أختي وأنتو بتقضوا ليها الواجب أوي فزعت فيها جدتي :

- اللي بيوجّب بيوجّب بنفسه.. وهودا أصلنا.. وزى ماقال أبوك..

قالت لها في مضض :

- حاضر .. حاضر..

دخلت الركائب الثلاثة من باب السور الخارجي المفتوح بصفة
دائمة وخبَّطت زوجة نخالي عبد الحكيم بنقزتوت على الباب الكبير
مناديه :

- ياست لبييه.. يا أميره إفتحي..

هلعت إلى الباب وفتحته وفوجئت بالوفد، وكانت كل منهن قد
أنزلت ما تحمله فوق الأرض والركائب واقفة.. وبادرها نخالي
عزيزة :

- إزيك يا ست الدار

نحجلت وربما فوجئت بالذوق المتناهي من أهل حميده .:

- أهلاً أهلاً..

- الحمير هاتدخل جوه ولا نربطها في الشبايك..

- لأ تدخل الزرييه أحسن..

..وكان باب الزرييه مفتوحاً فدخلت الحمير في شكل منظم
مخترة باب الوسط حتى باب الزرييه.. وهرولت أم إبراهيم التي
قفزت من جوار الوالدة لتقفل باب الزرية وانقلبت بسرعة إلى أم
حسن :

- ياستي ياستي باين الجماعة بتوعكم.

- هاتيهم هاتيهم..

كانوا ثلاثتهم قد جلسن على المصطبة بجوار صومعة القمح..
وقالت عزيزة لأم إبراهيم عندما خرجت إليهن :

- دخلتي الحاجة جوه..

لم تستطع حمل أي قفص ولا حتى حمل القفه وحدها فساعدتها
عديله الغولة حتى أدخلها زوارة الوالدة إلى صالة البيت الداخلية قرب
باب غرفة أم حسن.. وراحت لبيبه تسقيهم الماء من كوزملأته من
زلة مملوءة دائماً بمياه الشرب.. وراحت أم إبراهيم تتأملهن على
عجل ففاجأتهما عزيزة قائلة :

- أم حسن صاحبة..

- يالهوي.. تعالو إتفضلو..

- قوليلها الأول. عشان ندخل..

- قتلها والله إتفضلوا..

كانت أم حسن قد جلست بين السرير والكنبه وأسندت ظهرها
على مسند. وكان عبد العزيز نائماً وحسن تحت الغطاء يسمع كل
شئ وعندما دخل النساء من أهل جدته إنتعشت رأسه وتيقظ وأفاق
فأزاح الفراش عن رأسه ليرى ويسمع إنه يريد أن يرى كل شئ
ويسمع دون أن يلحظه أحد.. وبلغت الهيصه والفرحه بين أمي
ونساء أهلها.. روح قلبي.. سلامتك.. ألف مبروك.. فين هو.. هو
الزرزور ده.. وشه محموش.. لأحسن قمر مافيش زي حسن.. إسم
الله عليه.. لأ خليه نائم طول الليل مغلبي فيه مغص في بطنه..
مافيش حد من الصحة يشوفه.. إزيك يا أم حسن.. أد إيه أبوك

فرح وأملك.. فيه قفصين يا حميده.. قفص فيه عشر فراخ وقفص أربع ديوك رومي.. هات القفه يا عديله.. وراحت زوجة خالي عبد الحكيم ترفع حلة بعد أخرى من القفه وقامت عزيزة بكشف الحلل الثلاث لأختها.. أبوك بكره أو بعده هايحيب أملك.. عايزه خروف ولا جدى.. لم تكن حميدة تستطيع ملاحقة الفرحة كانت السعادة تبك من عينينها ولم تكن تستطيع الرد على كل كلمة حلوة فرحة تفوهت بما إحداهن فكانت تضحك وتبتسم.. يعني مش حلو.. حلو بس وشه محموش.. دا حسن دا حاجة تانية. لأ مش كده يا عزيزه والله حلو.. بس ياريت يبطل زرزرة ده طول الليل زهقان.. العيال الصغيره كده.. آمال فين الحاج.. في الغيط.. جاءهم أمي لبيه مرة رحبت بهم من فتحة الباب ومرة أخرى حملت إليهم المغات الذي أرسلته سلفتها الست مجيدة القطان زوجة محمود أخوه.. بعد ذلك عملت أم إبراهيم شربات من زجاجة إشتراكها من دكان محمد عفيفي.. بعدها عملت لبيه الشاي ووضعتهم أمامهم.. ويبدو أن النداء عليها وهم يطرقون الباب قد جعلها في قوة معنوياتها لترحب بالناس.. وكانت تندهش.. الناس دي ذوق ليه.. أد ايه بيحترموني.. آمال الناس.. النسوان عندنا وحشه ليه.. كما قالت لهم جدتي بدأت إبتنها عزيزه بفتح المائدة :

- هات ياست لبيه حله..

- حاضر.. وناولتها الحلة وهي بالباب.

غرفت الأرز إلى وعائها حتى بلغ نصفها ثم وضعت فرخة محمرة فوقها وحملتها الى الباب مناديه :

- يا ست لبيبه إنت والحاج..

- يا نهار أبيض دا واجب علينا إحنا..

- كلنا واحد يا حاجة.. خدي..

وقالت زوجة خالي عبد الحكيم لأمي :

- إتعدي يا لله كلي الفرخة دي كلها والرز ده..

- وأنتم..

- أكلنا أهه..

ومن بؤجه كانت بجانبها فتحتها وأخرجت حله بها نفس الأرز وفرخه قسّموها.. كان كل ذلك المولد ولم يذكر أحد حسن ولم يسأل عنه والذي فاجأهم وهم يأكلون.. أن خرج حسن من تحت غطاءه كأنه يفاجئهم.. وفرختي.. ضربت كل منهن صدرها بيدها.. ورحن يتمطعن من الضحك وقامت إليه خالته عزيزة لتحمله بين يديها.. تعال ياروح قلبي كل مع خالتك.. إحنا قلنا إنك نائم يا مكار.. إنت شقى أوي.. وراح حسن يضحك وترك حجرها وراح قرب عبد العزيز يتأمله وهو يقول.. الله أكبر.. الله أكبر.. وكان قد تعود على هذه الجملة عندما كان يجد أبيه يصلي كما يقول.. يقول كأني طفل الله أكبر.. وراحت كل منهن تطعمه أرزاً ودجاجاً.. هاصت الدار وفرحت جدران الدار بأثاثها بالأهل ولم تنس عزيزة أم إبراهيم التي ملأت لها طبق أرز وربع الدجاجة والتي تناولت طعامها على عتبه باب الغرفة.. وفاجأت زوجة خالي عبد الحكيم الجميع وراحت تغني أغنيات الولاده الجميلة وكل من

عديله وعزيزة يرددان خلفها ما تقوله وأم إبراهيم تصفق بكفيها على نغمة الغناء وراح حسن من غبطته يصفق هو الآخر ويتمتم بشفتيه وكأنه يردد معهن كلمات الغناء الصعبة عليه.. تركهم حسن وراح يجري فجأة قاطعاً طول الدار من باب الزريه حتى جدار السور الخارجي.. ولكنه قرب باب الغرفة التي فيها الأهل تعثر حسن بالأرض فوقع على وجهه فجرت إليه أمه لبيبه تحمله وعلت بصوتها :

- إسم الله عليك وقعت على أختك أحسن منك

وكررتها وهي تحتضنه وتمسح التراب عن وجهه وملابسه.. ولما سمع الأهل كلامها الجميل ودعائها وحنيتها على حسن قالت عزيزة لأختها:

- ما هي كويسة يا حميدة.. دا بتموت في حسن..

- والله ما حد عارف حاجة.. دا بس عشان إنتم قاعدين..

- إزاي إحنا لينا الظاهر..

- طول النهار لوحدي ولو الدنيا اتقلبت هنا تعمل نفسها مش حاسة بأي حاجة.. معلش إنتو ناس طيبين..

- آمال فين سعاد..

- سعاد تلاقيها نائمة.. سعاد بقت بنت لبيبه..

فقالت عديله الغولة :

- أهى شايلها عنك بكفاية عليكى الولدين..

- أنا بقول كدة برضه.. البت دي هايطلع قلبها جامد زي
بتوع شنشور..

وأكملت عزيزة:

- أنا بقول لأمي سعاد دي حتى شكل الحاج حداد..

- هو حداد اللي قسّمها من الأول وعلى فكرة هو هدفه ملأ
حياة لبيه:

عديلة: - ييقه بيعبها عايز ييقه ليها ولاد بأي شكل..

وضحكت أم ابراهيم عند الباب وقالت وكأنها تهمس كمن
تقول سراً:

- بتحب قوضه لبيه أوي ولو طلعت في وسط الدار وقلت لها
تعال هنا لأملك تقول لأ وتجري تدخل قوضتها وتقفل:

وأكملت أُمي:

- زي ما يكون ولدتها.. كأنها مانزلتش من بطني.. وعلى فكرة
أنا حاسة إنها بتقسّيها عليّ وأنا مش بدق علشان تلهي لبيه عني
يمكن تخلي قلبها يصفالي شوية..

وتقول عزيزة:

- وحداد يمكن عايز كده..

وتقول زوجة خالي عبد الحكيم:

- والله دا راجل كله عقل وإنّ ماترعليش يا حميده..

- والله ما زعلانه.. بس هي الأمور عجيبه شويه..

وتكمل عديله الغوله :

- بكره تكبر وتعرف كل حاجة ودي ليه تبقة مشكلة..

ونادت خالتي عزيزة على لبيه :

- ياست لبيه.. ياست لبيه.. فين سعاد..

- إديتها أكل وبتاكل في القوضه..

- هاتيها نسلم عليها..

- حاضر..

- ليها أهل من أمها.. برضه تيجي وتعرفنا..

- حاضر هاجيها حالاً..

ورحن ينتظرن سعاد.. وهن يداعبن حسن ويحملنه ويقبلنه..
دخلت عليهن سعاد تشدها أم إبراهيم إلى داخل الغرفة.. قبلتها
واحدة بعد الأخرى.. كانت كالعجل العاصي الذي يمتنع عن
دخول الطبلية (الساقية) فقالت لها أمها زاعقه فيها :

- أهل أمك يا خايه يانايبه..

فكشرت سعاد فقالت لها عزيزة وهي تمسكها وتحاول أن
تأخذها في حجرها :

- أقعدي مش أنا خالتك..

- ماعرفش..

- طيب إعرفي.. شوفت عبد العزيز..

- وحش شوفته.. حسن أحلى..

- طيب بوسيه..

وقامت من حجر خالتها وانقلبت مسرعة الى خارج الغرفة
وكأنها تهرب أو تختبئ منهم في جحرها.. وهرولت إليها أمها لبيبه
وفتحت الباب فوجدتها تلوذ في فراشها بالسرير.. ابتسمت لها أمها
لبيبه إبتسامة عريضه.. وقالت لها.. شاطره.. ياروح أمك ياسعاد..

ومازالت الهيصه في غرفة الوالدة وحسن يجري هنا وهناك في
داخل الدار كأنه يريد أن يقع مرة ثانية وأم إبراهيم تجره إليهن حتى
لا يقع ثانية.. وفي مره وهو يجري حاولت أمه لبيبه أن تدخله
غرفتها.. وهو مستحيل وكأنه ولد كبير يأبى أن يدخل غرفتها
ويجري منها نحو الهيصه وأهل أمه اللائي ملأن البيت فرحاً
وسروراً..

وسكنت الهيصه قليلاً ولما دخل الحاج بيته كان حسن يشم رائحة
أبيه وهو عند باب السور فجرى نحوه ليقابله فحملة أبوه على
صدره ومشى به إلى داخل البيت فأخبرته لبيبه بأن جماعة تلوانه
جوه.. وفرح الرجل وراح يقول.. ياالله.. ياالله.. ياساتر.. وإجتاز
باب الوسط وقال وهو يقف أمام باب الغرفة :

- يا أهلا بالنور.. أنور كله جه بلدنا..

ودخل وصافحهم جميعهن مرحباً.. وسأل عن عبد العزيز فقالت
له أمي :

- عايزين أم هان باين عنده مغص والواد شكله بيتألم..

وقالت عزيزه لأختها :

- طيب يا كل الأول وبعدين يروح..

.. وحملت إليه أم إبراهيم طعامه ووضعتة فوق طبلية صغيرة
وجلس قرب باب الغرفة ليسأل عن كل فرد في تلوانه ويتناول
طعامه وقال ضاحكاً لهن :

- صحيح دا رز وفراخ تلوانه حاجة تانية.. أحسن من بتاع
شنشور بكتير.. إنتو عارفين ليه علشان من إيد الحاجة شلبية..

وراح الجميع يضحك بمن فيهم حسن الذي بدا عليه وكأنه يفهم
كلام أبيه..

لما ذهبت قدره إلى بيتها لتحضر بعض ملابسها وجدت ابنها كردي عاطلاً في الدار بلا عمل، وكان الولد يكضم غيظاً كبيراً نحو أمه لما يراه في قربها من الحاج حداد، وفي هذا الصباح شتم أمه وكاد يضرها وهذه عادة معظم كثير من البيوت في شوارع معروفة.. عادي جداً أن يدفع الولد أمه ويقول لها يا وليه.. يلعن أبوك بنت كلب.. يامر (يا امرأه) جتك داهية إنت وأمك هكذا هذا شئ عادي في هذه البيوت سواء في داخل القرية أو في الغيط، وكثير من أبناء القرية الآخرين البعيدين عن الفقراء ينادون أمهاتهم بلفظ (يا وليه) وقليلون يقولون يامه.. وفي هذا الوقت لا يوجد في القرية كلها واحد يقول لأمه ياماما.. ولكن في الكفر هناك أولاد الموضه والأفرنج وعبد البر وبيت لظيمه.. شئ عادي أن يقال ياماما.. وآه لو سمع أحد من أبناء القرية الآخرين كلمة يا ماما من أحد.. خد يا سخرية وياتريقه ويافلحنه للصبح، إن الناس جميعاً في قريتي يستهجنون المعاملة الطيبة والرفيقة والمهذبة بينهم.. إنهم جميعاً ينشرون الغلظه.. وكان عادياً أن يقول كردي لأمه يا وليه يامر يامسحه ياكلبه يابنت الكلب.. طرق خالها الحاج الباب ليسأل عنها إنها غائبة منذ أيام ولا تأتيه في غرفة التبن ودق الباب منادياً يا قدره :

فرد عليه ابنها من الداخل :

- مش هنا يا حاج..

- إفتح يا كردي..

أمسك أمه من ذراعها قائلاً :

- قومي إفتحي لأنيتك.. (يعني للذي يعمل فيك)..

وفي مراره وحزن قامت وفتحت الباب إنها الآن في حماية رجل..
فوجدته راكباً حمارته فقالت :

- إتفضل يابه الحاج..

وبصوته الأخنف الرخيم القوي :

- إنت فين ياقدريه إيه جرى إيه..

- أصل كردي زعلان معاه شوية وعمال..

- عمال إيه..

ونزل الرجل من فوق دابته وربطها في شباك جيرانها ودخل بيتها
قائلاً :

- هو فين..

كان كردي قد هرب في ركن الغرفة لا يعرف ماذا يفعل..
وسأل نفسه لماذا يهرب.. ألم يكن منذ قليل يرفع صوته على أمه
ويتهمها بعلاقتها مع الحاج.. وزعق الحاج :

- ياكردي تعال.. تعال (وهو يشخط)

ومثل بين يديه فجلس الحاج فوق المصطبة وجلست قدره على
عتبه الغرفة (قاعة للشتاء والصيف) وتنحنح ثم سعل ثم بصق وزعق
في كردي بقوة وقد خفض من صوته حتى لا يسمعه أحد وطفق
قائلاً :

- شوف إسمع كويس.. أمك دي شريفه ومافيش بينها وبينى
غير الشرف..

وفي ضعف وكأنه سيبكي :

- آمال إيه اللى سامعه.. دانا مكسوف من الناس كلها..

- أمك مش شأنه..

- وغرفة التبن دي بتجيلك ساعات والناس كلها شايفه..

- إسمع يا كردي.. أمك دي تبقة مراي..

ضرب وجهه بكفيه وكأنه يلطم :

- مراتك إزاي..

- والله يابني مراي من سنين وانت صغير من يوم أبوك مامات..

- مش مصدق يابه الحاج..

- روح إسأل الشيخ أمين.. مأذون البلد كلها..

- طيب ليه ماقلتش للناس..

- مش لازم الناس المهم ربنا..

- طيب وليه اتجوزت أمي..

وقعد كردي مذهولاً أمام الحاج :

- عشان أبوك كان غلبان وانت صغير عايز تأكل وتشرب

ماكانش في بيتكم بتاوه وأمك حلوه وفي عز شبابها.. بجوازي منها

بعدت عنها الديابة الموجودة في كل حته في البلد وكفلتها

وكفلتك.. وكل حاجة كويسة تمت عليك وعلى أمك.. الستر عارف الستر.. الستر اللي بينخلي الناس كلها تعيش في سلام وأمان.. ما هو ربنا مش خالقنا ناكل ونشرب بس.. المقتدر يعمل الخير على أد ما يقدر.. ربنا مديني ارض وصحه وعقل.. لما العقل يشتغل الإنسان يعمل خير كثير أوي.. الفرق بين وبين إخواني محمود ودردير.. إن أنا مش عايش لوحدي ومع نفسي وبس.. لازم أمد إيدي لغيري وأساعدته بأي طريقة إن كانت.. وأمك مش لوحدها.. لو كان فيه رجاله في البلد ما كان فيه مطلقة ولا أرملة ولا غلبانه..

- يافهار إسود يابه الحاج.. يعني أمي شريفة..

- أشرف من الشرف..

- طيب لما إنت راجل بتعمل الخير وكلامك كبير أوي على فهمي ليه قطعت عيش شأنه من البلد..

- وهي شأنه كانت بتاكل عيش.. ياكردى ما انت عارف شأنه كانت مضیعة ملأه مريان بالكامل..

- بيقولوا إنك كرشتهم وخدتهم لمصر وسبتهم في الشوارع وجيت..

- معلش خللي الناس تقول.. روح إسأل جابر عسر..

- مين جابر عسر.. الراجل ده من بلدنا بيشغل الناس في مصر.. ساكن في إمبابه وراجل ليه دماغ حلوه..

- طيب يابه الحاج أنا عايز أهج من البلد..

- لوحدك..
- وأمي معاه..
- وهاتأخذ مراقي معاك ليه..
- كفاية عليك يابه الحاج مانت عملت اللي عليك..
- وإنت عايزه كده يا قدره..
- خلاص ياخال حداد..
- أفهم من كده أنا من النهارده بقيت خالك..
- إنت تاج راسي.. طول عمري هاحلف بيك وبرجولتك
ويإنسانيتك.. خليني أروح معاه أهو برضه أعيش وآخذ بالي منه..
- وأنا موافق..
- مش زعلان ياخال..
- طيب خللي أمك تجيلي النهارده بس..
- وبعدين يابه الحاج..
- من بكره جهزوا نفسكم ولفوا عزالكم..
- يعني هاتودينا لجابر عسر..
- أيوه..
- أنا نفسي أروح مصر..
- مصر واسعة والبلد ضيقه وإن أخلصت في شغلك ربنا
هايديك بس خللي بالك من أمك..

- حاضر يابه الحاج.. بس أنا من دلوقتي هافرح علشان
هاتودينا مصر..

- وأنا عند كلامي.. أنا ماشي دلوقتي رايح الغيط..

- وأمي وراك.. ربنا يخليك يابه الحاج..

”حكاية عبد العزيز والسر”

من عادات أهل قريتي حتى ولو كانوا في شدة فقرهم أن يعملوا له ويتجمعوا في ولادة الطفل وفي سبوعه وعند سفر أحدهم أو في مرضه، إنهم يتجمعون عندما يموت أحد خاصة بعد دفنه في الدوار أو في البيت أو أمام بيت الميت.. في الأفراح والمسررات وفي المضرات.. إنهم قوم يتوددون ويحاملون ويقترب بعضهم البعض من بعض بأي شكل من الأشكال في محاولة لإثبات وجودهم الطيب في الحياة وبأقل أو بأي إمكانيات متاحه، كل ذلك رغم أنهم يتشاجرون ويتناوشون على بصله أو على تعليق الطبلية (الساقية) أو على كوز دره أو فحل خميره أو كبشة دقيق أو على فرخة عدت السطح أو على جاموسة قطعت الحبل وخرمت في غيط الجار، إنهم ناس ضيقي الصدر لا يتحملون يموتون في النقار والشجار وتقطع الجلاليب والردح خاصة بين نساء الحارات والفقراء.. إنهم يتوددون في توتر ويتعدون وينفرون في توتر أشد، إنهم يكيّدون كيّداً في المعايير والمخارنه والغيظ والعكس في المجاملة والتقرب إنهم أقرب الناس إلى الحب وأقرب الناس إلى الكراهية وكلاهما مثلهم تهبب في السراء والضراء ولا تعرف في كثير من الأحيان أي معنى لنباحهم.. إنه بمقدار الدفء يقابله مقدار من التلامه والبرود وأنه بمقدار الغلظة يقابله مقدار من القلوب الرهيفة الضعيفة الواهنة.. إنه وهن من الضعف.. وهن من الحب وهن من الكراهية وكلها أحبال ممتدة من العلاقات التي يحميها العمل في الحقل والبيت.. وانه يشفيها حصاد القمح وجنى القطن وحلابة البهائم.. إنها تلتئم في ولاده بقرة

أو عُشْر جاموسة أو مأمأة معزة وإن الوزه والبطة والفرخة التي
تقنيها (تربيها) زوجة الفلاح في زريه البيت تغنيها من الذهاب إلى
السوق وشراء كيلو لحمه من الجزار.. إن قريتي كلها تغتسل
وتستحم يوم الخميس.. ويقول الفلاحون أجريه وعمال وأصحاب
أرض.. يوم الخميس فيه لقمة زيادة تبقه الطشوت تحبب في الحلل..
الخميس والسويقه في بلدي هو يوم عيد بدون جلايب جديدة
ولكن بصحن طيخ وجته لحمه والذهاب إلى الدكان لشرب الشاي
والجوزه ثم العودة إلى البيت بمزاج عال تكون النساء قد ملأن الحلل
من حنفية خليفة الأكرت لتسخينها في أي وقت بالليل كي تستحم
ويستحم زوجها.. يقولون عنها في يوم الخميس حلة زيادة ولقمة
زيادة وصحن طيخ فيه حتى لحمه أو ورك فرخه.. إن الناس في
قريتي يعيشون زي ما تؤديهم الريح.. زي الشجر وعود البدره
والقطن والتليس.. يوم الخميس في قريتي عيد أحسن عندهم من أي
عيد لأنه سريع ويبيجي كثير وكل أسبوع فيه خميس.. الناس في
قريتي بس عايزه راجل حكيم وست بتحكي الحكاوي والحواديت
لنسوان وأطفال وحتى الحمير بتسمع كلام الحواديت.. شوف ودان
الحمير كبيره ومطرطره بتموت في التصنيت.. الدكاكين في الناحية
البحرية كثير.. دكان دردير حجاج ودكان محمد عفيفي ودكان
شديد البكل ودكان عبد المحسن محروس ودكان عبده أبو سعد..
ودكان فهيم عثمان ودكان أحمد عبدالله ودكانة كمال هاده..
دكاكين فيها الشاي الثقيل والسجاير اللف ومعسل الدفراوي
والعتبلي وزغلول.. فيها القوالح والدكان فيه أحلى النكت
والحكاوي والحواديت والضحك والود.. فيه الناس تتبسط.. كانت

السليوه الوحيد في الليل هي الدكاكين.. والعزبة البحرية اللي فيها بيت أبويا وأمّي فيها دور كثير حوالينا.. دور زي دارنا ودور تانية في العراقيب.. بيوت ريحتها حلوه وبيوت ريحتها ولا جلة البهيم.. بيوت عاليه وليها سور وليها أبواب كثير وبيوت زي الحق بيوت عنكب شد واركب وسرح كشكه وإيدله في اللاوندي على أدعبله الفسيخ.. بيوت كبيرة على الترعة بيوت الصاوي والقطان وأبو سعده وصاحب مكنة الطحين.. وحواليها والقرب منها وبرضه على الترعه بيت أبويا وأمّي وبيت الحاج أمين ونصر عبدالحليم والحاج حسين.. بيوت كبيرة وعاليه وواسعه وليها أسوار وأبواب كثير وبيوت الغلابة جوه في العكنه والزنقه وفشل الحمير حتى تلاقي الكلاب فيها جربانه ومسعوره وقربت تروح سراية المجانين.. لكن الناس عايشه وقنوعه وراضيه والسطح عندهم متعه في الصيف.. السطوح كلها مفتوحة على بعضها تعديها في شبر واحد وكان سهل أوي على العاشقين جاين ورايحين وعلى أد العشه اللي فوق السطح جنب شويه فراخ يدوقوا ريحة المزاج على حس نبج الكلاب أو حتى تنهيق الحمير.. نشأت هنا في قرية لا تستحي من أعمالها في النهار والليل.. نشأت على حرف ترعة كبيرة متفرعه من فرع الرياح المنوفي.. وكان طريق الترعة جميلاً إذا ذهبت إلى الكفر وفظيلاً إذا ذهبت إلى الحقل.. وحرف الترعة عيداً إذا ذهبت إلى السويقه قبل أن تصل إلى الكفر وحرف الترعة قاسياً إذا ذهبت إلى شروة حسن (ناحية بعيدة من البلده أهلها أصحاب قلوب قاسيه) وحرف الترعة المؤدي إلى ملأة رحيلة أروع حروف الترعة لأنه يؤدي إلى الطريق المؤدي إلى البلده التي منها أمّي.. ولما كبرت قليلاً

كنت أخاف من غرب البلد وأخاف من ظلام شارع الدوار وأكره شارع الخارجه الشارع الذي يسكن فيه أبو لبده زرقه.. الرجل الذي سلط كلبه المسعور عليّ وأنا صغير وكاد الكلب يمزقني في عرقوب دار حسن نظلهان لولا مجيدة بنت عمتي شفيقة التي إنزعت من تحت الأرض وأنقذتني من بين أنياب الكلب بل وأخذتني من يدي وذهبت إلى صاحبه وكَيْلت له من الشتائم مالا يستطيع أسوأ رجل في قريتي أن يتحمّله.. نشأت في حياة رغيدة في بيت أبي وكفلي أب حُرْم من الأطفال على مدى عشرين عاماً وهو كلما وُلد له طفل مات بعد شهور قليلة من ولادته.. وراعتني وأحبّبتني أم عرفت بعد شهور قليلة من زواجها أنها جاءت إلى هذا البيت لكي تلد لصاحبه أطفالاً.. كم أطعمتني وكم عطفّت على وكم بكت من أجلي إذا سعلت.. وكم كنت محظوظاً حتى زوجة أبي كان قلبها ينفطر عليّ فإذا وقعت على الأرض جرت مفزوعة وحملتني من الأرض وقالت.. إسم الله عليك.. وقعت على أختك أحسن منك.. وسوف أظل ما حييت أن أتذكر في صباح كل يوم.. كانت أمي لبيبة تأتيني قرب سريري وتقول وهي ميّته من الضحك :

- قوم يا حسن روح المضرسه (وليس المدرسه) ولا أقوم من فراشي إلا إذا كررتها مرّات.. أقوم وأنا أموت من الضحك.. فتسعد أمي لبيبه لأنني أقوم إلى المدرسه عن طريقها.. وأمّي كانت جد سعيدة بهذه (المضرسه) كل صباح.. ورغم أن بيت أبي وأمّي وأمّي لبيبه كان مليئاً بالنقار طول الليل والنهار.. مليئاً بالكراهية بين أمّي وضرتها وبين أمّي وأهل أبي إلا أنهم إتفقوا جميعاً على حيي.. لم

يكن أمام من حولي نفاقاً أو تقرباً أو من أعماق قلبه إلا أن يجنني أو يظهر حبه لي.. نشأت قوياً في الحب لأنني شبت منه ونشأت حذراً خائفاً من الكراهية التي أجدها في كل مكان حولي.. وكم كرهت الكلاب.. كلاب الحوارى الضيقة وكلاب الشوارع الواسعة وكلاب الطريق في رحيله الطريق المؤدي إلى بلدة أمي.. إلا أنني أحببتُ كلابنا الثلاثة في الغيط.. وأحببت كلاب جدي أحمد فوده لأنها كانت كلاب راقية من صنف الهول.. ولم أكن أستطيع أن أفصل بين ما أكره وبين ما أحب.. لم أكن أستطيع أن أفصل بين الكراهية والحب أو أن أفصل بين كلاب الناس وبين كلابنا في الغيط وبين كلاب جدي.. كانت الحياة حولي وعندي وأمامي وخلفي خليط من الحب والكراهية وشكل ذلك صراعاً شديداً في داخلي وكانت الكلاب أيضاً.. وكان على أن أختار طريقاً واحداً.. هو أن أحب كل شيء.. أن أحب الحب وأن أحب كل الكلاب وأن أحب الكراهية لأنني إذا أحببت الكراهية إنقلبت إلى حب.. هكذا اعتقدت وسرت على هذا الدرب إلى.. لا أعرف إلى أي عمر أو إلى أي مكان..

.. مرّت الأيام والشهور فيها كبرت وكبر عبد العزيز.. لم أكن أعرف كيف أداعبه لأنني كلما إقتربت من وجهه لأقبله صرخ وأزاحني بقبضة يده الصغيرة.. وكانت أمي تقول لي.. معلّش أصله برّى.. زرزور.. وكنت أبتسم وأركن بعيداً عنه.. وكان يزّهق أمي في الليل بكثرة بكائه ولا يتعب ولا يكل من الصراخ.. وكانت أمي تقول الواد دا حمقي (يعني خلقه ضيق) وكانت تقول أيضاً.. من

يوم ما جه مغلبي وداوش القوضه.. أكيد يا حسن إنت زعلان من أمك.. فأقول لها زعلان أوي فتننبه لقولي :

- قولي من إيه يا حسن..

- القوضه كانت هاديه.. وكنت باعرف أنا..

- وإيه كمان..

- كنت بتحكي لي عن جدي وجدتي وعن إخواتك.. وعن أبويا وأمي لبيه..

- ودلوقتي..

- لا نوم ولا حكايات..

- أعمل إيه يابني..

- بيعه.. بيعه يأمه..

وراحت تضحك.. وتقول ياريت يابني كنت أقدر أبيع.. هو الضنا بيتباع.. أبداً عمره ما يهون..

- يعني إنت بتحب..

- أيوه يابني..

- وأنا..

- إنت أكثر..

- أكثر أوي..

- أكثر أوي أوي..

.. وفي ليلة فضح الدنيا من العياط (كما يقولون.. يعني اللي على السكه سمعه) حملته أمي ومشيت به في طول البيت وعرضه حتى خرجت تمشي به بجوار سور البيت الخارجي ولا فائدة.. إستيقظ أبي في المندره مرتين من إزعاجه ثم نام.. خرجت أمي لبيه تسأل عن نباحه المستمر.. فقالت لها أمي في زهق :

- خديه شويه..

- هات..

.. وحملته أمي لبيه دقيقة من البكاء الحاد ثم سكت فجأة..
إندهشت أمي لبيه وقالت:

- دا سكت..

- ياريتني إديته ليك من بدري..

- هاخده قوضتي..

- خديه إشبعي بيه..

ومن شدة إندهاشي لسكاته في حضنها خاصة عندما نامت أمي لبيه على الكنبه وأخذته إلى جوارها قائله :

- هُوَ هُوَ.. لأنه كان ينفجهم من كثرة بكائه..

دخلت إلى غرفتها لأ لاحظ ويبدو أن أمي من تعبها تركتنا ودخلت غرفتنا وراحت في النوم على كنبتها..

.. كان عمري وقتها عامان ونصف بدأت أعي جيداً وألاحظ بدقة كل شيء حولي.. وعندما سكن الولد ونام كانت أختي سعاد

صاحبة الثماني سنوات ترقب كل ما يجري وهي ممدده فوق سرير أمها لبيبه لكنها مفتحة العينين فقالت :

- خلاص يامه.. كل ما يعيط خديه إذا كان كده هاينام على طول..

- ضحكت أمي لبيبه على كلام سعاد وأحكمت الغطاء حوله وقالت وهي تطلع إلى سريرها لتنام بجانب سعاد:

- علشان تعرفي أنا حنينه إزاي على الولاد الصغيرين .. وخرجت من غرفة أمي لبيبه إلى غرفتي .. فوجدت أمي تشخر في نومها من كثرة التعب، ودخل أبي علينا وأنا أسحب الغطاء فوقني فقال:

- هي نامت .. أيوه ..

- فين عبد العزيز ..

- في قوضة أمي لبيبه ..

- ياسبحان الله ياريت يسكت بلبيه كل ما يعيط ..

- إنت بتحب عبدالعزيز ..

- طبعاً ..

- بتحبه أدى ..

- لأ إنت أكثر يا حسن ..

.. وفي اليوم التالي كان كلما بكى أعطته أمي لأمي لبيبه فيسكت .. وعندما جاء الليل وبدأ يبكي بكاءه الطويل إرتاحت أمي

منه وناولته لأمي لببيه فسكت معها ونام مثل ليلة البارحة.. وفي الصباح من اليوم الثالث وأمي تخض القربة وأم إبراهيم تحمي الفرن للخبيز وأمي لببيه تملأ القلل والتي جلست بعد ذلك أمام طبلية لتقرّص الخبز فوقها (تقطع العجين أرغفة عيش) وراح الثلاثة يتحدثون عن الخميرة والدقيق وهن في إتهامكهن في الكلام والحديث صرخ عبدالعزيز صرخه عاليه تبعها بصرخات أعلى منها فقالت أمي :

- إلحقي يالبيه خديه..

- آخده أوى ..

وهرولت إلى الغرفة وحملته ووضعتة في حجر أمه فصرخ ثانية فقالت أمي لها:

- خديه خالص روحي بيه قوضتك دانا لسه مرّضّعه..

سعدت واحتضنته فسكت وراحت به إلى غرفتها فنام في أحضانها فوق الكنبه وهذه هي المره الثالثه..

وعادت أمي لببيه تضحك قائله :

- ياريت كان عندي لبن في صدري..

- يمكن ربنا يدريك علشان عبدالعزيز..

- إديه لي يأم حسن..

- ياريت..

- والله صحيح..

- خديه زي سعاد..
- لما بيعجي الحاج أقوله..
- أنا صاحبة الشأن بقولك خديه وهو هايفرح كده..
- بكام يا أم حسن..
- ضحكت أم حسن وقالت :
- ببلاش هاديك فلوس عليه..
- وراحت أمي لبييه تغني.. تغني بحق وحقيقي وأم إبراهيم تضحك وتقول لها..
- أهى جات لك من السما..
- والله ربنا بيعوض..
- ربنا يعوض عليك.. ربنا كبير يالبييه..
- إنت رضيعيه وأكليه وأنا أسكت وأنيم..
- هادعيلك يالبييه..
- طيب مش معنى حسن مايجليش..
- يعني عايزة تاخدي الولاد كلها..
- أبداً أنا بأسأل دا حسن مايطيقش يقف في قوضتي دقيقة ويطلع جرى ليك..
- أسرار بتاع ربنا..
- هانقول للحاج..

- هو أول واحد ها يفرح علشان عايزك تسعدي وتبقى
مبسوطه..

.. ولما جاء أبي من الغيط أخبرته أمي لبيه بكل ما حدث فقال
لأمي :

- صحيح يا حميده..

- والله صحيح..

- إنت موافقة إنه ييات مع أمه لبيه..

- عادي.. ما هي أمه يا حداد..

وقامت أمي لبيه وباست أمي من رأسها فتأثرت أمي من
تصرفها ورفعت يديها إلى السماء قائلة :

- يارب تدي صدر لبيه اللبن..

- أهو كده أبقه أم بصحيح..

ولأول مرة يحصل الرضا التام بين كل أهل البيت.. وراحت أمي
لبيه تحكي لأهلها عما حدث.. وحكت أمي لكل أهلها الذين
زاروها تباعاً بعد هذا الحديث، هذا غير أم إبراهيم التي ملأت
شوارع وحارات العزة البحرية بحكاية عبد العزيز مع أمه الجديدة
لبيه.. وملأت الحكاية دور أبي محمود وأبي دردير وقالت أمي مجيده
القطان لأبي محمود :

- حاجة غريبة واحدة تخلف وواحدة تسكت والعيال يسكتوا
في حضنها..

فيرد عليها أبي محمود :

- علشان الدراوشه يسكتو شويه عن حميده وتبرد نارهم..

- بالعكس يمكن الحكاية دي تخليهم يطمعوا أكثر في حداد..

- ربنا يهدي.. بس حسن ابن أمه بصحيح..

.. كلما ذهب أبي إلى أي مكان تعلّقت في يده وذهبت معه إلى الدكان في الليل وإلى دار عمي محمود وعمي دردير.. كانت كل زيارات أبي وخروجه في الليل.. ولكن ما أجمل أن يذهب أبي إلى الكفر ويأخذني معه هذه الليلة إلى بيت الست لظيمه البدري.. دخلنا إلى بيت جميل وسيده رأيته جميلة وابنتها في منتهى الجمال والتي بلغت من عمرها خمسة عشرة ربيعاً ويزيد..

.. كنت أعني وأرى وأتأمل.. كانت السيدة منشغلة مع بعض السيدات والفتيات من أهل الكفر وجلست أنا وأبي في الصالة واستطاعت السيدة لظيمه أن تنهي أعمالها معهن في نصف ساعة على ما تناولنا واجب الضيافة الذي قدمته سميرة الجميلة.. إنصرفت السيدات وفتاتين بعد أن فصلت لهن الست لظيمه فساتيهن وجلابيهن وكانت خياطة الكفر الجميلة وابنتها يحكيان لأرقى سيدات وبنات الكفر أجمل وأشيك الملابس الداخلية.. وبعد أن ودعت صاحبة البيت زبائنها حتى الباب الخارجي للبيت فلم يكن قد بقي من الزبائن غير فتاة واحدة جاءت ومعها كثير من الأقمشة لفصيلها فساتين وجلاليب وقمصان داخلية وسراويل أنيقة.. إنها عروس الكفر في الشهر القادم.. عادت السيدة لظيمه فقَبِلْتُ أبي.. وقلت ياريتني كنت أبويا وكانت الست في منتهى الذوق فقبلتني

أكثر من أبي.. وكانت العروس بالداخل في غرفة سميرة كي تكمل لها تفصيل ملابسها..

نادت صاحبه البيت سميرة وقالت لها :

- خدي حسن.. دا صغنون وجميل.. خديه معاكم.. مش عارف حاجة لسه..

وانخت سميره لتحملني فأبيت وأمسكت بأصابع يدها وقلت في فخر :

- أنا بمشي.. أنا كبرت..

دخلتُ مع سميره غرفتها وهي تفصلُ أرق الثياب للعروس والتي رحبت بي وقبلتني في كل وجهي قائله.. منين القمر ده.. فقالت لها سميرة.. من بحري ابن أبويا الحاج.. غاليين عندنا اوي.. وأخذت الست لظيمه أبي من يده إلى غرفتها بعد أن تعطرت حيث سمعتها تقول في الخارج.. تعال هات إيدك الطريه دي في إيدي.. تعال نخش جوه أحسن.. واحشني يا حاج.. فقال لها أبي.. إيه الريحه الحلوه دي.. إنت وحشاني أوي..

ولأول مرة لطفل مثلي عمره يقترب من ثلاث سنوات يرى خياطه صغيرة السن مثل سميره تفصل ملابس عروس.. راحت تقيس لها بالمتر صدرها وأكتافها وحتى الخصر ثم إلى طرفي القدمين.. جلاليب وفساتين وبيجامات وكل نوع تفصيله شكل.. كل هذا وأنا مندمج في رؤية فتاتين واحدة في السادسة عشرة والعروس في العشرين من عمرها.. كلامهما ضحكهما تفصيلات حديثهما.. ولم أكن قد رأيت من قبل عروس في بحري قبل العرس أو عروس لها

تلك الثياب الجميلة التي ستحيكها ولا يوجد في العزة البحرية كلها امرأة أو فتاة ترتدي تلك الملابس الناعمة الرقيقة ولا البيجامات وحتى ملابسهن الداخلية فهي سراويل طويلة وقمصان نوم كأنها جلابيب وهي قصّة واحدة يقوم بخياطتها خياطين رجال مثل نصر على ومصطفى القاضي دون أخذ قياس.. بحري البلد كلها خناشير النساء تتحلى كل منهن بالتميص الأسود الواسع أم شمار وإذا خلعت لزوجها القميص الخارجي أو ما تحته رجعت كثيراً إلى الورا حتى تخلع عنها ملابسها.. لا رقة ولا عذوبة ولا كياسه في الكلام أو حتى في وقت ملازمة زوجها في الفراش تقول كلمة حلوة أو تمنع لزوجها في أنوثه ودعه.. كل هذا عيب ولا يصح فأننا أم الرغيف وأم الفطير وأم كل أنواع الخبز.. أحى الفرن وأكنس الدار وأحزّم البردة فوق ظهر الحماره.. أحلب البقر والجاموس وأعمل أحلى تسقية كل صباح ومساء لزوجي وأولادي على فرن القاعة صيف شتاء..

النساء في ناحيتي بحري جحافل مصفحة. مكافحات عاملات عرقهن هو عطر فراشهن.. هن جميعاً عوامل إنتاج في الحقل وفي الدار.. وهل يستطيع طفل في هذه السن المبكرة أن يعقد هذه المقارنة بين النساء في قرية واحدة.. إنني عندما رأيت العروس تخلع ملابسها لتبقى أمامي وأمام الخياطة بقميصها القصير وسروالها الصغير حتى تستطيع الخياطة أن تفصل القميص وما تحت القميص مثل الذي ترتديه والتي إشتريته من مصر عندما كانت مع أمها هناك في العام الماضي.. وحتى لباس الصدر خلعت له كي تحيك لها مثله الكثير وحتى يكون محبوباً وشيكاً وأنيقاً على صدرها.. ولأول مره

أسمع فتاه عروس تحكي بالتفصيل لفتاة مثلها تصغرها بثلاث سنوات
عن سحر الملابس الداخلية ليلة الدخلة الأولى على زوجها وأنه إذا
إهتمت الفتاة والتي ستصبح سيده بعد ذلك بتلك الملابس تستطيع
أن تكون ملكه في دارها وساحرة لزوجها طول العمر.. حكّت
كثيراً للحائكة الصغيرة والحائكة تبتسم وتسمع وتقول لها.. برفو
صحيح.. بس هو فيه كام واحدة في البلد زيك.. قليل أوي
ومافيش غير في الكفر.. إنت جايه الحرير والساتان لكن باق البنات
وكل بنات بحري وستاته عليهم بالديلان والبفته.. إن كثيراً منهن لا
يستطعن شراء الحرير وإذا إشتري الحرير فإنهن سيفصلنه كما تفصل
الأشولة على الحمير.. يا جميلتي الجميل جميل.. وماذا تقول عين طفل
وهي تسبح في كل أنحاء جسد العروس العاريه.. إن رأسي رأس
طفل لكنه تخدّر، وإن عيوني عين صغير ولكنها تجرأت واقتحمت
وغاصت في أعضاء الفتنة.. وإن حواسي كرجل قد إنتصبت كأنني
رجل يفعل ويثار.. وهل كنت يا أبي تعرف أنني سوف أرى ما لم
يره شاب في العشرين.. وهل كنت تعرف يا أبي أن إبنك سوف
يكون له طموح وهل كنت تعلم يا أبي أن ولدك سوف يظل عبداً
لجسد النساء عندما يكبر.. وهل سمعت يا أبي صوت إبنك عندما
إرتدت العروس ملابسها أن قلت كما يقول الأطفال.. الله.. الله..
إيه ده.. إيه ده.. وهل تعلم أن الفتاتين قد ضحكنا طويلاً
واحتضنت كل منهما الأخرى لما سمعن إندهاش واعجاب طفل
صغير.. هل تعلم يا أبي أنك أرسلت إبنك إلى عالم أكبر منه.. هل
تعلم يا أبي أنك جعلت لإبنك أو صنعت لولدك خيال لا حدود له
وأنه من الآن قد أدرك أن واقع كل امرأة ترتدي ملابسها فإذا

خلعت كان ذلك الخيال. هل تعرف يا أبي أنت لو طاوحت رغبتى
وطموحي وخيالي وعمق اللذة التي إنتابتي في هذا البيت لبقيت في
هذا البيت أبداً.. ولن آتى معك إلى بيتنا الذي يقع في بحري.. إن
بيتنا الفقير بالمشاعر والأحاسيس والغنى بنقار الضُرر والغنى بالطعام
والشراب وكلاب الغيط وغرفة التبن كل هذا لا يفيد إنني يا أبي من
الآن لا أحب بحري.. إنني أريد أن يكون بحري مثل الكفر.. إنني
أريد أن تكون كل فتاة في بحري مثل تلك عروس الكفر.. هل
تعرف يا أبي أن العروس حملتني فوق صدرها العاري لتقبّلني طويلاً
وأنا مستمتع في لذة على صدرها ليتني ما نزلت منه أبداً.. هل تعرف
يا أبي ان العروس أعطتني تاجاً هو شهادة ستظل أبداً وهو أنني جميل
وقمر وإمتى أبقى راجل.. والله لما أبقه راجل هاتجيلي من آخر الدنيا
هكذا قالت لي وقالت لسميره.. هل تعرف إنني من اليوم سبقت
طفولتي لأنني عرفت قيمتي عند النساء الجميلات..

.. ومن هذا اليوم بدأت أتمرد على نساء الترة وأنهن جميعاً
خناشير وعيب عليّ وأنا في هذه المتزلة والقدر من الجمال الذي
رأيتُه والقدر من الجاذبية الذي منحته لي عروس الكفر أن أنزل إلى
حرف الترة وأن أنزل لأن أرى النساء الفلاحات وهن يحلبن
البهائم.. هؤلاء من طينه العرق والخطب ومن تبن القمح الذي منه
شيدوا غرفة التبن.. إن أبي على حق لما دخل مع لظيمه غرفتها.. إن
أبي إختار من الكفر واحدة.. فهو رجل قد أدرك الجمال قبلي
ويعيش فيه..

.. لقد أصبحت أكبر من عالمي في العزبة البحرية.. صحبني أبي
وعاد بي إلى بيتنا.. دخلت البيت وقابلني بكاء عبد العزيز فناولته

أُمي لأُمي لبيبه وهي تقعد على المصطبه ورحت أرقب أُمي التي
جلست بجواري قُرب الصومعه ودخل أبي المندره..

دقائق وسكت البكاء فقالت أُمي للذي سكت :

- مش طمران فيك صدري..

وضحكت لبيبه في ثقة :

- ياستي هو يبحبني..

- وانت بتحبيه..

- أكيد مش دا ابن حداد..

- إشتريه يالبيبه أكتبه بإسمك..

- والله لو كان ينفع أعمل كده أعمل..

- خشي إسألني حداد..

- فين..

- جوه المندره إنت مش داريه بحاجة..

- لما باخد عبد العزيز في حجري بتوه..

- طيب خُشي إسأليه..

وحملت عبد العزيز أمامها بذراعيها أمام صدرها ودفعت الباب
وقالت :

- ينفع أكتبه بإسمي يا حداد..

فلم يرد عليها كان ممدوداً بكامل جسده فوق الكنبه وكان
شخيره منخفضاً لم يعلو بعد.. إقتربت منه فسمعت شخيره فطلعت
وقالت لأمي :

- دا رايح في سابع نومه..

وهزت أمي رأسها وقالت في غيظ :

- أصله كان بيعزق عند لظيمه..

وضحكت لبيبه ضحكتها إياها.. الضحكة التي ترجرج البيت
ولم تبالي بالمعنى الذي قالته أمي..

وأخذت عبد العزيز إلى حيث يرقد كل ليلة..

وأمسكتني أمي من ذراعي وكأها تستحلفني وقالت :

- عملتوا إيه عند لظيمه..

- قعدنا في الصالة وكلت موز وأبويا شرب شاي وقهوه..

- وبعدين..

- قعدنا قعدتنا وجينا..

- بالذمه يا حسن..

- يعني إيه ذمه..

- يعني قول الحقيقة أبوك ماقعدش مع لظيمه لوحدهم..

- مش فاهم..

- فعلاً في السن دى مش هاتفهم حاجة..

- ياريت أفهم اللي إنت عايزاه..

- عمرك ما هتفهم يابني تعالى أعشيك علشان تنام..

- لأ.. أنا كلت موز..

.. وطلعت إلى سريري وورقدت أمي على كنبتها وكانت تريد
أن تحكي لي عن ما حصل في اليوم ولم أره.. وعندما بدأت تتكلم
رحت في نوم عميق مثل أبي فقامت من فراشها لتشد الغطاء فوقي..

.. وفي الصباح عقدت العزم أن لا أقول سراً عن أبي ولن أبوح
بشيء مما رأيته.. وأدركت أن للنساء في داخل البيوت عالم يختلف
تماماً عن عالم الرجال.. ولكن كيف يكون لأبي كل هذه العوالم
ومتى يكون لي عوالم مثل أبي..

.....

"الساقية والراكيه وعكيله"

.. كان كثير من أهل ملأة مريان بالغيط لا يعرفون أبي فهو الرجل الذي يقوم بأعمال كثيرة خيرة للناس دون أن يتكلم عنها للآخرين، وكان أول عمل طيب عم الجميع هو توليه ترحيل شتانه وأهلها.. وفوجئوا جميعاً بنجاحه في ذلك وراحوا جميعاً يحيونه ويحكون عما فعله، ولما طلق قدره أمام الشيخ أمين وإبنها طلقه ثلاثة لا رجعه فيها.. كان ذلك مفاجأة للجميع ولإبنها وهم الذين يتكلمون عنه منذ سنوات بأنه عاشق لقدرية في غرفة التبن، وبات عندهم يقين بأنه لا يجب أن يتكلموا عن هذا الرجل لأن أعماله بدأت تظهر فباطنها خير وظاهرها شك يلوك بين الناس..

.. ولما بدأت بعد أن أكملت الثالثة من عمري أشبط مع أبي في أي مشوار وأصر أن أذهب معه كان يرضخ لرغبتى واصراري في أن أذهب معه إلى أي مكان لأرى العوالم الجميلة التي يذهب إليها.. ومن عادة أصحاب الأرض عندما يقومون في الليل يرى أراضيهم يذهب صاحب الأرض إلى الغيط لياشر هذا العمل الذي يستمر ليله وليلتين.. بعد عشاء ليلة من الليالي ركب أبي حمارته وأخذ معه طعاماً وشايًا وسكرًا لزوم سهر الليل بجانب الساقية وحتى يأكل الأنفار كلما جاعوا طيلة الليل.. ركبت أمامه ولفنتي بعباءته معه واجتازت الركوبة ثلاثة كيلو مترات حتى وصلنا "الكباس" الساقية التي تروي الأرض.. فإذا كانت الساقية كبيره سموها الكباس وإذا كانت متوسطة سموها الطبلية وإذا كانت صغيرة سموها الساقية.. وكان هذا الكباس ملك لأبي وأبي محمود وأبي دردير فقط فهو يقع على رأس غيطهم منذ زمن بعيد.. وهم الذين يروون أرضهم أولاً

بعد ذلك ليسقى بقية الناس أرضهم من ساقيتنا بدون مقابل.. وفي عرف الفلاحين أن ذلك يعتبر ثواباً يجازي به الله لأن كثيراً من الفلاحين لا يملكون أي نوع من أنواع السواقي..

.. وفي ليلة الري يكون هناك عند الأرض التي ينصب فيها الماء نفرين أو ثلاثة يقومون بالتحويل والتصريف في شرائح الأرض المتجاورة.. وعند الساقية نزل أبي وحملني من فوق ظهر الحمارة إلى الأرض وفرش حراماً فوق الأرض وأجلسني ووضع فوق جسدي عباءته كي تحميني من البرد.. وأرسل في طلب رجب من عند المروء.. ولما جاءه رجب كان أبي قد إنتهى من حفر الراكه وتكسير الخشب الناشف الذي وضعه قطعاً صغيرة في حفرة الراكه وأشعل النار فيها.. مرّ وقت قليل وجاءه رجب الذي قال :

- أيو يابه الحاج..

- الميه عامله إيه..

- كله ماشي كويس..

- فاضل أد إيه..

- لسه في أول الغيط..

- مين معاك من الأنفار..

- فتحي..

- طيب خد عشان تاكلوا كل ما تجوعوا..

وناوله أبي عيش وشوية بتاو وجبنه وحلاوة طحينية.. ثم قال له

:

- أقعد لقمّ الشاي الأول (يعني عاير الشاي)

.. لفّ الطعام في لفافه من الخيش وقعد ليعمل الدور الأول من الشاي وفي عجل وضع كوبايه من الشاي في براد صغير ليذهب به إلى زميله فتحي وقال :

- هاروح أنا عشان الميّه عايزني في حاجة ثاني يابه الحاج..

- بعد ما تظمن على الري.. هات عنب وتعال عشان حسن..

- هاجيب عنب الجنينه كله عشانه..

- تبقة إغسله من الطرمبه (الطلبه).

- حاضر سلام يابه الحاج..

لأول مرة أرى كيف تدور الساقية التي تُجرها بقره في شكل دائرة وكيف تترل المياه التي تندلع من عيون الساقية في حفرة رئيسية ثم تنصرف الى قناة متفرعه من الساقية إلى الغيط.. وكلما وقفت البقرة قال لها أبي.. عا.. أوعه فتمشي.. وأخبرني أنها لو كانت جاموسه سيقول لها.. حيه.. وأخبرني أن البقر أفضل في تدوير الساقية من الجاموس فالجاموس يقف كثيرا والبقر لا يتوقف مثله ومن أول ندهه.. عا.. يمشي لكن الجاموس عاصي ولا بد أن تضربه بالفرقله كي يمشي.. وأفهمني أبي أن وجودنا بجانب الساقية ضروري لأنه سواءا كان بقرة أو جاموسة فإنه يمكن أن تقف بصفة دائمة أو تكثر من الوقوف فتتوقف المياه ولا تذهب إلى الأرض.. فالذي يقعد بجوار الساقية لكي يسوق البهيم الذي يجر الساقية

ليستمر ضخ المياه إلى الأرض. وبعد أن أخبرني أبي بكل هذا شعرت بأنه أطال على وأني لم أستوعب كل كلامه فقال :

- إنت زهقت..

- لأ..

- فهمت..

- فهمت يابه.. دي حاجة حلوة أوي..

.. كان الظلام حول الساقية دامساً وكانت مساحات الحقول حولنا لا ترى مداها وكانت الترعة التي يتم سحب المياه منها إلى الساقية خالية من البط والوز الذي يسبح فيها طول النهار لأن أصحابه يأخذونه عند المغرب في داخل بيوتهم.. لكن من وقت لآخر يضرب شيئاً في مياه الترعة كأن واحداً ألقى فيها بطوبه.. فيقول أبي هذا قرموط سمك.. وكنت مشدوداً.. ولما كثرت ضربات القراميط في الترعة قلت لأبي :

- هو السمك الناس بتجيه من الترعة..

- بعد الناس ما تروي ويخلص الدور (يعني إندلاع المياه من مصبها الرئيس) الترعة بتنشف.. والسمك بكل أنواعه يكون قريب من إيد الناس.. كل واحد عايز يصيد سمك يتزل يصيد.. وعلى فكرة السواقي بتبقه مليانه قراميط.. وكل واحد صاحب ساقية بيعجب قراميط زي ما هو عايز بعد الميه ما تنشف.. عرفت كل حاجة.. بكفاية..

- لأ قول كمان يابه.. أنا مش عايز أقعد في البلد..

- ماينفعش لما تكبر هاتيحي وتعرف كل حاجة بنفسك..

- عايز أشرب شاي..

- الدور الأول تقيل صعب عليك.. هاعملك كوبايه لوحذك..

- مش أنا راجل أشرب كل حاجة..

- لأ شاي خفيف أحسن زي أبويا ما كان بيعمل لينا..

- خلاص يابه.. هات..

.. ورحت أنظر حولي فلم أر غير إمتداد الحقول والظلام قد فرد
عباءته إلى آخر مدى لا أرى ماذا بعده.. وحلّقت بعيني إلى السماء
فرأيت مئات النجوم المضيئة والناعسة إلا أنني رأيت مجموعة من
النجوم ساطعه في محور واحد فقلت :

- ليه دي منورة أوي..

- علشان دول النجم القطبي..

- يعني إيه..

- شوية شوية.. دا موضوع كبير..

- طيب ودي دار مين..

- دي دار فتح الله حجاج..

- هو جوه في الدار..

- ليه مايجيش يقعد معانا..

- بعد المغرب كل واحد بينكن في داره وأي واحد يحب يقعد
معانا ييجي..

- ودي إيه..

- دا سور المصلية..

- بتاعة مين..

- بتاعة الناس كلها.. كل واحد عايز يصلي يصلي.. دي بتاعة
الناس كلها..

- عايز أشوف السمك في الترة..

- مش دلوقتي بالنهار بعد الميه ما تنشف..

.. ورحت أرقب كل ما حولي دون كلل رغم أن الليل مظلم
ولا أرى أمامي إلا أمتار قليلة.. وجاء رجب مجردل عنب مغسول
من الطرمبه.. ووضع أمامي غطاء حله وأخذ يخرج أقطاف العنب
من الجردل ويضعها أمامي.. وأبي يتسهم ويقول..

.. كل.. شوف العنب بتاع الغيط.. ورُحت أأكل وانقلب
رجب إلى المروه مرة أخرى..

.. جلس أبي بجواري وتغطي معي في عباءته وراح يدفء كفيه
فوق نار الركيه وعملت مثله وراح أبي يقهقهه ويقول :

- كده مره واحده بقيت فلاح..

.. وسمعنا صوتاً على السكه ينادي :

- يابه حداد.. يابه حداد..

فتطلع أبي نحو السوط ورد قائلاً :

- مين.. مين..

- أنا عبده عماره..

- تعال..

.. فلاح في الخمسين من العمر يرتدي بُلغةً وجلباباً وطاقية..
نزل من فوق حمارته بعد أن إقترب من زمام الساقية وربطها في
جذع شجرة صغيرة على حرف الترعة.. وتقدّم نحونا وهو يمدّ يده
لأبي قائلاً :

- لأ والله خليّك قاعد زي ما انت.

وصافحه أبي وجلس مقابلتنا حول الراكية وأخذ يتكلم عن
الزرع والقلع والري وأمور أخرى ثم قال وكأنه يهمس :

- إنت عارف يابه الحاج بنت على العناني..

- لأ..

- دي جوزها مات من سنة.. مالهش حد وأنت عارف إنها
قريبتي من بعيد..

- أيوه عارف إن على العناني قريبك.. وعائز إيه..

- هي ست شروخ وهاتعجبك وهي المشكلة أنا خايف عليها
من الناس حوالها..

- هات من الآخر عائز إيه..

- إيجوزها يابه الحاج..

- يعني أنا قاعد للنسوان اللي إترملت..
- لأ والله العفو..
- اتجوزها إنت..
- مراي هاتبهدلني.. إنت عارف النص فدان إالى بتررع فيه بتاعها.. ياريت يابه الحاج أقدر..
- ومش معنى أقدر أنا..
- إنت جامد أوي أنا ضعيف.. وبعدين هي هاتبقه خدامتك.. هاتما معاك هنا في الغيط ولو عايزها تشتغل في الغيط هاتشتغل..
- هي كام سنة..
- أقل من خمسين.. لكن زي البقرة..
- يعني إنت مالقتش حد غيري..
- يابه الحاج إنت بتاع الغلابة وهainوبك ثواب..
- طيب أشوفها إزاي..
- ممكن تتكرم عندي بكره أو في أي وقت يعجبك..
- إسمها إيه..
- عكيله..
- خلاص ياعبد هاجيلك بكره بعد العصر..
- هاييقه يوم هنا لما تنور بيتنا..

- بس تعرف أنا باخد الواحدة بجلايتها.. وهاتعيش معايا هنا
في بيت الغيط..

- هاقولها على كل حاجة..

.. وانصرف الرجل وهو يشكر أبي.. وابتسم أبي نحوي وقال :
- فهمت حاجة..

- دي واحدة هتتجوزها.. يعني إيه تتجوزها..

- أبداً.. هاتيجي تطبخ وتغسل وتوضّب قوضتي..

- وأمي وأمي لبيبه..

- دي في الغيط ودول في البلد..

- ولظيمه..

- يانهار إسود عليك ياحسن..

- قولي يابه مش إنت قفلت الباب وهي معاك جوه..

- يابني دخلنا جوه من البرد.. وكنت باكل معاها..

- يعني الجواز واحدة تعمل للراجل حاجته..

- زي صيد السمك من الترة..

- برضه مش عارف الناس بتصيد إزاي..

- شوية شوية هاتعرف.. لما تروح هاتحكي لأمك إल्ली شفته..

- إنت عايز ايه يابه..

- ماتحكيش..

- عمري ماهاحكي عنك حاجة.. مش إحنا رجاله زي بعض..
.. وانخرط أبي في ضحك متواصل حتى سعل من كثرته.. وخرج
رجل من البيت الذي يقع مقابل الكبّاس بفانوس مضئ في يده يبدو
أنه إستيقظ من سعال أبي.. وألقى الرجل السلام على أبي وهو يقف
في طرف جدار بيته فقال له أبي :

- إزيك يا أحمد..

ثم دخل الرجل إلى بيته فقلت، لأبي :

- ومن هذا..

- أحمد سليم..

- قرينا..

- لأ راجل طول عمره جارنا دا من غرب البلد..

- عايز أنام..

- أروّجك ولا تنام هنا..

- أنام هنا.. هو فيه حد يسيب صوت الساقية ويروّح..

وفي فجر هذا اليوم سمعت صوت أبي وهو يؤم المصلّين في مصلية
فتح الله حجاج فاستيقظت على كلمات القرآن ولكنني أثرت أن
أظل راقداً.. كان صهد نار الراكيه شديداً لكن سقعة الفجرية
كانت أشد، ويبدو أن أبي قد وضع غلاي الشاي فوق الراكيه
فماؤه تغلي وتكاد تفور ومازال أبي بصوته الرخيم يرج مدار الساقيه

ولما أمعنتُ النظر أمامي وجدتُ كلبنا الكبير يرقد فوق كومه رتش
في مقابلي ترى من أتى به وما علاقته بالساقية.. وسمعت المصلين..
حرماً.. جمعاً إن شاء الله.. وهبهب الكلب مرتين ثم أتاني أبي
وجلس حول النار وبقي معه رجل من المصلين وسمعته يقول لأبي
وهو فوق القنطرة :

- الدنيا برد عليه ليه جبهته يا حاج..

- مش قادر عليه..

- دا لسه لحمه مكانه الفرن..

- عنيد.. عنيد أوي..

- أجيب حرام أعطيه فوق البطانية..

- لأ يا حاج أحمد مافيش برد ولا حاجة أنا مدفيه ولا فف العبايه
عليه مرتين..

- عايز حاجة يا حاج هانخش أنا شوية..

- لأ روح إنت..

إقترب الكلب من أبي فوضع يده فوق رأسه وراح بيده كمن
يدلك رقبته مع رأسه وراح الكلب يزوم كأنه يشكره.. وقلّب أبي
في مقطف وأخرج منه بعض الخبز وقطعة من الحلاوة ووضعها
للكلب ليأكل.. وأخذ الكلب يلتهم طعامه وأبي يقول له:

- والله تستاهل خروف..

.. وضحكت من تحت الغطاء وفوجئ أبي بأني أسمعته فقال :

- آه يامكار إنت صحيت..
- وسامع صوتك وانت بتصلي..
- بردان..
- لأ..
- شوفت الكلب..
- إيه اللي جابه..
- هي دي عادته كل ما نروى ييجي في نص الليل يقعد معانا هنا..
- هو عارفين..
- أكيد وكان لما ييجي يتمشى بين الدار والساقية ولكن باين لما شافك نايم خايف عليك..
- مش فاهم..
- يعني لما عرف أن فيه صغير نايم قعد قصادك على طول يجرسك..
- معقولة الكلب ناصح لغاية كده..
- وأكثر من كدة أنا عارف كلاي..
- الكلاب في الغيط كتير أوي..
- والبلد فيها أكثر..
- عايزين كلب في بيت البلد..

- لأ.. مافيش دبابه حوالينا ولا حراميه ولا تعالب..
- شوف الكلب إالى قصادنا عمال ينبح من الصبح..
- دا كلب أحمد سليم.. كل كلاب الحته بتخاف من كلبنا بيههب وبس لأنه شايف السبع..
- والحته دي كلها فيها سبعنا بس..
- لأ الحاج حسن قربي على تارة البحر عنده سبع تاني..
- من ضمن الحاجات الحلوه في الغيط صوت الكلاب..
- دائماً تهب وبتشعر الناس بالأمان وإن لا ديب ولا حرامي ولا تلعب يستجري يهوب ناحية الدور..
- هوّ الديب والتلعب ممكن ياخذ إيه..
- ياخذ الفراخ والوز وكل أنواع الطيور وياخذ المعيز وكل حاجة صغيرة ممكن يجرها ويلتهمها جوه.. هناك.. حجوره في البوص اللي على البحر..
- وليه الناس بتربي طيور كثير..
- لما تكبر تعرف أن الطيور هي معاش الفلاح.. الفلاحه يوم الخميس لما تبيع فرختين تقدر تجيب كل حاجة البيت من السوق..
- مش فاهم أوي..
- بكره تفهم.. مش كل حاجة هاتفهمها ميه الميه.. أنا بقولك علشان مخك على أد ما تقدر يتوسع واحده واحده..
- النهار شقشق ولسه الأرض ماخلصتش ري..

- لسه فاضل النهارده..
- هاتنى نايماً هنا لما الارض كلها تخلص..
- مش هاتنفع لازم أروحك بكفاية عليك كده..
- كل حاجة هنا حلوه والبلد مافيهاش حاجه..
- بصراحة مافيش طفل أدك شاف إالى إنت شفته.. أنا سايبك براحتك على أد ما قدر علشان..
- علشان إيه..
- علشان تتبسط ولما تكبر هاتعرف كل حاجة بنفسك.. أنا نفسي تكبر وتبقه جنبي في كل حته شوف أنا سنى أكثر من أربعين سنة وماليش حد من ولادي كبير..
- بكره هاكبير..
- طيب ياله أروحك..
- خاليني شوية لما أشوف الشمس بتطلع..
- هاتشوفها واحنا مروحين..

”حكاية قديمة وكلاب أخرى“

دخلنا البيت والشمس قد سطعت فوق أسطح البيوت وكانت أمي تبكي وأخذتني من أمام أبي قائلة :

- كانت ليلة بيضه حرام عليك يا حسن..

وضحكت وأنا أحاول أن اتخلص من إحتضانها لي ونيمتني على الكنبه قائلة :

- كلك عفار هاحميك الأول..

سمعت الطشت يخبّط في القاعة فهل دخل أبي يستحم ولحظات سمعت أبي يتنحّح في المندرة.. وجاءتني أمي وحملتني إلى القاعة بكامل عفاري بتاع الغيط وخلعت عني ملابسي واقعدتني فوق كرسي الطشت وراحت تدعك جسدي بالليفه والصابوبة وتصب الماء الدافء فوق رأسي.. نشفتني بفوطتي الصغيرة وألبستني ملابس نظيفة ولفتني في عباية قديمة لأبي وخرجت بي من باب القاعة لتدخلني إلى فراشي في الغرفة المقابلة ولما أحسنت غطائي قالت :

- نام شوية على ما أعملك فطار..

وأخذني النوم العميق وقلت في نفسي وأنا ممتن لحب أبي وحب أمي.. فعلاً البلد مافيهاش حاجة فيها أمي بس.. لكن أبويا هو العالم الكبير.. الدنيا كلها عند أبويا.. وفي هذا اليوم لم تستطع أمي أن تطعمني حيث بقيت طيلة اليوم أغط في نوم عميق.. وفي المساء بعد المغرب إستيقظت على بكاء عبدالعزيز وهو يرضع اللبن من صدر أمي.. وكانت أمي تقول له كأنه سيفهم.. بطل عياط زهقتني..

إرضع وروح لها.. وكانت سعاد أختي تقف عند باب الغرفة تراقب عبد العزيز مع أمي وكأنها تنتظر أن تأخذه معها إلى غرفتهم.. وكانت أمي لبينة تقضي بعض أعمال البيت وهي تسمع كلام أمي لعبد العزيز فتضحك وتقول :

- ياهناي يا عبد العزيز..

فتقول لها سعاد :

- وأنا..

- وأنت..

- خلاص رضع..

.. وتأخذه سعاد من حجر أمي في لهفة وتذهب به إلى غرفة أمي لبينه، وما إن شعر الولد بأنه ليس في حجر أمه لبينه علا بالصراخ فهرولت إليه أمه وأخذته في حجرها حتى نام..

.. وفي هذا اليوم جاءت أم الرزق خالة أبي لزيارة ابنة أخوها لبينه، وكانت العادة أن يتم قفل باب الغرفة حتى تأخذ كل منهما راحتها في الحديث عن أمي وأحوال البيت.. لكن في هذا اليوم قالت أم الرزق :

- والنبي ما لقيت أخيب منك..

- ليه ياعمه..

- بتزرعي في غيط غيرك..

- فسري ياعمه..

- هم دول ولادك ..

- والله فعلا بيحبوني ..

- لما يكبروا هايروحو لأمهم ..

- وأنا هابقه لوحدي أبداً ..

- بكره تشوفي ياخاويه ..

- مش فاهمة أعمل إيه ياعمه ..

- خليه يكتبهم بإسمك ..

- خلاص لما ييجي هاقوله ..

وكانت سعاد تسمع ولكنها لم تبال وقالت لأمها لبيه :

- هات قرش أجيب بيه حلاوة ..

- هاتعرفي لوحذك ..

- هاعرف ..

.. أخذت القرش وذهبت إلى دكان محمد عفيفي واشترت نص كيلو حلاوة بقرش ولما عادت بالحلاوة شاركتها أم الرزق في أكلها ولما إنتهت قالت :

- وعامله إيه المعدله ..

- كويسه .. بصراحة إدتني الأولاد ومش زعلانه عن طيب خاطر ..

- يعني إنت بتربي وتحمي وتشيلي وبعدين ..

- خلاص ياعمة هاقول للحاج يكتبهم باسمي..
- وبعدين مش مضيقين عليك عيشتك لما حداد بيعوزك..
- أبداً هو حداد قبل الولاد بيحب ياخذني القاعة..
- قوضتك أنصف من القاعة..
- أصل قوضتي على الشارع وممكن أي حد يسمعنا..
- إنت برضه بتصدقني الكلام ده..
- بيقولوا فيه عيل صُغير من ولاد حرب بيلف الدور كل ليلة
- علشان يسمع..
- ماتصدقش..
- بيقولوا الناس.. طلع لعريس وعروسه الشجرة علشان
- يسمعهم..
- هم متحوزين في المقاعد..
- أيوه..
- ومش خايف يقع وتكسر رقبته..
- هو دا مزاجه بيقولوا هو إتولد علشان يتسنتط..
- قوضتك أحسن وإنت ليه تزعقي مش معني هي ليها قوضه..
- برضه بياخذها القاعة..
- طيب أنا هاقوم مافيش فايده من كلامي..
- إستني ياعمه..

ودخلت أُمِّي لبيبه غرفة الغموس وملأت مقطفاً قديماً بالعيش
والبتو وجبن قريش ورطلين زبده وخرجت إلى عمتها قائلة :
- خدي دول دلوقتي.. بكرة هانعمل فطير تبقى تعال آخر
النهار..

- طيب يالبيبه هاجيلك بكرة..

.. ولما تجاوزت الباب مودعه إبنة أخيها وجدتني جالسا بجانب
باب الغرفة فقالت وهي تشوّح بذراعها نحوي :
- إنت مقعبر هنا.. يالهوي..

ولما كنت قد تجاوزت الثالثة بكثير بدأت أشعر بمن حولي فهذا
يجبني وهذا لا يجبني وهذه تكرهني.. فهذه المرأة التي تجاوزت
الخامسة والستين عاماً أم الزرق مرات عبد الرازق الورك تكرهني
وأنا أكرهها، وفي هذا اليوم عندما جاء أبي من الغيط بعد المغرب
قلت له :

- أم الزرق خالتك يابه..

- فhez رأسه وقال :

- آي مش قلت لك قبل كدة..

- الست دي مابتجنيش ليه..

- دي بتحبك بس إنت مش واخذ بالك..

- لأ يابه..

- ماتاخذش في بالك يا حسن..

- أمك كانت زيها كدة..

- أبداً يابني.. كانت بيضه وما كنتش زرقه كده وبيقولوا كانت طيبه وبتصلي وعلشان كده ماتت.. كانت طيبه زي خالي محمد.. وعلشان طيبه إتجوزت أبويا أحسن راجل في العيلة..

- أم الرزق دي وحشه في كل حاجة..

- وعلشان كده إتجوزت عبد الرازق الورك.. شوفته..

- أنا شفته مايبجيش ليه.. يعني إيه ورك..

- أنا منعتة إنه ييجي.. طول ما هو قاعد يتف وينف على الأرض ويقعد بره في السور ومش عايز يتنقل من البيت.. ألكع راجل في شنشور.. هو أنا يابني عملت بيتي ملجأ.. كرشته وقلت لخالي مايجيش هنا تاني..

- قالت إيه..

- دا غلبان يا حداد هو بيجي علشان ياكل..

- قلت لها خدي أكله..

- يعني إيه ورك..

- تقريباً علشان رجله شكل رجل السلعوه..

- غريبة أوي هو يعتبر قرينا..

- لأ.. هو جوز خالي بس..

- غريبة.. ولما هو راجل سكلي كده جوزتوه خالتك ليه..

- خالي إल्ली جّوزه.. أصل خالتي وحشه مانت شايفها زي ما يكون ساقطة من قعر الحمة..
- يعني لئوها وخلاص..
- ضحك أبي وقال - زي كده يا حسن..
- تعرف أنا باتمنى إيه..
- إيه يا حسن..
- أم الرزق تموت والورك بتاعها يموت وراها..
- ياه للدرجة دي.. سيب الملك للمالك زي أبوك..
- إنت عارف إن أنا بقه لي مده أقعد بالكروسي جنب قوضه أمي لبيه..
- ما تقعد أدام المندره..
- أبداً أصل عايز أسمع أمي لبيه وهي بتكلم سعاد..
- طيب مده ييقه عيب.. دي عادته وحشه..
- يابه أنا عيل صغير.. عايز أعرف ليه سعاد بتحب أمي لبيه وليه عبد العزيز بيسكت معاها..
- على العموم إنت لسه صغير إعمل اللي يعجبك.. وسمعت إيه..
- أنا سمعت خالتك بس..
- بتقول إيه..

- إكتبي سعاد وعبدالعزيز بإسمك.. هو إنت خدامه هاتربي العيال ببلاش..

- وأمك لبيبته قالت لها إيه :

- لما ييجي حداد هاسأله..

- وبعدين..

- دي أهم حاجة حصلت..

وسكت أبي لكنه كان حزيناً فقلت له بعد طول صمت أنا عايز أروح الدكان.. فhez رأسه وقال وأنا كمان عايز أروِّق بالي شوية.. وأخذني من يدي إلى دكان عبده أبو سعده وكانت العجاده أن يرحب بي الرجال هناك ويتسابق كل منهم في شراء النعناع والكراملة والحلاوة السمسمية ويضعوها في حجري.. إلا أن أبي لم يدعهم بعد ذلك يفعلون ذلك وحلف عليهم.. وكان أبي لا يحب أن آخذ شيئاً من أحد.. وكنت مغرماً وشغوفاً وأجد لذة كبيرة وأنا أرى شلة أبي وهم يشربون الشاي ويدخنون الجوزة والسجائر وكنت أسعد أكثر عندما أجد أبي يدخن كرسي الجوزة بشراهة وأرى شخول الدخان يخرج من فتحة أنفه الواسعة كأنه فوهة ماكينة طحين.. وكنت أبتسم وكان أبي يسعد عندما يراني مسروراً.. وطول القعدة التي تزيد عادة عن ساعة أسمع حكايات من هؤلاء الرجال عن الزرع والقلع والخبز والحصاد وصيد السمك والأنفار.. كانت الدنيا كلها في الدور والغيطان حولي ينقلها أصحابها في الدكان وأسمعها كلمة كلمة وحكاية بعد حكاية.. وكان أبي ينقل كل حلوى الدكان إلى حجري.. كراملة.. نعناع..

حلاوة حمصية وسمسمية وطحينية وغيرها وكان صاحب الدكان يفرح عندما يجديني في صحبة أبي.. وعندما يهم أبي بالخروج من الدكان يشتري بعض الحلوى لسعاد خاصة الحلاوة الطحينية التي كانت تُحبها..

.. وكنت بدوري أحكي لأمي وأنا في سريري أهم الحكايات التي سمعتها في الدكان فتضحك وتقول وايه كمان.. ولما أنتهى تحكي لي كل ما حدث في البيت مع أمي لبيه وأم إبراهيم الشغالة..

وكانت أمي شاطره في عمل الفطير المشلتت والكعك بشهادة أبي وكان أبي دائماً يضحك ويقول.. حميدة تعمل الفطير والكحك.. ولبيه تعمل البتاو.. وكانت لبيه تضحك ثم تسكت وتقول يا بختي حتى أنا في الخبز أخبز البتاو واللي بيجرح الزور وأحيانا تقول.. قليل البخت قليل البخت في كل حاجة.. وأخرى تقول قليل البخت لقي العضم في الكرشه.. وكانت أم إبراهيم الشغالة تموت من الضحك لشهادة أبي لأنها كانت تحب أمي وكانت أمي تحبها لأنها كانت تأتي لها بأخبار الدور والناس حولنا وخاصة أخبار دار عمي محمود وعمي دردير.. وكانت أم إبراهيم شرفه بحكاياتها ترى أمي البلد من حولها ولم يكن هناك تسليه في بيتنا غير حكايات أم إبراهيم لأمي.. وفي كل البيوت لا توجد أي وسائل ترفيه غير الحكايات وكانت الشغالات يقمن بهذا الدور كما ينبغي للحفاظ على عملهن في بيوت أصحاب الأرض.. يعني نقل الكلام والأخبار والحكايات واللث والعجن والخبص كان من أهم مؤهلات الشغالات في تلك الفترة وكان ذلك عند السيدات في هذه البيوت أهم من شغل أم إبراهيم وغيرها..

.. وفي اليوم التالي جلست على كرسي عند باب أمي لبيبه لأنني أعرف أن أم الرزق قادمة لتأخذ الفطير وطال إنتظاري إلا أنني تذكرت أنها ستأتي بعد العصر وكنت في داخل نفسي أريد أن أقرب من أختي سعاد لكنها لم تساعدني على ذلك.. كانت كاشة مني كأنني ابن حميدة وهي بنت لبيبه ولا بد أن تأخذ موقفاً مقفولاً مني.. إلا أنها في هذا اليوم قالت لي :

- أبوك بياخذك الدكان..

- أيوه..

- أنا عايزه أروح الدكان..

فسمعتها أمي لبيبه فرغدها في صدرها وكأها تلقى عليها درساً من دروس الأدب وقالت :

- ياجامدة البنات ماتروحش الدكاكين..

وراحت تبكي وطلعت إلى السرير وانكفأت نحو الحائط تبكي في صمت.. ولما زهقت من طول الإنتظار وطول النهار ولم تأت أم الرزق.. خرجت ولأول مرة ووقفت في فاتحة الباب الخارجي للسور.. وكأنني كنت أمله لكل الذين يمرون في الطريق خاصة الستات والفتيات اللاتي كن يذهبن لملاّ الحلل والزرع من حنفية خليفة الأكرت.. تقترب كل واحدة منهن مني ويملن نحوي :

- هو إنت حسن..

- ياحلاوة..

- إطلع بقه خلى الناس تشوفك..

- والنبي لأتوحم عليك.. يلهوي لو جبت واد زيك..

- ليهم حق يحجبوك..

- خش أحسن حد يخطفك..

- ياقمر أربعناشر..

- يأم حسن.. ياخاله لبييه.. خدو حسن من عند الباب..

إلا أن ولدأ شقيأ سافلاً حقيراً من شارع أبو سمك إسمه فتحي
ستيته تقدّم نحوي وراح يتراقص أمامي ويهتف بأعلى صوته..
العروسة أهه.. العروسة أهه.. إعتراني ذهول وانحنيت لأعثر على
شئ أقذفه به فلم أجد إلا أن واحده من النساء إنحنت لتكبش كبشة
تراب من الأرض وقذفته في وجهه زاعقه :

- إمشي يابن الملدوعة .. فجري هذا الولد الجربوع نحو
شارعه.. وأخذتني هذه المرأة من يدي بقوة ودخلت بي إلى داخل
البيت وهي تنادي ياخاله لبييه.. ياخاله لبييه.. فهلعت إليها أمي
لبييه من غرفتها وأخذتني منها وأخبرتها بأن لا يجب أن أقف على
الباب قائله :

- والنبي ياخاله في الحته عيال زي الكلاب.. عيال عمرهم
ماشافو تربييه..

- كتر خيرك مش إنت فاطمة بنت عبدالله أبو إسماعيل..

- مايجيناش أعز منكم ياخاله لبييه أقفلوا الباب علشان مايطلعش
تاني..

وكم من الحزن داخلي عندما وصفني بالعروسة وكان جرايع
أهل قريتي من حولي كثيرين.. فإذا رأى الأولاد ولداً جميلاً أو
مهنداً ويرتدي حذاءً أو ملابس نظيفة يظهر هذا الولد في نظرهم
أنثى ويتكلموا عنه جميعاً ويتمنى كل واحد منهم أن يعبط هذا الولد
ويحتضنه وينثرون حوله الحكايات.. وبدأت أكره كل من حولي من
الأولاد الذين على شاكلة فتحي ستيته وكان معظم أولاد الشوارع
في عمري وأكبر مني بنفس صفات فتحي ستيته.. وحكيت لأبي
وأمي وأمي لبيبه ما حدث وما قالته النساء لي إلى أن أهاني ابن
ستيته.. وأبدى أبي إستياؤه الشديد وبدأ يكره مثل هؤلاء الأولاد
مثلي وذهب هذه الليلة وأخذني في يده وطرق باب ستيته الكيلانيه
فخرجت له ولما رأت أبي قالت :

- أيوه ياخال حداد..

- فين فتحي إبنك..

- مش هنا..

- طيب إبنك عمل وعمل.. وحكى لها بالتفصيل..

وفي لا مبالاه :

- ياخال حداد دي حاجة بسيطة أوي إنت مكبرها ليه.. تعال

شوف الولاد في شارعنا بيعملوا في بعض إيه طول النهار..

- .. هز أبي رأسه وقال وهو ينصرف :

- لو إبنك ده جه ناحية بيتنا بس ألاقيه..

- هاتعمل إيه يعني..

- مش هاتلاقي إبنك تاني.. سامعه.. ياجربو عة ياواطيه..

- شوف الراجل.. هو إنت وولادك من عجينة تانية ولا إيه..
هم مشي زي عيالنا خلي العيال تلعب مالك..

- حقيقي لو طلع العيب من أهل العيب مش عيب يامره
ياواطيه أديني نبهتك..

وخرج زكي أبو شاطيه من بيته المقابل لبيت ستيته ومشى مع
أبي حتى سكة الترعة وأخبره أبي بما حدث لما سأله زكي عن ما
جرى.. فراح زكي يضحك.. ليك حق يابه حداد بيتك بعيد.. دا
ستيته وابنها بلوة من بلاوي الزمن.. هم كوم والشارع دا كله
كوم.. معلش يابه حداد ليك عندي أسفحة قلمين.. فهز أبي رأسه
واعتمل في نفسه شيئاً وقال لي :

- تيجي تقعد في الدكان شوية..

- ياريت..

.. دخلنا الدكان في غير موعد مجئ صحبة أبي.. وجاءني عبده
أبو سعده بتشكيلة من الحلوى ووضعها في حجري وراح أبي يدخن
المعسل من بوصة الجوزة ويسحب دخانها الكثيف بشراهة ويخرجه
من فمه وأنفه.. ورحت ألتهم الحلوى.. وبقدر الأسف وحزني اليوم
عما حدث إلا أنه ملأني شعور بالقوة وأن أبي لن يترك كلباً واحداً
يمسُ إبنه حسن بسوء..

واشترى أبي الحلوى التي تُحبها أختي سعاد ولما عُدنا الى البيت
أعطيتها حاجتها بيدي كما أوصاني أبي قائلاً.. أريدك أن تعطيها

بيدك حتى تقترب منك وتحبك، وحكي أبي لأمي وأمي لبييه ما حصل مع ستيته الكيلانية وسعدتنا بما فعله أبي وقالت أُمِّي لبييه :

- شارع أبو سمك عامل زي شارع الخارجة عندنا..

فقال لها أبي :

- حسن لسه صغير ما يقدرش على الشارع دلوقتي.. ولما يكبر هانقله يتعامل إزاي مع الشارع..

وقالت أُمِّي :

- مش هايطلع الشارع تاني..

فردت عليها أُمِّي لبييه :

- إحنا مش ها نجبسه ولكن إذا كان عايز يقف على الباب نخليه يقف بس تكون واحده فينا قاعدة قصاده..

فقالت لها أُمِّي وكأنها تشكرها :

- إنت يا لبييه بتخافي عليه زيي بالضبط.. ربنا يبارك لك في العيال..

وراح أبي يضحك وأُمِّي لبييه إنسابت في ضحك متواصل وبعده قالت.. ياه يا حميدة بقه أنا بقالى عيال..

- آمال إيه يالبييه.. سعاد وعبد العزيز بتوعك ويحبوك أكثر

مني..

.. وقطع حديثنا دخول ام الرزق علينا بعد أن نادى يالبيبه..
وعندما وجدتنا نجلس في ربطه واحدة قالت وهي تتجه ناحية باب
غرفة بنت أخوها :

- سا الخير.. ياترى فيه إيه..

فقال لها أبي :

- فيه إيه يا أم الرزق ناس قاعده في بيوتها..

فردت عليه في قسوه :

- مش العادة يا حداد..

- إتمسى يا أم الرزق..

.. وسعدت أمي بحفء أبي معها ودخلت أمي من باب الوسط
إلى قاعة الغموس لترص الفطير في طبق من الخوص.. ودخل أبي
المنذرة ليستريح بعد يوم متعب وكعادتي الجديدة عدلت الكرسي
بجانب غرفة أمي لبيبه وجلست لأسمع حديث أم الرزق الكريه مع
بنت أخوها وكانت سعاد أختي بالداخل معهما..

وسمعتها تقول برزاله :

- عملتوا الفطير..

- أيوه يا عمه..

- أنا ماخدتش حق لحمة الأسبوع..

- دي عند حداد..

- حداد مايقاش زي الأول..

- العيال كترت ياعمه مش زي الأول..

- وأنا مالي.. أنا اللي ربيت حداد وحميته من بيت أبوه..

- هو عارف كده كويس وعشان كده هو بيحب دار خاله
ويحب بنت خاله لبيه..

- كده طيب وأنا كُحه يالبيه..

- ياعمه إفهميني صح.. إحنا كنا أهل أمه وكان لازم نعمل
كده بدون أجره.. إحنا عملنا الواجب وهو صغير وهو ماقصرش
لغاية دلوقتي مع بيت خاله كله..

- دا عشان خاطره كنت مابخلش حاجة لقطيفه.. هو موت
فايقه شويه..

- برضه مانظلمش.. الناس قالت كدة وهي قالت اللي قالت
وهي بتموت لكن إحنا شفنا حاجه.. ربنا اللي شاف.. مافيش حد
يتأكد من حاجه..

وضربت بقوة على صدرها وكأنها تصر :

- الحاج على هو السبب طرمخ على الموضوع وغطى ومافيش
حد إستجري يفتح الموضوع..

- أبويا الحاج على عمل كده لأنه بص لأدام دردير ابن قطيفة
إبنه وحداد بن ستيته إبنه علشان العيال بعدين إخوات وعائزهم
يجبوا بعض وكان لازم أي عمل لقطيفه يتردم عليه.. واحده عائشه
بالغل والكره كان لازم للراجل ده ينهي الموضوع وعلى فكره لازم
لكل بيت في الدنيا راجل واحد يمسكه.. الراجل ده طول عمره

كان بيص لأدام.. وكان دائماً يقول ربنا إداني كل حاجة بس ما
أعطانيش نسوان..

- ياه كل ده كلام عن الحاج على.. خلاص يالبية.. هات حق
اللحمة علشان أمشي..

- هو بيديك كام في الأسبوع..

- حق رطلين لحمه..

ومن تحت هدومها في الدولاب دعبت بصوابعها شويه وقربت
منها ومدت يدها:

- خدي عشرة صاغ.. كفايه..

- خلاص يا لبية دا معاملتكم كلكم إتغيرت..

- إنت عايزانا نعمل لك إيه أكثر من كده.. يعني نسجد لك
ياعمه..

- فتحت فيّه يالبية ما هو اللي مخسر الدنيا العيال اللي معاك..

- يعني دول مش ولاد حداد.. لو كان حداد غال عندك
بصحيح بيقه ولاده غاليين.

- عياله دول مش منك دول ولاد واحده غريبه وياريت من
بلدنا..

- واحده غريبة لكن جابت له اللي عايزه.. بكفايه حريقه
ياعمه..

- دا إنت بقيت إنت وحميده واحد معقوله..

- يعني كل أعمالك والسحر اللي عملتيه وجيتيه بقالك أكثر من تسع سنين عمل إيه.. كانت الدار تقيد نار وخنق كل ده مانفعش ونفد أمر الله.. على فكره ياعمه ماتزعلش مني إنت وقطيغه من نوعيه واحده ماتعرفوش غير تكرهو..

- يانهار مشوم يالبيه بتقولى إيه والله لأقول لإخواتك يشوفوا صرفه معاك..

- ياعمه أنا مسكت سبحة وبقيت أسبح بالليل والنهار أنا بصلي الوقت بوقته دلوقتي يمكن ربنا هدايني.. هو لما العيال الصغيره تحبني مش ده من فضل ربنا..

وزعقت أم الرزق فيها وقالت في شراسه :

- خلاص خلاص خشى هات الفطير بكفايه كده إنت أذيتني أذيتي عمتك اللي عايزه مصلحتك..

ودخلت أمي لبيه ولأول مرة تشاور أمي في عطائها لأهلها وقالت :

- أدي أم الرزق فطير أد إيه..

- ياه يا لبيه بتشاوريني.. إديها زي ما بتديها..

- أديها إثنين..

- لأ تلاته..

.. والغريب أنني سمعت أبي وأمي لبيه يقولون لها أم الرزق.. وكان قبل هذا اليوم يقول أبي ياخاله وهي تقول ياعمه.. هل بدأت كل منهما لا يحبها.. هل بدأ الحق يدخل بيتنا.. هل إنصلح حال

أمي لبيبه بسعاد وعبدالعزيز.. هل هذه فتره وتنتهي.. هل بموت
قطيفه تنتهي جذور الكراهيه في بيتنا وإذا ماتت أم الرزق هل تنتهي
بقايا الكراهيه..

.. كم سعدت بما سمعت ودخلت على أمي وحكى لها ما
جرى من حديث فدخلت أمي على أبي وقالت له مانقلته لها فقام
الرجل وقعد على الكنبه وراحت الدموع تنسال من عينيه فانصرفت
أمي إلى غرفتها وقالت لي :

- خليك شويه مع أبوك..

- فقلت لأبي وأنا أمسك بركبته :

- بتعيط ليه..

فأخذني أبي في حجره وضممني إلى صدره بقوه وراح ينتحب..

"عودة إلى جذور كريمة والشجرة حكاية حب"

لم يأخذني أبي إلى دار قريب عكيله الذي دعاه أن يتزوجها.. وكانت عكيله تسكن فوق رأس أرضها في بيت بسيط صغير عبارة عن حيطان تحتضن غرفة واحدة مبنى بها فرن.. وزريه للجاموسة والحمار ومعتزين.. وقبلها أبي رغم أنها أقل حلاوة من قدرية التي رحلت مع إبنها، ولكن أبي وجد فيها شيئاً يختلف عن زوجته السابقة.. وجدها حركه يعني حركات فأعجبه ذلك لأنه يريد بصفة دائمة عدل مزاجه الذي دائماً مايتعكر من كثرة الأحداث اليومية في الغيط والدار.. واتفق معها بوجود قريبها أنه لا يستطيع أن يأخذها لتعيش معه بصفة دائمة في غيطه وأنه عليها أن تأتيه في أي يوم تحتاجه فيه وأنه في نفس الوقت سوف يذهب إليها ماستطاع في دارها فوافقت.. وفي اليوم التالي هرب أبي مني وأخذ الحاج أمين مأذون القرية وعقد عليها في دارها وأعطاه أبي يومين لتجهز فيه نفسها على أن تأتيه بعد مغرب يوم الخميس.. وفي الموعد وضعت ملابس لها في مقطف أمامها وسافت حمارتها من أول ناحية شروه حسن وجاءته إلى داره في الغيط ليدخل عليها.. والجميل أن أبي بدأ يحكي لي كل شئ عن حياته وكان ما يهمني أن أعرف الأحداث الحاضرة التي تدور حولي.. والغريب أنني كنت أبتسم وأسعد سعادته لا حد لها بأن أبي الذي يبلغ منتصف العقد الخامس أو يزيد يحكي لولده الصغير الذي بلغ الرابعة من عمره منذ أيام. وآمنني على أسرارته وحفظت كل أسرارته في مكنون صدري وكنت أدعوله من كل حواسي لأنه فتح عيني على كل العالم حولي ورأيت في كل مشوار معه الجديد.. أحب الغيط وأحب غرفة التبن لأن أبي يسعد

في داخلها وأحب الساقية وليل سقية الأرض وأحب زريه البهائم
ورائحتها وأحب أن أرى المرأتين اللتان تحلبان الجاموس والبقر
وأحب طبول مراكب الصيادين في عز الليل وأحب البحر
واستحمام أبي فيه وبدأت أسحب البهائم من حبلها وأذهب بها مع
أبي إلى البحر لنسقيها وأحب كل امرأة تنادي أبي بخال حداد..
واحب كل الحب.. الحب الراقي في بيت لظيمه الخياطة وإبنتها
سميرة بديعة الحسن والجمال وفي الليل أعشق دكان عبده أبو سعده
وأموت في سماع حكاوي صحبته فيه.. وبدأت أهوي الجلوس على
حرف الترعة وأحتضن بيدي الصغيرة شجرة الجميز إلا أنني عندما
رأيت جسد العروس في دار الست لظيمه بدأت أقرف من رؤية
أجساد الفلاحات وهن يغسلن القمح على شط الترعة.. وكنت
أحب عمي محمود من بعيد لأنه كان يحبني من بعيد ولم أحب عمي
دردير لأنه كان غشيماً في معاملة الأطفال وليس معي وحدي وهو
رجل لا تعرف له أي إتجاه وهو لا يحب أحداً، وكنت أقرب من
أي إنسان عنده بادرة حب فينفتح له قلبي لأن مقدار الحب في
داخلي كبير وكنت في حاجة دائمة لتغذية هذا الحب وليس مهماً
أن يكون الحب موجهاً لي ولكن مهماً أن أرى الحب بين الناس
لأنني أشعر بأنني كالشرنقة التي تكاد تغادر بيتها إلى بدء حياة
جديدة.. كنت دائماً أحاول الخروج من عالم حزين كرهه حولي إلى
عالم آخر فيه كثير من الحب.. والجميل الذي رأيته وكان جديداً
على أنني في يوم ذهبت مع أبي الى الغيط وكان هناك عمل.. عزيق
الذرة.. يعني قطع أوحش أو حصد الحشيش والنجيل التي تقترب
من جذور عيدان الذرة وكان يعمل مع رجب نفرنا الدائم أكثر من

عشرة أنفار آخرين بالأجرة، وفي يوم مثل هذا تقوم أمي وأمي لبييه بعمل لقمة طرية للأنفار وهي عادة ما تكون مخروطة باللبن والسمن، أو فطير مشلتت أو مد إيدك (كما يقولون) يعني لحمة أو فراخ.. هو يوم فرح عند الفلاح وحتى يهتم الناس بأعمالهم أنفار وأصحاب ارض ويارك الله في عيالهم وأرضهم، والأكله الطيبة توجد في أيام حصاد القمح وجنى القطن وزراعة البطاطس.. وفي هذه الأيام التحق بالعمل عندنا ولد صغير السن اسمه فريد عوضي ولاحظت أنه يقول لأبي بفخر ياخال.. ياخال حداد.. كانت روحه أعلى من عمره العشرين عاماً، وكان أقرب الناس إلى قلب أبي وهو الذي ذهب إلى البلدة يوم العزيق هذا لجلب الغداء الدسم.. وكان يقول لأمي لبييه يامرات خال.. وسمعتة في يوم يقول لأمي لبييه أقول للست أم حسن إيه.. فقالت له.. إوعه أحسن تديك بالجزمة هي مابتكلمش شركة (أنفار) فقال لها هو خالي حداد مرقّيها درجة عنك.. فتضحك أمي لبييه وتقول له.. آه يابن أم العلو عشان هي بيضه وأنا سوده.. وكان هذا الولد دمه خفيف وكان يغني طيلة السكة من دار البلد للغيط لأنه يحمل أمامه فطير أو مخروطة.. حا.. حا.. فطير فطير.. حتى يصل إلى دار الغيط.. وعلمت في الأيام القليلة التي عمل فيها عندنا من أمي لبييه أن أمه كانت وفيه جداً لأبي وودوده معه في الكلام وكانت تعمل عندنا بصفة دائمة قبل أن تموت وأنها ماتت قبل أن تتزوج أمي بأبي بستة شهور.. وكانت تكبُّ لأبي (تعمل له كاسات الهوا) وكان إنها يعمل عند واحد من أسرة مخيون ولما إفتقر هذا المخيون الأخير "أي تدهور حاله.. جاء عندنا.. وفريد هذا آخر أبناء عبيد أسرة مخيون، لكن أمه كانت

تكره أهل مخيون جميعاً وكان كل مزاجها أن تعمل بصفة دائمة في دور الحاج على لكن هي أكثر رغبة أن تعمل في دار أبي لأن أبي كان يرتاح لها وهذه أم فريد كانت تهوي عمل كاسات الهواء وهذا ما لا يرغب فيه دردير ولا محمود.. وكان أبي يقول لها إيدك حرير.. فسألت أمي لبيبه :

- هو كان متجوزها..

- وش عرفني..

- هي كانت حلوة..

- كانت حركه..

- يعني إيه.. حركات وناعمة في الكلام..

- وازاي تسيي أبويا لواحدته تعمل له كاسات هوا ويتعري أدامها..

- كنت سايباه بكيفه وخذت على إني ما قدرش أقول له حاجه علشان مايزعلش مني.. هي الفكره اللي نشأت عند الجميع اللي كان بيهمهم إن أبوك يعيش وإن ماحدش يعترض عليه في حاجه وإن نسيبه يعمل الى هو عايزه..

- ياه للدرجة دي..

- كنا كلنا مش مصدقين إنه هايعيش ويمرق من تحت غل وكره قظيفه..

- وهو مين اللي رضع أبويا بعد أمه ما ماتت..

- ماحدش رضعه لأن عمره كان سنتين..
- بعد السنتين ماطلبش يرضع..
- هو العيل سنتين كفاية عليه رضاعه بس كانت سته.. وسكتت..
- سكتي ليه.. سته كانت إيه..
- سته كانت بتديه لبن عادي من الجاموس والبقر وكانت بتديه لبن حمير عشان يعيش..
- حكاية لبن الحمير دي كانت منتشره أوي..
- كانت زي الوصفه أو الرقوه أو البخور بس مش كل الناس كانت بتعمل كده..
- مش فاهم..
- الناس اللي عندها أرض كانوا عايزين ولادهم يعيشوا .. لكن الناس الفقرا ما كانوا يخافوا على ولادهم يعيش يموت ما تفرقش عندهم...
- يعني كان أبويا دلوعه..
- حاجة زي كده..
- أنا نفسي أعرف حكاية خالي حداد .. دا نص سثات البلد بتقوله يا خال..
- أنا عايزه أعرف زيك..
- أنا شربت لبن حمير..

- شربت لما درعته..

- علشان أعيش..

- كان الكل بيكره أو بيحب عايزينك تعيش..

- وليه لبن حمير..

- هو أقرب لبن للبن الأم.. يقولوا إن اللي بيشربه بيبقه زي

الحديد..

- يعني إيه..

- يمكن تكون النسوان بتقول لأبوك ياخال من كده..

- مش فاهم..

- لما تكبر تفهم.. إنت لسه صغير أوي على الكلام ده..

.. كان حديثاً ممتعاً وصريحاً مع أمي لبيه وعرفت أنها من الناس الذين يحبون أبي.. هي من أهله وزوجته وهي المفضلة عن أمي في العشرة الزوجية، وتأكدت من أن أهل أبي من أمه معهم الحق في أن يطمعوا في بيت أبي.. إنهم أهل أمه البسطاء الفقراء وشئ طبيعي أن يكون للمحتاج عشم في مال قريه الغني.. ولكن ما أرفضه وأحاربه هو محاربة أمي.. لا أحد يتجاوز على أمي بالنظرة أو بالكلمة أو بتقريعه (يعني طريقة عليها)، وفي هذه السن كنت حريصاً في أن أجلس أمام المندرة فوق الكرسي لأتأمل وأسمع وأرى حكاوي شلة أهل أبي أمام باب غرفة أمي لبيه، وهذه الشلة عادت مرة أخرى بعد إنقطاعها بتعليمات من أبي لهم إلا أن نجيب أخوها حرّض الشلة في أن تعود مرة أخرى لعادتها كل يوم خميس، ورغم أنهم بدأوا

يتأدبون في التعامل مع أمي إلا أنهم يعودون بسرعة إلى عاداتهم وقبحاتهم فهم في الرده والشرذحة تربية أصيلة، وكان أبي يروح ويحيى بينهم وبين مصلحة بيته وأمي فهو رجل طيب يريد أن يراضي الجميع ولكنه في كل الأحوال لا يستطيع قطع لسانهم خاصة إذا كانت غنيمه مرات عوني موجودة.. كرهت هذه المرأة منذ الطفولة وحتى كبرت إلى أن ماتت، وكانت رغم فقرها تكبر.. بمعنى أنها كانت لها نفسية متكبرة رغم أن أهلها جميعاً فقراء إلا أنها من فرع أبو راكمه ويقولون عن هذا الفرع أنه فرع عويل إذا تملك ظلم وعلشان كدة الفقر ليهم دوا، ويقولون أعوذ بالله من أبو راكمه لأنهم إذا إغتنوا ملأوا الحياة حولهم كرهاً وافتراءً.. وبدأت في الجلوس بالقرب منهم في مواجعتهم إذا حضروا وقعدوا.. فكنت أنظر إليهم شذراً مرة تكون نظرتي إحتقاراً ومرة لشراحتهم في تناول الطعام وبدأت منذ هذه السن أبلع لهم كأن أقول لهم في شجاعة وفطرة طفل:

- يامفاجيع..

- كـ أمك ياغنيمه..

- ليك يوم يالبيه..

- إنت خالة أبويا إنت يأم دقة يازرقه..

- يلعن أبوكم واحد واحد..

وكانوا يسكتون ولا يستطيعون أن يردوا على لأنني طفل ولا يقدرون التجاوز معي ولأن أبي سوف يكون رده حاسماً عليهم..

كنت أشتهمهم.. مره يسكتون ومرة أخرى يضحكون فيقولون
واحداً بعد الآخر بعد كل شتيمة مني :

- لسه صغير..

- لما يكبر ما حدش هيقدره..

- قول كمان يا حسن.. كلامك حلو..

ويغرق الجميع في الضحك وكانت أم الرزق تنظر نحوي في
كراهية شديدة وكنت أقابل كل نظرة لها بكلمة :

- يازرقه.. يأم دقه.. يأم شمار.. جتك نيله..

فتقول :

- جتك سخام دا إنت بلوه..

فأقول لها :

- يأم عبدالرازق الورك.. ياللي متجوزة الورك.. يا وحشة..
رموك من وحاشتك للورك.. يارب تموتي يامرہ يا وسخة..

وعندما ما يصل الحد في أنني أجيب ليها شتيمة مغمسه كانت
تقوم في عصبية وتنصرف إلى دارها بعد أن تكون قد لعنتني :

- جتك نيله على أمك..

- يلعن أبو تلوانه وللي بيعجي منها.. بقه إنت ياعقلة الصباع
بقيت راجل وكنت أشعر بسعادة وانتصار لاحد له عندما تنصرف
وينصرف بعدها في خوف نجيب وزوجته سيده وتفيده مرات عبده
وغنيمة مرات عوني وأولاد صغار كانوا يتبعوهم..

.. وشعرت يوماً بعد يوم بأنني قوي وانني رغم صغري فإنني
كفيل بتوبيخهم واجبارهم على الإنصراف، وكانت أمي لبيبه تحكي
لأبي وهي تضحك :

- حسن شتم خالتك ونجيب.. والله فرحانه بيه يا حداد..

ولم تكن تستطيع أن تقول له :

- أدبه يا حداد أو حاسبه هوّليه بيعمل كده..

كانت تقول له بصفة دائمة أنها فرحانة بحسن لأنه يشتم وأنه
كبير وأنه إسم الله عليه..

وكان أبي يرد عليها في كل مرة :

- وماله يستاهلوا.. من نفس الكيل يديهم..

وكان أبي في داخل نفسه سعيداً بي وبقوتي على أي أحد، وكان
يريد في قرارة نفسه أن يذهبوا بعيداً عن داره لأن كل وقت ليه
أدان.. همّ خدوا كفايتهم.. وخدوا اللي عملوه ليّه وأنا صغير..
وفي قرارة نفسه أنه سيستمر في عطائه لهم ولكن ليس بهذه الميغ..
وصرّح بذلك لأمي علناً وهو يكاد يبكي وأمسكت أمي بذراعه
وهما يجلسان على الكنبة في المنذرة قائلة :

- وإيه كمان يا حداد..

- سبي حسن عليهم..

وكان ذلك أمامي أسمعته وأنا جد سعيد وأجلس على الكنبة في
مقابلة أمي وأبي فقلت له :

- يعني يابه مش زعلان..

- لأ.. يقولوا كلمة قول لهم عشره وأهو إنت في الأول والآخر
عيل.. خليفهم يضجوا وييقه عندهم دم شويه.. دا بقه لهم أكثر من
عشرين سنة بياكلوا في جدتي يعني خدوا حتهم وزيادة.. وبعدين أنا
خالي مات وسي ماتت ودول شوية الألاضيش المنتفعين بحجة إنهم
أهلي.. بكفاية أوي..

- يعني أكيل لهم..

- إمسك بعد كده عصا واللى يغلط قوم عليه بالعصا..

- فقالت له أمي وكأنها لا تصدق ما قاله :

- يمسك عصا فرع توت يعني..

- لأ يمسك الشمومه بتاعتي إللي ورا باب القاعة..

- بس دي تعَّور..

- تعَّور أنا زهقت منهم.. على العموم ياحسن هوَّش بيها
وماتضربش أوي..

- وقلت وأنا في شدة إندهاشي :

- يعني كده إتفتح الباب..

- لازم تتعلم تدافع عن بيتك وعن أمك وعن إخوانك من
دلوقتي..

- الله يابه الله..

- مبسوط..

- بعد السنتين ما طلبش يرضع..
- هو العيل ستين كفاية عليه رضاعه بس كانت سته.. وسكنت..
- سكتي ليه.. سته كانت إيه..
- سته كانت بتديه لبن عادي من الجاموس والبقر وكانت بتديه لبن حمير عشان يعيش..
- حكاية لبن الحمير دي كانت منتشره أوي..
- كانت زي الوصفه أو الرقوه أو البخور بس مش كل الناس كانت بتعمل كده..
- مش فاهم..
- الناس اللي عندها أرض كانوا عايزين ولادهم يعيشوا .. لكن الناس الفقرا ما كانوا يخافوا على ولادهم يعيش يموت ما تفرقش عندهم..
- يعني كان أبويا دلوعه..
- حاجة زي كده..
- أنا نفسي أعرف حكاية خالي حداد .. دا نص ستات البلد بتقوله يا خال..
- أنا عايزه أعرف زيك..
- أنا شربت لبن حمير..
- شربت لما درعته..

- علشان أعيش..

- كان الكل بيكره أو بيحب عايزينك تعيش..

- وليه لبن حمير..

- هو أقرب لبن للبن الأم.. يقولوا إن اللي بيشربه بيبقه زي

الحديد..

- يعني إيه..

- يمكن تكون النسوان بتقول لأبوك ياخال من كده..

- مش فاهم..

- لما تكبر تفهم.. إنت لسه صغير أوي على الكلام ده..

.. كان حديثاً ممتعاً وصريحاً مع أمي لبيه وعرفت أنها من الناس الذين يحبون أبي.. هي من أهله وزوجته وهي المفضلة عن أمي في العشرة الزوجية، وتأكدت من أن أهل أبي من أمه معهم الحق في أن يطعموا في بيت أبي.. إنهم أهل أمه البسطاء الفقراء وشئ طبيعي أن يكون للمحتاج عشم في مال قريه الغني.. ولكن ما أرفضه وأحاربه هو محاربة أمي.. لا أحد يتجاوز على أمي بالنظرة أو بالكلمة أو بتقريعه (يعني تريقة عليها)، وفي هذه السن كنت حريصاً في أن أجلس أمام المندرة فوق الكرسي لأتأمل وأسمع وأرى حكاوي شلة أهل أبي أمام باب غرفة أمي لبيه، وهذه الشلة عادت مرة أخرى بعد إنقطاعها بتعليمات من أبي لهم إلا أن نجيب أخوها حرّض الشلة في أن تعود مرة أخرى لعادتها كل يوم خميس، ورغم أنهم بدأوا يتأدبون في التعامل مع أمي إلا أنهم يعودون بسرعة إلى عاداتهم

وسكره فيقوم شعبان بعمل ثلاثة أدوار من الشاي فمن كل علبة دور للشاي.. وفي أثناء ذلك تدار ثلاث جوز للمعسل.. أبويا دردير شريب معسل زغلول له جوزته وحده، وأبي له جوزته وحده ويشرب معسل العنتبلي وكل الأنفار لهم جوزة وحدهم تلف عليهم واحداً بعد الآخر ويشربون معسل الدفراوي وكان قليل من الأنفار يشرب سجائر من علبة دخان فرط.. كأنها حنطة.. وقت الغداء تحت ظل هذه الشجرة القديمة الضخمة والتي تفرش ظلها في شكل دائرة ظليلة تحمي الجميع من أشعة الشمس طيلة فترة الغداء وطيلة النهار.. بعد ذلك يقوم الأنفار بالنوم في ظل الشجرة ساعة حتى يؤذن العصر.. بعدها يصلي من إعتاد الصلاة خلف أبي ثم يبدأ جميع الأنفار بالاستعداد للدخول إلى الغيط لإستكمال أعمالهم في العزيق أو الري أو الحصاد أو في حش البرسيم.. وبعد العصر عندما تهب الطراوه يقوم بعض الأنفار بالغناء بصوت عال فيغنون حكايات الشعراء والمواويل الفلاحي فيطرب بقية الأنفار في كل غيط.. وكان الموال ومعانيه في كلماته تزيد الأنفار قوة في مواصلة أعمالهم حتى ينتهي يوم العمل في الحقول قرب آذان المغرب بقليل.. تدخل البهائم في حظائرها وتحلب النساء اللبن من الجاموس والبقر وتبدأ رحلة العودة إلى دور القرية بين آذان المغرب وقبل العشاء.. نساء يحملن المقاطف والأطباق فوق رؤوسهن.. منهن من تمشي حافية أو تلبس كتانله أو شبشب زحافي ومنهن من يركب الحمير وكذلك الرجال.. فرادي وجماعات في الطريق إلى البلدة رجالاً ونساءً وأطفالاً.. وكان جميعهم يحكي حكايات كل يوم والآخرين

يستمعون.. كانوا يحكون بصوت عال ويضحكون حتى يصلون إلى
مشارف القرية فيذهب كل منهم إلى شارع ويدخل داره..

.. وعيت كل ما رأيته منذ أن ولدت وما سمعته من أمي ومن
أبي ومن أمي لبيبه ومن أم إبراهيم وما تأملته على شط الترعه وفي
الكفر وفي الغيط.. كانت الكلاب في البلد لا تعد ولا تحصى
والذئاب تحيط بها من كل جانب وكانت الثعالب تحت القناطر وفي
كل المزارع وكانت البيوت فيها أسرار وعجائب وكانت الكراهية
تفلق الحجر والأبواب المقفلة عليها تكتم ما في القلوب من ضغائن..
كانت الكراهية تحيطني من كل جانب ونباح الكلاب في قريتي حتى
تخاف الذئاب والثعالب.

تمت بحمد الله،

خيرى حداد أبو عافيه

٢٥/١٢/٢٠١٠م

سيرة ذاتية

- خيرى حداد أبو عافية

- عضو اتحاد كتاب مصر

- صدر له :

المرأة آلهة الحب

السطح الأملس

المدينة الخافية

قصور العبيد

نساء وجياد

الزلزلة

1875

1875

1875

1875

1875

1875

1875

1875

1875

1875